الطبعة الثانية

فائزة بجائزة نوبل للسلام

إيران تستيقظ

مذكرات الثورة والأمل



شيرين عبادي

ترجمة حسام عيتاني

دار الساقي

شيرين عبادي

فائزة بجائزة نوبل للسّلام

إيران تستيقظ

مذكّرات الثورة والأمل

مع أزاد معاوني

ترجمة حسام عيتاني

دار الساقي

إيـران تسَتيقِظ

مذكّرات الثورة والأمـل

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

Shirin Ebadi, *Iran Awakening: A Memoir of Revolution and Hope*

الطبعة العربية

الطبعة الأولى ٢٠١٠
الطبعة الثانية ٢٠١١

ISBN 978-1-85516-382-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ _ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١٠، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١٠
e-mail: info@daralsaqi.com

إلى ذكرى أمي وشقيقتي الكبرى، مينا،
اللتين رحلتا أثناء كتابة هذا الكتاب.

«الحزن لي هو أسعد الأوقات،
عندما تنهض مدينة متلألئة من رُكام عقلي السكران.
تلك الأوقات التي أصمتُ فيها وأجمد كالأرض،
ويُسمع رعدُ زئيري عبر الكون»

جلال الدين الرومي

* * *

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

القرآن الكريم - سورة العصر

المحتويات

مقدّمة

في خريف العام ٢٠٠٠، أي بعد حوالى عقد من بداية عملي القانوني في الدفاع عن ضحايا العنف في محاكم إيران، عشتُ عشرة أيام هي الأشد هولاً في حياتي المهنية برمتها. إن العمل الذي أتولاه عادة - أوضاع الأطفال الذين يتعرضون للضرب، والنساء اللواتي يصبحن رهائن زيجات مفروضة، والسجناء السياسيون- يضعني في احتكاك يومي مع القسوة البشرية. لكن القضية التي توليتها انطوت على تهديد من طراز مختلف. فقد اعترفت الحكومة أخيراً بأنها متواطئة جزئياً في مجموعة كبيرة من عمليات القتل المتعمد التي وقعت في أواخر التسعينيات وقضت على حياة العشرات من المثقفين. وقد خُنق بعضهم بينما كان في الخارج يهتم بشؤونه، وآخرون قطّعوا إرباً إرباً في بيوتهم. وقد مثلتُ عائلتي اثنين من الضحايا، وانتظرت بقلق رؤية ملفات التحقيق القضائي.

منح القاضي الذي يترأس المحكمة محامي الضحايا عشرة أيام فقط لقراءة الملف برمّته. وستكون الأيام القصيرة هذه مدخلنا الوحيد إلى نتائج التحقيق، وفرصتنا الوحيدة لاستخراج دليل نبني قضيتنا عليه. وكان ارتباك التحقيق ومحاولات تعمية دور الدولة والانتحار الغامض في السجن للمشتبه فيه الأبرز تشكل جميعها الصعوبات التي واجهتنا في تجميع رواية لما رشح حقاً من الفتاوى التي أمرت بعمليات القتل إلى تنفيذها. وكانت الرهانات غاية في الجسامة. فهذه المرة الأولى في تاريخ الجمهورية الإسلامية التي تعترف فيها الدولة بأنها ارتكبت جرائم قتل بحق منتقديها، وهي المرة الأولى التي ستجري

فيها محاكمة لمحاسبة المرتكبين. واعترفت الحكومة بأن فريقاً مارقاً يعمل في وزارة الاستخبارات يتحمل مسؤولية عمليات القتل لكن القضية لم تكن قد أحيلت على المحكمة بعد. وعندما حل الوقت أخيراً، وصلنا إلى قاعة المحكمة يتملكنا توتّر ناجم عن شدة تصميمنا.

بعد أن تحققنا من حجم الملفات الكاملة، وهي أكوام ترتفع إلى مستوى رؤوسنا، أدركنا أنه يتعيّن علينا قراءتها، وأن ذلك غير قابل للتنفيذ، باستثناء أن يقوم كل واحد منا بقراءتها بدوره. وعملاً بتراتبية العمر سمح لي محامو عائلات الضحايا الآخرين بأن أبدأ بالقراءة، لذا كنت أستعجل تقليب صفحاته لكي تسبق عيناي عيون الناظرين.

دخلت أشعة الشمس عبر النافذة المتسخة المقسمة إلى مربّعات، وكانت خيوطها تنتقل في أرجاء الغرفة بسرعة ونحن مُنحنون كتفاً إلى كتف فوق الطاولة الصغيرة، لا يُسمع صوت سوى حفيف الأوراق والصرير المتقطع الصادر عن ساق كرسيّي الخشبية. كانت المقاطع المهمة من محاضر استجوابات المتهمين بالقتل متناثرة في العديد من الملفات ومدفونة في صفحات من الحشو البيروقراطي. وبدت المادة كالحة مع وصف مفصّل لعمليات القتل الوحشية. وثمة مقاطع يقول فيها قاتل، بما يبدو كتلذذ، إنه صرخ «يا زهراء»، في تحية قاتمة إلى ابنة النبي محمد، مع كل طعنة كان يصوّبها إلى ضحيته. وجلس في الغرفة المجاورة لنا محامو الدفاع يقرأون أجزاء أخرى من الملف، وكان من المستحيل عدم الشعور بوجود هؤلاء الرجال الذين يتولون الدفاع عن الذين ارتكبوا جرائمهم باسم الله يتسرّب كالإشعاع عبر الحائط، وهم من صغار الموظفين في وزارة الاستخبارات وتابعون تولوا تنفيذ الإعدامات وفق لائحة لمصلحة مسؤولين رسميين أرفع شأناً.

قرابة الظهيرة خمدت طاقتنا، وطلب أحد المحامين من جندي شاب في القاعة الخارجية أن يأتينا ببعض الشاي. وعند وصول الشاي انكببنا من جديد على القراءة. وتوقفت عند صفحة أكثر تفصيلاً وأكثر سردية من أي فصل

سابق، وتمهلت قليلاً لأزيد من تركيزي. كانت الصفحة تحتوي على محضر محادثة بين وزير في الحكومة وأحد عناصر فريق الموت. وعندما وقع نظري أولاً على الجملة التي ستلاحقني لأعوام عديدة مقبلة اعتقدت أنني أخطأت في القراءة. رمشت عيناي لكنني أعدت القراءة من مطلع الصفحة: «الشخص التالي الذي سيقتل هو شيرين عبادي». أنا.

جفّ حلقي. قرأت السطر مرّات عدة. وغطت غشاوةٌ الكلماتِ المطبوعة أمامي. كانت تجلس إلى جانبي المرأة الأخرى الوحيدة في الغرفة، باراستو فوروهار، التي كان والداها أول من قُتل طعناً ثم قُطّعت جثتاهما بوحشية في بيتهما في طهران في وسط الليل. ضغطتُ على ذراعها وأشرت برأسي إلى الصفحة، فسوّت حجابها واقتربت وراحت تقرأ من الأعلى. ثم راحت تكرر «هل قرأتها؟ هل قرأتها؟». وتابعنا القراءة معاً. قرأت عمّن يُفترض أن يكون قاتلي كيف ذهب إلى وزير الاستخبارات طالباً الإذن بتنفيذ قرار قتلي، فأجاب الوزير بأن ذلك لن يكون في شهر رمضان، بل في أي وقت يليه. وتذرّع المرتزق بأنهم لا يصومون في جميع الأحوال وقد ابتعدوا عن الله. من خلال هذا الاعتقاد - بأن المثقفين، وبأنني، قد تخلّينا عن الله- برّروا عمليات القتل كواجب ديني. وكان سفك دمنا وفق المصطلحات المرعبة لأولئك الذين أوّلوا الإسلام تأويلاً عنيفاً، حلالاً ومباحاً من الله.

في تلك اللحظة سمعنا صريف الباب يُفتح. أتونا بالمزيد من الشاي في أكواب بلا نكهة أشاعت الاضطراب على الطاولة لكنها أبقتنا متنبهين. شغلت نفسي بإعادة ترتيب الأوراق أمامي، وكان ذهني يعيد تدوير ما قرأت. لم أكن خائفة، حقاً، ولم أكن غاضبة. وأكثر ما أتذكره شعور عارم بعدم التصديق. لماذا يكرهونني إلى هذا الحد؟ تساءلت. ماذا فعلت لأثير كراهية من هذا الصنف؟ كيف خلقت أعداء كهؤلاء، في غاية الإصرار على سفك دمي حتى أنهم لا يستطيعون انتظار نهاية شهر رمضان؟

لم نتوقف للحديث عن ذلك حينها؛ لم يكن ثمة من وقت لالتقاط

الأنفاس أو لهمسات التعاطف من نوع «يا لفظاعة أن تكوني التالية على اللائحة». لم يكن في وسعنا إضاعة أي جزء مهما كان ضئيلاً من وقتنا المحدود والثمين مع الملفات. ارتشفت الشاي وتابعت على الرغم من أن أصابعي أصيبت بالشلل وصرت أقلّب الصفحات بصعوبة. وانتهينا عند الساعة الثانية تقريباً. وعند مرورنا في الباحة الخارجية أخبرت المحامين بما أُعدّ لي فهزّوا رؤوسهم وتمتموا «الحمد لله»؛ لقد نجوت من الموت خلافاً للضحايا الذين كنا نمثل عائلاتهم.

خطوت وسط الأصوات المتنافرة لازدحام السير في طهران، في الشوارع العريضة وبين المباني المنخفضة التي يسيطر عليها في ذلك الوقت من النهار أزيز السيارات القديمة. استقللت سيارة أجرة واستسلمت للارتجاجات التي تسبّبها سيارة «البيكان» تحتي إلى أن وصلت إلى منزلي. أسرعت في الدخول وخلعت ملابسي وبقيت واقفة تحت الدش لساعة تاركة المياه الباردة تتدفق عليّ لتغسل نجس تلك الملفات الذي تسلل إلى عقلي وإلى ما تحت أظفاري. ولم أخبر زوجي بالأمر إلاّ بعد العشاء، وبعد أن أوت ابنتاي إلى سريريهما. بدأت بالقول «لقد حصل معي أمر مثير للانتباه في العمل اليوم».

الفصل الأول

طفولة فتاة في طهران

نهرتنا جدتي المتساهلة التي لم تخاطبنا قط إلاّ بالكلمات المعسولة وعبارات التدليل، لأول مرة في التاسع عشر من آب/ أغسطس من العام ١٩٥٣. كنا نلعب في الزاوية الظليلة لغرفة المعيشة المضاءة بقنديل عندما التفتت صوبنا وعلى وجهها تعبير قاس وزجرتنا طالبة الهدوء. كانت تلك السنة السابقة لانضمامي إلى المدرسة الابتدائية، وعائلتي تمضي الصيف في بيت أبي الريفي الرحب في ضواحي همدان، وهي مقاطعة في وسط غرب إيران وفيها شبَّ والداي. كان لجدتي أيضاً مُلكية قريبة يجتمع فيها الأحفاد كل صيف يلعبون «الغميضة» في بساتين الفاكهة ويعودون عند المساء للاجتماع حول المذياع مع الراشدين. أتذكر ذاك المساء بوضوح تام: عدنا إلى البيت وأصابعنا دبقة وثيابنا ملطخة بالتوت لنجد البالغين في مزاج فظيع، وبدا لوهلة أنهم أصيبوا بالجمود جرّاء الارتباك. جلسوا متلاصقين حول المذياع، أقرب إلى بعضهم البعض من المعتاد، وعلى وجوههم تعابير أشخاص مخمورين، والأوعية النحاسية أمامهم التي تحتوي التمر والفستق الحلبي لم يمسسها أحد. وأعلن صوت مرتجف من المذياع الذي يعمل بالبطارية أنه بعد أربعة أيام من الاضطرابات في طهران، أطيح برئيس الوزراء محمّد مصدّق في انقلاب. لم يعنِ هذا الخبر شيئاً بالنسبة إلينا، نحن الأطفال. ضحكنا ضحكات قصيرة متوتّرة أمام أعين الكبار المهمومة ووجوههم التعسة، وولّينا الأدبار خارجين من غرفة المعيشة التي أصيبت بالجمود وتحوّلت إلى ما يشبه مكان العزاء.

أعلن أنصار الشاه الذين استولوا على شبكة الإذاعة الوطنية أنه مع سقوط مصدّق انتصر الشعب الإيراني. بيدَ أنّ قلة هم من شاركوا في هذا الشعور، باستثناء الذين دُفع لهم للمشاركة في الانقلاب. كان مصدّق، بالنسبة إلى الإيرانيين العلمانيين والمتديّنين على السواء وبالنسبة كذلك إلى الطبقتين العاملة والثرية، أكثر بكثير من مجرّد رجل دولة يتمتع بالشعبية. بالنسبة إليهم جميعاً، كان بطلاً وطنياً محبوباً، وشخصية جديرة بتعظيم حماسي، وقائداً قادراً على توجيه حضارتهم العظيمة الممتدة على أكثر من ألفين وخمس مئة عام من التاريخ المدوّن. قبل سنتين، في العام ١٩٥١، أمَّمَ رئيس الوزراء صناعة النفط الإيرانية التي كانت خاضعة عملياً حتى ذلك الحين لسيطرة تكتلات شركات النفط الغربية التي تستخرج وتصدّر كميات ضخمة من النفط الإيراني وفق اتفاقيات خصّصت لإيران جزءاً هزيلاً فقط من الأرباح. هذه الخطوة الجريئة التي أربكت حسابات الغرب في الشرق الأوسط الغني بالنفط أكسبت مصدّق التبجيلَ الأبدي بين الإيرانيين الذين رأوا فيه شخصية أب الاستقلال الإيراني، على غرار ما كان المهاتما غاندي يحظى بالاحترام الكبير في الهند لتحريره أمّته من الإمبراطورية البريطانية. وسّع مصدق، المنتخب ديموقراطياً في فوز ساحق في العام ١٩٥١، شعبيته بما يتجاوز جاذبية دعوته القومية. وعُرِف بمطالبته العلنية بحرية الصحافة وميله إلى القيام بالأعمال الدبلوماسية وهو في سريره، وتربيته السويسرية وبصيرته الإيرانية المدمجة في قدرته على جذب الناس الذين رأوا فيه قائداً لامعاً وواسع الحيلة لا يجسّد تطلعاتهم فقط بل أيضاً مفهومهم المعقّد لشخص يشبههم، وكان مكوّناً من تناقضات ظاهرة، جذور أرستقراطية وطموحات شعبوية، وحساسيّات علمانية لم تحل قط دون إقامة التحالفات مع طبقة رجال الدين النافذين.

منح الدستور الإيراني للعام ١٩٠٦، الذي أسّس الملكية الدستورية الحديثة، الملكيةَ سلطات رمزية وحسب. وأثناء حكم رضا شاه بين العامين

١٩٢٦ و١٩٤١، وهو ديكتاتور حكيم وباني أمة استحوذ على السلطة كاملة بقدر من الدعم الشعبي، حكمت الملكيةُ البلاد. لكن في العام ١٩٤١ عندما احتلت القوات البريطانية والروسية إيران أثناء الحرب العالمية الثانية، أُجبِر رضا شاه على التخلّي عن العرش لابنه، محمد رضا بهلوي. حكم الشاه الشاب فترة تميّزت بالانفتاح السياسي النسبي وبحرية الصحافة، وانتقل توازن السلطات إلى الحكومة المنتخبة فيما يسيطر البرلمان ورئيس الوزراء المعيّن من قبله على شؤون البلاد وفق ما يقتضي الدستور. وخلال فترة حكم مصدّق القصيرة كان للشاه تأثير محدود. ويمكن القول إنه حتى وقوع الانقلاب في العام ١٩٥٣ كان الشعب الإيراني محكوماً عملياً من قِبل ممثليه المنتخبين.

وفي العام ١٩٥١، كان الشاه غير المحبوب البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، والوارث لسلالة غير شعبية نشأت حديثاً، مؤسسها ضابط في جيش القوزاق الفارسي، يبدو إلى جانب رئيس الوزراء دونياً وغضّاً ولا يبشر بالكثير. يراقب الشاه صعود مصدّق بقلق، وقد واجه أمام التأييد الشعبي الجارف لمصدّق نقطة ضعفه كملك غير شعبي يسانده فقط جنرالاته والولايات المتحدة وبريطانيا. وكان تأميم مصدق للنفط الإيراني أثار سخط القوتين الغربيتين لكنهما تمهلتا قبل مباشرتهما الرد. واستنتجتا في العام ١٩٥٣ أن الظروف باتت مؤاتية للإطاحة بمصدّق. ووصل آنذاك كرميت روزفلت حفيد (الرئيس الأميركي) تيدي روزفلت إلى طهران لطمأنة الشاه المضعضع ولإدارة الانقلاب. ومن المليون دولار الموجودة في تصرفه دفع للحشود في جنوب طهران الفقير لتنظيم مسيرة احتجاج ورشا محرري الصحف لنشر عناوين مختلقة عن تفاقم النقمة على مصدّق. وفي سحابة أربعة أيام كان رئيس الوزراء المريض والمبجّل يختبئ في قبو، واستعاد الشاه الراشي السلطة، متوجهاً بالشكر إلى كرميت روزفلت بعبارة صارت شهيرة: «أدين بعرشي إلى الله وإلى شعبي وإلى جيشي وإليك». كانت هذه لحظة ذل عميق للإيرانيين الذين رأوا الولايات المتحدة تتدخل في شؤونهم السياسية كما لو أن بلادهم كانت مجرّد تابع عديم الأهمية،

يُعيَّن قائدها أو يُعزَل وفق رغبات الرئيس الأميركي ومستشاريه في وكالة الاستخبارات المركزية.

أمر الشاه بعقد محاكمة عسكرية لمصدّق. ونشرت الصحف صوراً على صفحاتها الأولى لرئيس الوزراء المخلوع وهو يدخل إلى قاعة المحكمة المزدحمة وجسمه النحيل وقسماته الحادة تصدُم أكثر من أي وقت مضى. وقد أصدر القاضي حكماً بالإعدام لكنه قال إنه سيخفضه إلى ثلاث سنوات سجناً بفضل استرحام الشاه له. وقضى مصدّق الأعوام الثلاثة هذه قابعاً في سجن طهران المركزي؛ وانسحب لاحقاً ليقيم في قريته أحمد آباد متقاعداً يجيب على رسائل أنصاره الأوفياء المنكوبين. وفي ما بعد ظهرت ردوده التي تحمل خطه الماهر والواضح في إطارات في مكاتب أبرز الشخصيات الإيرانية المعارضة، هؤلاء الذين سيقتلعون سلطة الشاه بعد ربع قرن في ثورة العام ١٩٧٩.

* * *

كان والداي قد التقيا قبل اثني عشر عاماً من الانقلاب الذي عرقل سير التاريخ والشعب الإيرانيين، وتزوّجا وفق النمط النموذجي لأبناء جيلهما: عبر المغازلة وعرض الزواج التقليديين اللذين يعرفان بـ«خواستكاري». جاء أبي إلى منزل عائلة أمي مقدماً نفسه، وطالباً يدها للزواج بُعيد ظهيرة ساطعة شمسها من ربيع العام ١٩٤٥ كان نسيم الجبال المنعش يتسلل فيها عبر مدينة همدان القديمة. كانت تربطهما صلة قرابة بعيدة والتقيا مرات عدة في الأشهر الماضية في بيت قريب آخر. يومها استقبلته العائلة في غرفة الجلوس الرسمية المخصصة للجلسات المختلطة، وقدّمت والدتي الشاي و«الشيريني» (تعني هذه الكلمة «الحلويات» وتتشارك في جذرها مع اسمي «شيرين»). وكانت أمي تسترق النظر إلى جانب وجه والدي الوسيم أثناء سكبه، حذراً، الشاي بالقرفة بأسلوب رشيق تمرّن عليه طويلاً من أجل المناسبة هذه. وكان أبي أغرم بها بعمق منذ البداية. وحتى اليوم لم أرَ رجلاً مولعاً ولعاً مكرّساً لامرأة أكثر من

ولع أبي بأمي. وطوال حياتهما المديدة كان يخاطبها باحترام بعبارة مينو «خانوم»، مضيفاً الكلمة الفارسية الرسمية «السيدة» بعد اسمها. في حين كانت تخاطبه هي بمحمد علي خان.

كانت والدتي تحلم، مذ كانت صغيرة، بالدخول إلى مدرسة الطب وأن تصبح طبيبة. لكن قبل يوم «الخواستكاري» صرفت العائلة النظر بحزم عن هذه الإمكانية على أساس أنه لم يكن من الممكن السيطرة على أمي سوى بشق الأنفس. ولم يفت أحداً، عندما بدأت مراهقتها، ملاحظة أنها أصبحت جميلة جمالاً أخّاذاً. ولو أنها وِلِدت قبل جيل، عندما لم يكن قد سُمع بعد عن نساء يدرسن في الكليات، لكانت بشرتها المضيئة والناعمة قد منحتها الأفضلية في المجال الوحيد الذي في وسعها المنافسة فيه: سوق الزواج. لكن بالنسبة إلى امرأة وِلِدت في أواخر العشرينيات من القرن العشرين، وهو زمن شهد تراخياً بطيئاً للقبضة البطريركية الأبوية على المجتمع الإيراني وقبول قلة من النساء في الجامعات، فقد ضَمِن لها مظهرها الحسن الحق في طموحات أكبر من مجرّد الزواج.

لم تضع غطاء الرأس، ولم تكن عائلتها متمسكة بالتقليد إلى حد الإصرار على فتياتها لتغطية شعورهنّ. غير أنها شهدت حظر الحجاب كجزء من حملة التحديث التي أطلقها رضا شاه الذي توّج نفسه ملكاً لإيران في العام ١٩٢٦. بيد أن تحويل بلد شاسع مؤلف من قرى وفلاحين في غضون ليلة واحدة إلى بلد مركزي تخترقه السكك الحديدية ويحكمه القانون كان مهمة معقدة. اعتقد رضا شاه أنها ستكون مهمة مستحيلة من دون مشاركة نساء البلاد فعمد إلى إعتاقهنّ من خلال منع الحجاب، رمز نير التقليد وعبئه. كان رضا شاه أول، لكن ليس آخر، حاكم إيراني يتصرف بناء على جدول أعمال سياسي - التحديث العلماني، تقليص نفوذ طبقة رجال الدين- يتخذ من أجساد النساء واجهة له.

تآمر الظرف والزمن للحيلولة دون تلقّي أمي تعليماً جامعياً، لكنها على

الأقل انتهت إلى الزواج من رجل أبعد ما يمكن تصوّره، في زمنه، عن النزعة البطريركية. كان أبي رائق المزاج، لا يخفق في السيطرة على غضبه، ولا يمكن استفزازه لرفع صوته وعندما يستاء أو يحنق من أمرٍ يسير في البيت ويداه وراء ظهره أو يفتل سيجاراً بين أصابعه بأسلوب خاص مستخرجاً التبغ من العلبة الفضية بانتباه، مستغلاً الوقت ليهدّئ ذهنه ولا يرفع رأسه إلا وقد عاد تماماً إلى رصانته.

وِلِد أبي في أسرة ثرية، وكان والده من ملاكي الأراضي وخدم كعقيد في الجيش في أواخر عهد السلالة القاجارية، وهي الأسرة الملكية التي حكمت قبل رضا شاه. أما جدي فتزوّج من أميرة قاجارية أحبّها حبّاً غامراً لكنها لم تستطع أن تلد له الأبناء. وبعد أعوام مؤلمة من المحاولات نزل عند إصرار أشقائه وتزوّج امرأة ثانية بموافقة زوجته الأولى. وولدت زوجته الثانية، شاهربانو، أبي وعمي. وتوفّي جدي عندما كان أبي في السابعة من العمر، تاركاً شاهربانو وحيدة مع طفلين. وتنازع الأقرباء في وصيته وإرثه وتمكنوا في نهاية المطاف من انتزاع جزء كبير من ممتلكاته وثروته من أرملته شاهربانو. وبفعل الغيظ، قرّرت أن تخوض القتال. وسافرت إلى قُمّ، المدينة المقدّسة في إيران ومقرّ الحوزات الدينية في البلاد، آملة العثور على رجل دين يمكن أن يساعدها على تأمين حضانة طفليها ورعاية ما تبقى من أملاك. وتدبّرت بمساعدة رجال الدين أمر الاحتفاظ بابنيها وبما يكفي من ممتلكات لتوفير حاجات العائلة الأساسية. وكان إدراك النساء لحقوقهن محدوداً في تلك الأيام، ويقوم على شعورهن المرتكز على الحدس بشأن الصواب والخطأ؛ وما كان لتخطر في بالهنّ فكرة المطالبة بإصلاح النظام القانوني، وعوضاً عن ذلك كنّ يلجأن إلى الرجال النافذين في المجتمع - غالباً ما يكونون من رجال الدين الذين يُنظر إليهم كذُخر في مقارعة الظلم، الكبير منه والصغير- للتدخل وحماية مصالحهن.

***

ولدتُ في الواحد والعشرين من حزيران/ يونيو من العام ١٩٤٧. وتتمحور ذكريات طفولتي حول بيت في العاصمة، في ما كان يُسمّى في ذلك الحين شارع الشاه (وجرى تغيير اسمه على غرار أكثرية شوارع العاصمة بعد الثورة الإسلامية). كان المنزل واسعاً ومؤلفاً من طبقتين ومن عدد كبير من الغرف، وملعباً حقيقياً لأشقائي وأترابي ولي. وقد بُني وفق نموذج المنازل الإيرانية التقليدية حول فناء مركزي تشغله حديقة تعج بالورود وأزهار الزنبق البيضاء، وفي الوسط حوض تسبح فيه أسماك فضية. وفي أمسيات الصيف كانت أسرتنا تنتقل إلى الخارج لنتمكن من النوم تحت النجوم في الهواء المعطّر بأريج الأزهار فيما كان صوت الجداجد يملأ الليل. أبقت أمي البيت نظيفاً - كان أي نوع من التشويش يثير حنقها - وكان يساعدها في ذلك طاقمنا للعناية المنزلية. وقد طلب العديد من عمال مزرعة أبي أن يخدموا في بيتنا في طهران. وكانت أمي تكلّف كل خادم بمهمة محددة: واحد يقوم بالتسوّق، وآخر يطهو، والثالث ينظف، والرابع يقدم الشاي ووجبات الطعام إلى الضيوف.

كانت أمي تحب أبي حباً أصيلاً، على الرغم من أن زواجهما كان مدبّراً أساساً، وحال بينها وبين الالتحاق بالكلية. وكانت تنتظر بنفاد صبر سماع صوته العميق المجلجل يتردد في أنحاء الفناء عند آخر النهار. لكن بعد زواجها طوّرت مزاجاً قلقاً استثنائياً. إذا عدنا متأخرين وإن لخمس دقائق فقط كنا نجدها في الزقاق خارج المنزل تتملكها الخشية من أن نكون قد اختُطفنا أو صدمتنا سيارة. كانت العصبية تعبّر عن نفسها من خلال صحتها الجسدية كذلك، فكانت تمرض باستمرار، وقد عجز الأطباء الذين كانت تتردّد إليهم بكثرة عن علاج أو تشخيص مصدر اضطرابها الدائم علاجاً أو تشخيصاً دائمين. فما من سبب واضح له. ومن أي زاوية تقريباً نُظر إلى أمي كانت تبدو امرأة محظوظة للغاية - يُعنى بها زوج محب مثالي، وهي أم لأولاد مطواعين معافين، وفي حالة اجتماعية ومالية جيدة نسبياً. وكان هذا كافياً لجعل أكثرية

نساء إيران في أيامها راضيات. غير أنني لا أستطيع أن أتذكر يوماً واحداً كانت أمي سعيدة حقاً فيه.

عندما كبرتُ، كانت أمي لا تزال تعتني بهندامها على نحو عفيف، وتبتسم بهدوء جالسة تحوك شيئاً في أكثر زاوية يغمرها الظل من زوايا بيتنا النظيف. لكن بواعث القلق ظلت ثائرة في داخلها، وجسمها يتمرد مصاباً بالمرض تلو الآخر. كانت مريضة على الدوام، ولم يؤد انتباهها إلى صحتها المتدهورة سوى إلى زيادة عصبيتها. وسيطر الربو عليها لفترة من الزمن وصارت تذرع البيت شاكية إحساسها بالاختناق. وعندما كنت في الرابعة عشرة من عمري تزوجت شقيقتي الكبرى وانتقلت عائدة إلى همدان، ما جعلني الأكبر بين الأبناء في البيت. كانت صحة أمي السيئة هي المشهد الخلفي لحياتنا، وكنت أخشى عليها دائماً من الموت. كنت أستلقي مستيقظة أثناء الليل، أحدّق في السقف عبر فتحات شبكة الشاش المخصصة للبعوض، يسكنني القلق حيال شقيقي وشقيقاتي. ما الذي سيحل بهم إذا ماتت أمنا؟ في كل ليلة، كنت أناشد الله أن يبقيها حية إلى أن يكبر شقيقي وشقيقتي الأصغر. وكنت أعتقد، في ذهني الفتي، أنني سأضطر إلى ترك المدرسة وتحمّل مسؤولياتها في البيت إذا ماتت.

في أحد الأيام من تلك السنة، تسلّقت إلى العلية، لأتوجّه بدعاء هادئ إلى الله. صلّيت قائلة: «أرجوك، أرجوك أن تبقي أمي على قيد الحياة لأتمكن من البقاء في المدرسة». فجأة، سيطر عليّ شعور لا يمكن وصفه، بدأ في معدتي ثم انتشر ليصل إلى أطراف أصابعي. أحسست بإلهام أن الله يستجيب لي، وتبخر حزني وداخلت قلبي بهجة غريبة. ومنذ تلك اللحظة لم يتزعزع إيماني بالله. قبل ذلك اليوم، كنت أتلو صلاتي حفظاً، لأنني تعلّمت أن أقولها تماماً كما تعلمت أن أغسل وجهي قبل النوم. لكن بعد تلك اللحظة في العلية، بدأت أتلو صلاتي بإيمان حقيقي. يصعب وصف يقظة الإحساس الروحي، كما يصعب أن نشرح لشخص لم يقع في الحب قط الانعطافات العاطفية في تلك

التجربة. وقد ذكرني الكشف الروحي الذي عشته في العلّية ببيت من الشعر الفارسي يقول: «أنت أيها المُبتلى / لقد جاءك الحب، وهو غير مبصر».

خلال الجزء الأكبر من طفولتي - وعلى غرار أولئك الأطفال الذين تكون العائلة هي العالم الوحيد الذي يعرفونه- لم ألاحظ قط أن بيتنا كان مميزاً. ولم يصدمني كأمر استثنائي ألاّ يعامل والداي شقيقي على نحو مختلف عن بناتهما. بدا ذلك طبيعياً تماماً، وافترضت أن الأمر ذاته يسري في كل الأسر الأخرى. بيد أن الوضع لم يكن كذلك على الإطلاق. كان الأطفال الذكور، في أكثرية البيوت الإيرانية، يتمتعون بمرتبة مبجّلة، حيث يجري إفسادهم والإفراط في تدليلهم من قِبل لفيفٍ من العمّات والخالات والقريبات الإناث. وكان الأولاد الذكور يشعرون بأنهم المدار الذي تسير العائلة فيه. كان يجري التغاضي عن ثورات غضبهم أو امتداحها وتصبح أذواقهم في المأكل الشغل الشاغل في المطبخ. وعندما يكبر الأولاد، تتوسع امتيازات الصبيان - من الركض في الجوار إلى مرافقة ثلّة من الأصدقاء - في حين تنكمش امتيازات الفتاة، لضمان أنها ستبقى «نجيب»[1]، أي موقرة وطيبة المنشأ. وأن يُحبّ الأهل أبناءهم الذكور أكثر من الإناث يُعتبر من الأمور الطبيعية في الثقافة الإيرانية؛ ففي الذكور تكمن طموحات العائلة المستقبلية؛ والحال أن الشغف والتعلّق بالابن كان بمثابة الاستثمار.

في بيتنا، كان أهلنا يوزّعون الانتباه والشغف والالتزام بالنظام توزيعاً عادلاً. لم أشعر قط أن أبي يهتم بجعفر أكثر مني لأنه صبي فقط، أو أن جعفراً كان مميّزاً أكثر مما كنت أنا. وكانت كل روحاتنا وغدواتنا ضمن مواعيد محددة ومحسوبة إلى أن التحقنا بالمدرسة الثانوية. كان يُسمح لي بمشاهدة الأفلام والذهاب إلى الحفلات مع صديقاتي فقط بعد المدرسة الثانوية، والقواعد ذاتها كانت مطبقة مع أخي.

---

(١) بالفارسية في الأصل.م

كانت طريقة أبي في التعامل معنا بالتساوي تُربك أحياناً طاقم العناية بالمنزل. فقد رأى الخدم في شقيقي ربَّ عملهم المقبل، وتوقعوا منه أن يمارس نفوذه على الجنس المقابل من عمر مبكر. ومن الطبيعي أن تكون تربيتهم التقليدية قد علمتهم أن الصبيان يستحقون استقلالاً وحرّية مميّزين يؤهلاهم للسلطة التي سيتولونها كرجال. ولما كنت أكبر من أخي بخمس سنوات كنت أفوز عادة في الشجارات بيننا. ولم يعاقبني والداي أو يقرّعاني البتة، ولكنّهما عوضاً عن ذلك كانا يتوسطان بيننا بلطف، كما لو أنهما يرعيان سلاماً جدّياً بين بالغين. وكان طاقم العناية بالبيت يحتج بصخب معتبراً ذلك انهياراً في النظام الاجتماعي. كانوا يسألون أبي: «لماذا تسمحون لفتاة بضرب جعفر خان؟» ويكتفي أبي بابتسامة ويجيب: «إنهما طفلان، وسيسوّيان المسألة بنفسيهما».

لم ألاحظ كيف أن المساواة بين الجنسين غُرِست لديّ في البيت أولاً من خلال تقديم المثال إلا عندما كبرت كثيراً. لم يحصل ذلك إلاّ عندما راقبت شعوري بموقعي في العالم من وجهة نظر شخص بالغ، حين رأيت كيف أن تنشئتي جنّبتني قلّة الثقة بالنفس والاتكالية التي لاحظتها عند نساء نشأنَ في بيوت أكثر التزاماً بالتقاليد. كان أبي المنافح عن استقلالي من فِناء اللعب إلى قراري اللاحق بأن أصبح قاضية يغرس فيّ ثقة بالنفس لم أشعر بها قط شعوراً واعياً، لكنني صرت أعتبرها لاحقاً إرثي الأكبر قيمة.

* * *

عندما أعود بالتفكير إلى تلك الأعوام المبكرة تتوزع معظم ذكرياتي بين همدان وطهران. وفي معزل عن عمادتي الدينية في العلّية، لا يرتبط أيّ من هذه الذكريات ارتباطاً محدداً بمعنى أو بزمن، باستثناء يوم الإطاحة بمصدّق - اليوم الذي أزيح فيه أول قائد إيراني منتخب ديموقراطياً عن الحكم في انقلاب نظمته وكالة الاستخبارات المركزية والدمى التي تتحرك بأوامرها. وعلى الرغم

من أنني لا أكاد أذكر تقريباً ما جرى قبل ذلك، ولا يزيد ما حصل لاحقاً عن أجزاء مبعثرة، وعلى الرغم من أنني في ذلك الوقت لم أشعر تقريباً بالمغزى المصيري لذلك اليوم، فإنني أذكر وجوه البالغين ونبرة صوت جدتي بل حتى لمعان المذياع الخشبي.

بعد ربع قرن فقط، عندما أطاحت الثورة الإسلامية بالشاه واحتجز المتشددون الرهائن في السفارة الأميركية، رأيت القوس الطويل الذي سار فيه الانقلاب عبر تاريخ القرن العشرين. لكن في تلك الأيام المبكرة، عندما كنت بعد طفلة، تحسّست أولاً أثر الإطاحة بمصدّق في البيت. لقد أُجبر أبي، وهو من المؤيدين القدامى لرئيس الوزراء المخلوع، على ترك عمله. قبل الانقلاب كان قد تقدم ليصبح نائب وزير الزراعة. وأمضى الأعوام التالية للانقلاب يراوح في مناصب دنيا، ولم يجر تعيينه في منصب رفيع المستوى بعد ذلك البتة. كان من أثر تهميش والدي أن أصبح بيتنا منطقة خالية من السياسة على نحو لا يمكن إصلاحه. وتحوّل والدي إلى رجل مرتبط بالبيت يذرع صالاته طوال النهار جيئة وذهاباً، بدلاً من أن يفعل ذلك ليلاً فقط. لم يُفسَّر لنا قط، نحن الأطفال، ما الذي جرى، ولماذا أصبح والدنا فجأة في البيت طوال اليوم، مطرقاً مسترسلاً في التفكير وهادئاً. فعندما يقع أمر فظيع تكون ردة فعل الإيرانيين الغريزية الأولى هي إخفاءه عن أطفالهم الذين يلاحظون أن شيئاً ما قد حصل على غير ما يرام وعليهم لذلك أن يضيفوا عِبء جهلهم إلى عِبء بلبلتهم. ومنذ ذلك الحين، قررت أن أكون مختلفة، وأن أتحدث بصراحة مع أولادي بشأن الفواجع.

لقد أقنع الانقلاب العديد من الإيرانيين أن السياسة قذرة، وأنها عبارة عن لعبة معقدة تدور في الغرف الخلفية وتتخفّى بقناع المصالح التي يكون فيها الناس العاديون مجرد بيادق؛ وغذّى ذلك إحساساً بأننا لسنا أسياد مصيرنا، كما غذّى التوجه إلى الإيمان بأن تطوّر حدث ما أمر مقرّر منذ نشأته. بعد ذلك اليوم رفض أبي مناقشة الأمور السياسية في البيت، حتى يتمكن أبناؤه من أن

يكبروا وهم غير مشوبين بالاهتمام بعملية لا يستطيعون التأثير فيها. ولاقتناع أبي بأن حياة مهنية محطمة واحدة تكفي العائلة أصرّ على أن نلتحق بجامعات ممتازة وأن نخدم بلدنا بصفتنا تكنوقراطيين. ونتيجة ذلك أصبح نموّي فريداً من جانب إضافي: كنت ذاهلة عن السياسة باستثناء تلك الليلة من العام ١٩٥٣.

الفصل الثاني

اكتشاف العدالة

كان العام ١٩٦٥ الذي التحقت فيه بكلية الحقوق نقطة تحوّل بالنسبة إليّ. كان حرم جامعة طهران المشحون بالاهتمامات الثقافية يتورّط أكثر فأكثر في السياسات التي تزداد سخونتها في إيران برمّتها. وكنت لا أكاد أعلم شيئاً عن هذه التغييرات، في المنطقة الخالية من السياسة التي فرضها والدي. وعندما قررت أن أقصد كلية الحقوق لم أتخيّل إطلاقاً أن يكون طلاب الحقوق منهمكين إلى هذا الحد بالسياسة. في تلك السنة تعرّفت إلى الحياة الجامعية برمّتها للمرة الأولى، وكان الالتحاق بكلية الحقوق في إيران يعادل الحصول على شهادة معمّقة في المجال القانوني. وفي أواخر ربيع العام ١٩٦٥، عندما اخترت مجال دراستي العليا، فكرت مليّاً في مجال العلوم السياسية متخيّلة نفسي سفيرةً. لكنني أقول بكل صدق إنني علمت بأنني سأحصل على فرصة أفضل في تجاوز مسابقات الدخول الصارمة الخاصة بكلية الحقوق التي تتلاءم مع النواحي الأقوى لديّ في الحيّز الأكاديمي. ولما كان النظام العدلي الإيراني لا يفرض على القاضي أن يكون قد مارس المحاماة سابقاً، فقد عقدت النيّة أثناء دراستي على الانخراط في سلك القضاء. كان صفي يعجّ بالطلاب الذين يسعون إلى أن يصبحوا علماء قانون أو خبراء أو قضاة مثلي. وعلى الرغم من أننا أمضينا الساعات الطوال في المكتبة منكبّين على نصوص القانون الجنائي، محاولين استنباط دراسات للحالات المعاصرة، فقد كان معظم زملائي في الصف يركزون اهتمامهم على السياسات التي تتشكل وتختمر حولهم.

بعد ظهر يوم صافٍ، صرخ الطلاب أن الرسوم مرتفعة جدّاً، وهتفوا مطالبين بجعل إدارة الجامعة خاضعة للمساءلة. كان طلاب جامعة طهران يهتفون أساساً بكل شعار لا يجعلهم يتعرضون للاعتقال الفوري. وبينما كنت واقفة بين المحتجين المتجمعين، النساء بتنانيرهنّ القصيرة وشعورهنّ المصفّفة بإتقان على شكل قفير النحل، والشبان بقمصانهم قصيرة الأكمام ووجوههم جدّية السمات، شعرت بأن جيشاناً من الطاقة قد مرّ من خلالي. لقد جذبتني تظاهرات الاحتجاج كالمغنطيس. قلّما كان يهمّ الشعار الذي يهتف به الطلاب ويرددونه. وغالباً ما كانوا يتظاهرون احتجاجاً على ارتفاع رسوم التعليم. لكن لو احتجوا على ارتفاع أسعار الشاي لكنت قد شاركت في التظاهرة. على أن شيئاً ما يتعلق بالمواجهة - لعلّه الأدرينالين، أو التماع فكرة، أو الإحساس سريع الانتشار بأننا مكلفون بأمر معيّن- كان يستدعيني وصرت أشارك في الاحتجاجات مشاركة منتظمة. ولحسن الحظ، ولأننا كنا في أواخر الستينيات والطلاب يتظاهرون كل يومين تقريباً، لم أشعر بنقص في التظاهرات.

أثارت التظاهرات قلق «السافاك»، شرطة الشاه السرّية، التي كانت تمشّط الحرم بفاعلية، كما كانت تمشّط شوارع أكثر المدن الإيرانية، كما تراقب مجموعات الطلاب الإيرانيين في الولايات المتّحدة وأوروبا، لاقتلاع المعارضين الذين تجاوزت نشاطاتهم السياسية المشاركة العرضية والرائجة في التظاهرات. ولماذا لا يشارك الشاب الإيراني العادي - المتديّن أو العلماني، المثقف أو المحبّ للعلاقات الاجتماعية، الجدّي أو الفضولي- في التظاهرات المختلفة؟ لقد تطلّب التفتيش عن المنظّم الحقيقي الذي يسعى إلى زعزعة نظام الشاه والتمييز بينه وبين من يستكشف سبب الجلبة، حشد طاقات وموارد جهاز شرطة ضخم. ولتجنّب مجسّات «السافاك» ادّعى الطلاب أنهم يحتجون عادة على رسوم التعليم، في حين أن ما كانوا يودّون إطلاق الهتافات بشأنه كان أقرب إلى «توقفوا عن الاستيلاء على عائدات نفطنا لمصلحة الأساطيل

والطائرات المقاتلة الأميركية!» أو «عد من سان موريتز[١] واهتم بالفقر في المدن، رجاء!».

ذات يوم كنت أبحث عن صديقاتي، مجيلة نظري بين الأشجار المقوّسة والأبنية المتشابهة ولكن الصقيلة للحرم الجامعي الرحب، وهو واحد من بين قلة من الجامعات المحترمة في بلد كان يتعيّن أن توفّر له عائداتُ النفط الكثيرَ غيرها. وعلى غرار العديد من أصدقائي الذين انتشروا بين الحشود في ذلك اليوم، كنت غافلة تماماً عن أن تلك الاحتجاجات ستشكل بداية حقبة. ولم أتخيل قط أنها ستبدّل في يوم من الأيام مسار حياتنا، وترسل موجات من الصدمة إلى أنحاء العالم، وتنتج آخر ثورة عظيمة في القرن العشرين. كانت الاحتجاجات هي المشهد الخلفي لحياتنا في الجامعة، جرعة من الأدرينالين نتلقاها بعد ظهر كل يوم، قبل أن نقصد المقهى الواقع قرب الجامعة لارتشاف القهوة المثلجة، والبوظة بالفانيليا المذابة بالقهوة، بعد انتهاء الصفوف.

بيد أننا في ذلك اليوم، وخلافاً لغيره من الأيام، تجنّبنا المرور بالمقهى. وكانت إحدى صديقاتي تملك سيارة مخلّعة من طراز «بيكان» مركونة في الشارع، فتكوّمت ستّ منا في السيارة، وتوجّهنا شمالاً نحو دربند، حيث تنتشر المقاهي والمطاعم بكثافة على السفح الأسفل لألبورز، الجبال التي تطوّق الحد الواقع في أقصى شمال المدينة. قد تعتقدون أن حديثنا يجب أن يكون جدّياً لمجرد أننا كنا آتيات من تظاهرة لم يكن الأمر كذلك تماماً. فقد ثرثرنا عن زملائنا في الصف وعن الأفلام والجهة التي سنقصدها في رحلتنا المقبلة، وهذا النوع من الأمور الذي تتحدث عنه طالبات جامعيات شابات. وكان رائجاً في الوسط الجامعي في تلك الأيام التعبير عن الاهتمام بالأجواء

---

(١) منتجع حصري لكبار الأثرياء في سويسرا. والمقصود بالهتاف هو الشاه بطبيعة الحال الذي كان يمضي جزءاً كبيراً من العام في المنتجع. م

الثقافية، وتناول عيوب الشاه بالتحليل الدقيق. لكني أقول حرصاً على الحقيقة إننا لم نكن كثيرات القلق بشأن هذه المسائل.

وفيما نحن متجهات شمالاً ببطء كانت كثافة السيارات تقابلنا من الاتجاه المعاكس وعلامات تحوّل طهران من عاصمة غير مترابطة تحيط بها البساتين إلى حاضرة مدنية ممتدة تظهر في كل مكان. كانت سقالات البناء تزين كل الزوايا، والشاحنات المحمّلة بأكياس الإسمنت والأعمدة الخشبية تعبر المدينة كالنمل الشغّال، وتُبرز لوحات الإعلانات صور نجوم السينما الأوروبيين الذين يطلّون على الساحات المزدحمة، وتُعلّق الأكشاك مجلات تحتل أغلفتها صور نجمات السينما الأميركيات. كانت تلك مدينة مختلفة عن طهران التي عرفتها في طفولتي: المزيد من مدن الصفيح، المزيد من المطاعم، المزيد من قاعات السينما، المزيد من الشبان الريفيين بثياب متربة وأحذية موحلة متجهين إلى أعمالهم المختلفة أو عائدين منها.

وددنا لو نرى بأنفسنا الأناقة الأسطورية للمطاعم الفرنسية في دربند، وكنا قد وفّرنا مصروفنا لثلاثة أيام متوقعات أن نحظى بغداء مشهود. اخترنا بقعة تشرف على النهر الصغير المتجه نزولاً صوب سفوح تلال ألبورز، وكانت الطاولات في المطعم مرتبة بذوق وموضوعة في مقابل النوافذ البرّاقة. أعطانا نادل يرتدي ثياباً مجعّدة لائحة الطعام ومرّرنا أنظارنا بسرعة على الأسعار الباهظة متنبهات. لم يكن من سبيل لأن نحظى بشيء أكثر من الشراب، لذا ولإخراج أنفسنا من هذا الموقف قرّرنا أن نطلب الطبق الوحيد الذي كنا متيقّنات من أنهم لن يقدّموه: كباب كوبيده، وهو عبارة عن سيخ متواضع من لحم العجل المفروم لا مكان له بين الأطباق المطهوّة بالجبن المبشور والديك بالنبيذ التي تهيمن على لائحة الطعام. هز النادل رأسه فنهضنا عن المائدة متصنّعات نظرات خيبة الأمل العميقة.

تعلّمنا في ذلك اليوم كيف نتجاهل شؤون متع طهران المترفة، كالمطعم اليوناني حيث يحطّمون الأطباق، أو المقاهي على المصطبات حيث يستمع

الأزواج المرتدون الأزياء المبهرجة إلى «الفور توبز»[٢] (Four Tops) فيما يرتشفون الفودكا مع التونيك. وحصرنا نزهاتنا في مطاعم متوسطة في منطقة شميران - وهو الاسم الذي يُستخدم للإشارة إلى شمال طهران جغرافياً ومجازياً - حيث يمكن لثلاث منا تجميع مواردهن وتقاسم وعاء من البوظة.

أقمنا صلات اجتماعية، في مجموعات مختلطة من الرجال والنساء، على امتداد هذا النوع من الخطوط المجدية. صحيح أن تلك الفترة كانت فترة التنانير القصيرة، وكانت الشابات في أنحاء الجامعة - بل في أنحاء المدينة كلها - يُعرّينَ سيقانهنّ تيمّناً بـ«تويغي»، أيقونة الموضة في تلك اللحظة، لكن تقليد الموضة الغربية لم يزد كثيراً على كونه نزعة. جاء طلاب جامعة طهران من خلفيات تنتمي إلى الطبقة المتوسطة - أو العاملة - ولم يروا حياتهم الاجتماعية كمجال للاختبار. لم نضع الحجاب - في واقع الأمر، كانت النساء المحجبات الثلاث في صفنا في الجامعة يقفن خارجاً - لكننا أيضاً لم نتواعد مع الشبان بالمعنى الغربي للكلمة. كنا نجتمع دائماً في المقاهي أو في رحلات نهاية الأسبوع المختلطة، وعلى الرغم من أن الرجال والنساء كانوا يدرسون معاً في المكتبة، فقد كانت النساء في قاعة الدرس يشغلن الصفوف الأمامية فيما يجلس الرجال في الصفوف الخلفية.

كانت الجامعة بالنسبة إلى رجال الدين المحافظين وكراً للفساد ومكاناً ملوّثاً يرتكب فيه الرجال والنساء الآثام بذريعة التعليم المختلط. وكانت وفادة التنانير القصيرة رمزاً للاجتياح الغربي والعذر المثالي للوقوف ضد إمكانية المشاركة في التعليم الجامعي بالنسبة إلى الأسر ذات التفكير التقليدي والتي يهيمن عليها آباء يفضّلون إبقاء بناتهم بعيدات عن المدرسة، محتجزات في باحات البيوت، يَفْرُمْنَ البقول لإعداد وجبات العشاء.

* * *

---

(٢) فرقة موسيقية أميركية اشتهرت في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. م

ومع اقتراب نهاية عقد الستينيات، راح المناخ السياسي في البلاد يسير سيراً مطّرداً ليصبح مشحوناً. لقد أبعد الشاه في العام ١٩٦٤، قبل عام من التحاقي بكلية الحقوق، رجلَ دين عبوساً غير معروف، هو آية الله روح الله الخميني، إلى النجف في العراق، بسبب خطبه الملتهبة التي كان يهاجم فيها الحكومة بحذق. لكن في غياب آية الله لم يظهر قائد أو إيديولوجيا لتجتمع حوله أو حولها المشاعر المعادية للشاه. وقد جعل ذلك من معارضة الشاه مسألة سهلة، فثمة نوع من الشكوى يكون عند أكثرية الناس غير المرتبطين مباشرة بنخبة البلاط، وموقف نقدي لا يجعلك على الفور في معسكر معارض محدد. في تلك الأيام، إن كنت ضد الشاه فلا يعني ذلك أنك تؤيد آية الله الخميني. وغالباً ما كنت أشعر أثناء استماعي إلى أجزاء من النقاشات السياسية في القاعات أن الطلاب يصبحون معادين للشاه أكثر فأكثر من دون أن يعرفوا السبب، وكأنّ ذلك إشارة لإعلان الوضع الثقافي، تماماً كقراءة سيمون دو بوفوار.

ذات صباح، دخل طالب من طلاب السنة الرابعة للحقوق إلى صف اللغة الفرنسية متأخراً مرتدياً الأسود من رأسه إلى أخمص قدميه. افترضنا جميعاً أن واحداً من أقاربه قد توفي، وسألنا عن الأمر بلطف، فقال: «إنني في حداد على مصدّق». ظننا أنه يقصد زميلنا في الصف حميد مصدّق، وهو شاعر شاب يتمتع بشعبية واسعة وكنا نلتقيه أحياناً في المقهى، فتساءلنا متعجبين: «بهذه السن! يا للفظاعة! هل أصيب بالسرطان؟». وتابعنا مستشعرين البلاء الذي يُجسد انعدام الإنصاف في موت شاب. قاطعنا الشاب المتشح بالسواد قائلاً: «أقصد الدكتور مصدّق». قلنا: «إنه رجل متقدم في السن في جميع الأحوال، ليس الأمر مهماً» وتنفّسنا الصعداء. نظر إلينا مشدوهاً ودار على عقبيه ولم يكلمنا طوال أسبوع.

بعدما ملأ خبر وفاة مصدّق صفحات الصحف ولاحظت ردة فعل والدي في البيت، غمرني شعور بالسفه دفعني إلى الندم. لم يكن رئيس الوزراء السابق

مجرّد رجل دولة مخلوع ولكنه واحد من أعظم قادتنا التاريخيين، قاد أول انبعاث وتوهّج للديموقراطية اختبرته إيران منذ قرون. بل إنه في أعوامه الأخيرة قبل أن يصبح مريضاً جداً نتيجة إصابته بالسرطان ويموت في مستشفى في طهران، كان يمكن الشعور بأصداء مسيرته المهنية المبتورة في أنحاء البلاد. كانت الإطاحة بمصدّق قد خلقت ضغينة دائمة حيال الغرب، وخصوصاً نحو أميركا، يغذيها الحقد بمرور الوقت. ومع أن رئيس الوزراء العجوز مات لسبب طبيعي، فقد جرى الحداد عليه بصفته شهيداً- بطلاً عظيماً، سقط في معركة ملحمية. وعكس أيضاً الحزنُ العميق الذي شعر به الشبان الإيرانيون اغترابَهم المتفاقمَ عن نظام الشاه، وهو الاغتراب الذي راح ينتشر ويصبح أكثر حدة يوماً بعد يوم.

* * *

في شهر آذار/مارس من العام ١٩٧٠، وكنت قد بلغت من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، أصبحتُ قاضية، علماً بأن النظام العدلي الإيراني لا يحدّد عمراً أدنى لشغل المنصب. وأمضينا، أنا والنساء العشرون الأخريات في صفي العامين الأخيرين من دراستنا في كلية الحقوق في التمرّن في الفروع المختلفة لوزارة العدل. وفي العديد من الحالات، كان قاضي المنطقة ما إن يشعر بأننا حصّلنا ما يكفي من المهارة في القانون العدلي، حتى يسمح لنا بترؤس الجلسة في قاعة المحكمة. وبعد التخرج من كلية الحقوق وقضاء عامين من التجربة والتمرين، أصبحنا مؤهلات لنكون قاضيات.

وفي حفل قسم اليمين الذي حضره وزير العدل، كان على المتخرّجَين الأولين أن يحملا معاً نسخة ضخمة من القرآن إلى المنصّة. كنت أنا المتفوقة الأولى وكنت قصيرة جداً بالنسبة إلى التلميذ المتفوّق الآخر الذي كان طويلاً جداً. وبينما كنا نمرّ على المسرح تأرجح المصحف إلى الأمام وإلى الوراء تأرجحاً مربكاً ليستقرّ مائلاً إلى جهة واحدة. همست لزميلي وأنا أصارع للاحتفاظ بتوازني: «اخفض يديك»، فردّ هامساً: «ارفعي يديك». وفي نهاية

المطاف تمكنا من جذب الكتاب المقدّس الثقيل إلى وجهته. ثم ألقيت خطابي بصوت مرتفع وواضح. قرأت القسم، وردّده الطلاب الآخرون من بعدي ثم نزلنا عن خشبة المسرح متجهين صوب ما اعتقدنا بإيمان عظيم أنه عمر سنقضيه في خدمة العدالة.

أتاح لي توقيت انطلاقة عملي الانضمام إلى مؤسسة القضاء في ظل حكومة غير شعبية من دون الشعور بواجب الانحياز إلى جانب معيّن. وكانت أكثرية الإيرانيين تعاني الأمرّين جرّاء الاضطهادات والتجاوزات التي يمارسها حكم الشاه، لكن هذا الاستياء لم يترجم إلى انقسام تام بين الشعب والنظام، أو يمتد ليصبح انعدام ثقة بفروع الحكومة كالقضاء. وعلى الرغم من أن الناس كانوا يرتجفون من مجرد ذكر اسم «السافاك»، فقد ظلوا يثقون بالنظام القضائي ويؤمنون بصدق أن القانون يحمي حقوقهم.

حتى أنا، التي بدأت أهتم بالأحاديث السياسية حولي، كنت أرتدي بزّتي كل صباح وأقود سيارتي متوجهة إلى وزارة العدل، التي أفخر بأن أمثلها. كان نظام الشاه يدّعي على خصومه السياسيين أمام المحاكم العسكرية، ويبقي تلك المحاكمات المشينة خارج النظام العدلي العام. وكان المعارضون يواجهون أمام المحاكم العسكرية مروحة من الاتهامات المبهمة - التخريب وتهديد الأمن القومي، وما شابه- وكل ما تدّخره الأنظمة القمعية لأي نشاط ترى فيه مصدر تهديد. وفي موازاة المحاكم العسكرية كان يعمل النظام القضائي الذي يمثل أكثر الإيرانيين أمامه لحل كل المشكلات من الطلاق إلى التزوير وتبعاً لذلك ظل منصفاً إلى حد بعيد وغير فاسد في أذهان الناس.

* * *

جرت العادة على أن لا نبقي التلفزيون شغالاً في الوزارة، لكن في العام ١٩٧١، عندما استعرض الشاه أنانيته الضخمة وقدرته المحدودة على إصدار الأحكام الصائبة أمام أمّة مشدوهة، كان من المستحيل ألا نشاهد التلفاز. لقد نظم احتفالاً مشهدياً ضخماً لإحياء ذكرى مرور ألفين وخمس مئة سنة على

نشوء الإمبراطورية الفارسية وذلك وسط الآثار القديمة لمدينة برسيبوليس، مقر ملوك إيران منذ ما قبل ولادة المسيح. هبط الملوك والرؤساء من أنحاء العالم كافة لمشاهدة هذا الاحتفال الغريب والاستثنائي، المصمَّم للتفاخر بتقدم إيران المؤثر في متابعة الحداثة والارتباط بالعالم المعاصر، وفي الوقت نفسه للتفاخر بماضي إيران المجيد. وكان المقصود أن يلاحظ الإيرانيون كيف ارتقى بلدهم في نظر العالم. مقابل ذلك لاحظ الكثيرون أن الشاه أنفق ثلاث مئة مليون دولار على الخِيَم المؤقتة المصنوعة من الحرير والمزوّدة بحمّامات من الرخام وعلى الطعام والنبيذ الذي جيء به جواً من باريس لخمسة وعشرين ألف ضيف. والمنظر الذي لم أتمكن من نسايه كان منظر الحرس الإمبراطوري الذي ارتدى أفراده أزياء الجنود القدماء من عهد الإمبراطورية الأخمينية، ولحاهم التي تُركت لتطول وتُجدل بإتقان. بدوا وكأن رقية أُلقيت فانتزعوا أنفسهم من راحة الأنقاض الأثرية للسير بخطواتهم العسكرية أمام بلاط القرن العشرين.

أصدر آية الله الخميني إدانة مقتضبة من النجف، مشيراً إلى ملايين الإيرانيين الفقراء الذين قال إنهم طلبوا من رجال الدين المساعدة على بناء حمّامات لهم لأنهم كانوا محرومين من الاستحمام «لقد سوّدت جرائم ملوك إيران صفحات التاريخ... أين أصبحت كل تلك الوعود المذهّبة وتلك الادعاءات الرنّانة... بأن الشعب يعيش الازدهار والرضى؟».

كنت جالسة في المكاتب الباردة لوزارة العدل، أشاهد التلفاز في ذلك اليوم، عندما انتابني هاجس نادر. إن شاه إيران، تماماً كاحتفال إحياء الذكرى في برسيبوليس، يشبه مساء فاتناً، لا يمكن أن يستمر. كان مفرطاً في التأنق والزخرفة تماماً كالحفلة، ومفرطاً في غربته عن واقعنا، وعظمته سريعة الزوال ولا تدوم. لم تلفت انتباهي الخطابة الآتية من النجف على نحو خاص، وعلى غرار أكثرية الإيرانيين لم أتابع عن كثب النقد الذي يوجهه رجال الدين إلى الشاه. وأثناء مشاهدة كل ذلك من مكتبي، لم أقِم رابطاً بين ما يرشح من الشاشة والمكان الذي أحتل. لم أمنح الشاه بوعي رصيداً لكونه يقود إيران إلى

حيث تمكنتُ من أن أصبح قاضية، تماماً كما سيحدث في أيام الثورة المقبلة حيث لم أتخيّل أن يبشّر آية الله الخميني بإيران لا أتمكن فيها من أن أكون قاضية.

* * *

وعلى الرغم من أن حكومة علمانية كانت تدير البلاد، ومع أنني قاضية أنثى ينتظرني مستقبل مهني واعد، كانت النزعة البطريركية ما زالت تتحكم في الثقافة الإيرانية وتُبعد عني أكثر طالبي الزواج. ولحسن الحظ، لم أكن أمانع أمام التعقيد الدراماتيكي الذي أصاب آفاق زواجي العتيد في كوني قاضية. كانت كتب القانون والأفكار تثير اهتمامي أكثر من ترتيب أماكن الجلوس حول المائدة أو التصميم الداخلي للمنزل، وأثرى عملي حياتي وأكملها إلى الحد الذي لم أشعر معه بفجوة كبيرة وموجعة لا يمكن أن يسدّها إلا الزوج.

ومع ذلك، لم يفتني، على الرغم من انتمائي إلى أسرة طيبة ولم أكن سيئة المظهر ولديّ عمل محترم، أن المتقدمين للزواج مني كانوا نادرين. كانت الفكرة الأخيرة في هذا الشأن: أن حياتي المهنية ألقت الخشية في قلوب الرجال الإيرانيين. ففي اللحظة التي كانوا يفكرون فيها في الزواج بي كانوا يتخيلون أنفسهم عالقين وسط مشاحنة زوجية مع قاضية - لنفترض أنهم لم يكونوا قادرين على الاكتفاء بالقول «لأنني قلت ذلك» ويصفعون الباب وراءهم. وجدت أن هذا ينطبق على الرجال الإيرانيين المتعلمين الذين يفترض أنهم حديثو التفكير وعلى الرجال التقليديين سواء بسواء؛ كانوا ببساطة يفضلون أن يكونوا في المقام الأرفع وأكثر أهمية من النساء اللواتي يتزوجونهن. ومن الطبيعي أن تكون امرأة مستقلة ولها مهنتها الخاصة أقل توافراً لإبداء الشغف بهم ولخدمتهم في كل حين.

وظهر ذلك لي مرّات ومرّات، وشعر العديد من المتقدمين للزواج بي بالارتياح لإعلان ذلك بوضوح، وكأنني بسبب مهنتي كقاضية صرت متخصصة معترفاً بها عالمياً في عقد الصفقات. ذات مساء في حفلة عند أصدقاء، دار

شاب حولي نصف الليلة، إلى أن أقنع صاحب الدعوة بتقديم كل منا للآخر. وكان لطيفاً في إصراره إلى درجة أن المضيف عندما اقترب مني أخيراً ليسألني ما إذا كنت أريد لقاء الشاب، قلت نعم. وتم تدبير موعد آخر للقائنا في حفلة في الأسبوع التالي. أعرب عن افتتانه بي، وقال إنه إذا بادلته هذا الاهتمام فسيتقدم فوراً طالباً يدي للزواج. بدا لي أن لا فكرة لديه عن كوني قاضية. وفي اليوم المصيري بعيد الحفلة التالية، اكتشف الأمر وسار صوب المضيف معلناً أنه لو علم أنني قاضية لما ألحّ أبداً في رؤيتي مرة ثانية.

* * *

في صباح يوم ربيعي بارد من العام ١٩٧٥، دخل مهندس كهربائي شاب يدعى جواد توسليان قاعة المحكمة حيث أعمل وادّعى أنه يريد أن يسألني رأيي في مسألة قانونية غامضة. كان يرتدي بذلة رمادية فاتحة على قميص بني طُويت ياقته بعناية، وتباطأ قليلاً في الحديث. واقترح زميلي في الغرفة المجاورة، وهو صديق مشترك، أن نلتقي. لم أنجذب إليه على الفور، لكنه أثار اهتمامي بما يكفي للموافقة عندما اقترح أن نخرج لتناول العشاء. وبعد عدد من اللقاءات العادية، والأحاديث في المكتب أو أثناء تناول البوظة، طلب مني أن أتزوجه. نظرت إليه عبر المائدة. وركزت تفكيري لفترة طويلة ثم قلت إنني لا أستطيع أن أعطيه جواباً نهائياً. «لديّ فكرة»، قلت وأضفت: «لماذا لا نمضي ستة أشهر إضافية للتعارف على نحو أفضل، ثم نمتنع عن اللقاء لشهر. وعند نهاية الشهر هذا يمكننا أن نقرر ما إذا كنا متلائمين أم لا». وافق. وهذا بالضبط ما فعلناه.

كان والداي منفتحي التفكير ويؤمنان بأن عليّ التعرف بصورة جيدة إلى الشريك المقبل في الزواج، قبل أن نغلق على أنفسنا في مستقبل مشترك. لقد تركانا ننشئ علاقات اجتماعية ونتنقل جيئة وذهاباً كما نريد ونُسَرّ. كنا نلتقي مساءً، جواد وأنا، مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع لتناول العشاء، وننتقل عبر ازدحام السير الجنوني في ساعة الذروة، لنختار بين العديد من المطاعم

الأوروبية المبعثرة في طهران. كنا نجلس في وقت متأخر بعد العشاء، تحيط أيدينا بأكواب الشاي الساخنة، نستمع إلى المغنين الذين كانوا يرنّمون في تلك الأيام في المقاصف في طهران، ونقارن بين ما نريد من الحياة ومعنى المستقبل المثالي بالنسبة إلينا. ارتبطنا بسهولة، وبدا لي أنني أعرفه منذ وقت أطول بكثير من هذه الشهور القصيرة. ذات ليلة، بعدما أنهينا عشاءنا العادي، راح النادل يمر بالقرب من مائدتنا متجاهلاً إحضار فاتورة الحساب لنا. أرجع جواد ظهره بصبر متكئاً على الكرسي، لكن عينيّ ضاقتا، وحملت محفظتي. سألني «إلى أين تذهبين؟ لم ندفع حسابنا بعد». قلت «هكذا تفرض على الناس أن يمنحوك انتباههم». ثم وقفتُ وسرتُ قاصدة الخروج. أما هو فقد تردّد للحظة ثم تبعني. ومن البديهي أن النادل لحقنا إلى الباب، وسلّمنا الفاتورة معتذراً. تأملت وجه جواد لأرى إذا كانت جسارتي أزعجته. لكنه راح يبحث في جيبيه عن مفاتيحه، فيما كنا نخرج، كما لو أن ما حدث كان الشيء الأكثر عادية في العالم.

عندما انقضت الأشهر الستة التي حدّدناها للقاءاتنا توقفنا عن اللقاءات كما كان مقرراً. ومنحتنا الأيام الثلاثون التي افترقنا فيها الوقت للتفكير. لم تكن العادة والألفة هما فقط ما جذبنا أحدنا إلى الآخر، بحسب ما قرّرنا، لكنها قناعة أعمق بأن حياتنا المشتركة ستنجح. بعد أيام جاءت أسرة جواد إلى بيت أهلي في طهران، وقمنا بجميع الطقوس والمراسم التقليدية. أجروا «الخواستكاري» الرسمي وطلبوا يدي للزواج. وقامت أسرتي بـ«اغد قانون» في بيتنا، وتجمّعنا برفقة أصدقائنا المقرّبين وأفراد العائلة أمام «سفرة أغد»، مائدة العرس التقليدية الإيرانية. وكان المدّعي العام في طهران أحد الشاهدَين على الزواج، لكنه تأخر. وبينما كنا جالسين ننتظره لاحظت أمي أن المصحف الموضوع على مفرش المائدة صغير جداً، ما أثار قلقها. في هذه اللحظة وصل المدعي العام حاملاً مصحفاً أنيقاً وذا حجم مناسب كهدية زفافنا. فكرت لنفسي أنه بشير خير ووضعتُ المصحف الجديد في وسط المفرش. ورفعت النساء

السعيدات المتزوجات والعازبات في عائلتنا (كانت المطلقات يُستبعدنَ وفقاً للتقليد، مخافة أن ينتقل مصيرهن المرير إلينا)، مظلةً من الشرائط فوق رأسينا ووضعنَ في طيّاتها كتلاً من السكّر الملفوف بالشاش على سبيل التكهّن بأن زواجنا سيكون حلواً. كان جواد يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً وأنا في الثامنة والعشرين.

بعد أسبوع شاعريّ كان بمثابة شهر عسل في شيراز، عدنا إلى منزلنا الجديد في طهران. كان جواد يمتلك بيتاً من طبقتين في نيافاران شمال طهران. واليوم تطوّق أبراج سكنية باللون الأصفر الفاقع نافرة المنظر شمال المدينة بما يتجاوز بمسافة بعيدة نيافاران، وتسد كثافة السير شوارعها من دون رحمة على غرار باقي شوارع المدينة، لكن في ذلك الحين كانت المنطقة قليلة السكان، وتحتل البساتين معظم أرجائها وبعيدة عن مركز المدينة. قرّرنا أن نؤجِّر ذلك البيت ونستأجر بيتاً في منطقة أمير آباد قرب أسرتي.

لم أدرك عندما انتقلنا أن الطابق الأرضي من المبنى المتواضع المؤلف من ثلاث طبقات يشغله قاض في المحكمة العليا. في حين أن القاضي هذا استعلم عن جيرانه الجدد، وجاء يقرع بابنا فيما كنت مشغولة بتقرير كيفية توزيع الكنبات. كان رجلاً مهيباً ممتلئ الجسم بشاربين مفرطين في الطول وجلب معه كهدية ترحيب كتاباً عن كيفية تجنّب النزاعات الزوجية من تأليفه. وقدّم لنا وهو متكئ على إطار الباب عدداً من النصائح. قال بجدية بالغة: «عليكما اليقظة حيال تسلل البغضاء إلى زواجكما. جرّبا دائماً أن تحلاّ نزاعاتكما قبل أن تتطور وتصبح شجارات يحاول فيها كل منكما أن ينفّس عن غضبه على حساب الآخر». شكرته بتهذيب شديد. وبعد ليلتين سمعت عبر النافذة المفتوحة صوتاً مرتفعاً لشيء يتحطم أعقبه ما بدا لي كزعيق قط كبير. بعد هذين الصوتين، ارتفع صوت غاضب، هو صوت القاضي بلا ريب، يطلق سيلاً من السباب، تردّه زوجته بالعنف ذاته. وحتى بعد أن أغلقت النافذة، كان صراخهما يتردد في أنحاء الشقة. فكّرت في أن أنزل وأعيره كتابه، من باب المداعبة.

في مساء اليوم الرابع أو الخامس من إقامتنا في شقتنا الجديدة، وعند الساعة العاشرة والنصف تقريباً، سمعنا طرقاً قوياً على الباب. فتح جواد الباب ليجد مجموعة من زملائي في الجامعة يحملون الزهور. كانوا يريدون أن يروا ما إذا كنت لأتصرَّف كشيرين القديمة أو كامرأة متزوجة حديثاً. ففي الزيجات الإيرانية التقليدية تتوقف الزوجة في الغالب عن الاختلاط اجتماعياً مع أصدقائها القدامى بعفوية ومن دون شكليات؛ ويتعامل الأزواج مع بيوتهم كقلاع خاصة، حيث يتركون العالم خارجاً ويدخلون إلى حرمٍ مكرّس لراحتهم. أمّا أصدقاؤنا التائهون في الليل المتأخر فلم يقصدوا أن يعبروا الخندق المائي المحيط بالقلعة. ولم أكن واثقة بما ستكون عليه ردة فعل جواد، فخرجت أحدّق فيه متوترة. لكنه بدا لي سعيداً فعلاً وجذبهم إلى الداخل بكرم وتهذيب.

ينتمي جواد إلى خلفية اجتماعية محافظة، لكنه كان مرناً ومتسامحاً فيما كانت أكثرية الرجال المنتمين إلى ذلك الوسط متطلبين وجامدين. تركني على سجيّتي منذ البداية، وشجّعني على عملي كونه جزءاً مني، وليس كهواية أو كانغماس. وهو الرجل المهم الثاني في حياتي بعد أبي الذي سعى إلى تعزيز استقلالي وليس إلى قمعه. ولا يعني أي من هذا أنه لم يكن عليّ إنجاز مضمون العقد الذي يعود إلى أجيال سابقة بين الأزواج والزوجات الإيرانيين. فقد أتحت مجالاً في جدول أعمالي المضطرب للتوقف عند البقال، ولملء الأكياس بالخضار والفاكهة لتخزينها في مطبخنا. التنظيف؟ كان مهمتي بالطبع إلى جانب الاهتمام بتوازن مصاريفنا. ولم يوجد حقاً شيء يسمّى تقاسم مسؤوليات البيت حيث كانت كل المهمات من شؤون الطبخ إلى التنظيف إلى الاهتمام بالمسائل الإدارية، لي وحدي. لم أعتبر ذلك ذنبه؛ لكن الأمور كانت على هذا النحو. وأدركت منذ وقت مبكر أنني لا أستطيع أن أحظى بكل شيء. والحق أن مساندة جواد لي في حياتي المهنية كانت بالغة الأهمية فعلاً، وإذا كان التوازن في العناية بالبيت تميل إلى جانبي فهذا حل وسط قبلت به.

وفيما كنت أراقب صديقاتي من الجامعة يتولين أعمالاً ويجدن شركاء،

كانت خياراتي والحلول الوسط التي تبعتها تبدو أنسب. توجّه أكثرنا إلى العمل، وفي هذا الجانب لم أكن استثناء بأي معنى من المعاني. ومن دائرة أصدقائي، واحدة فقط، سأسمّيها رويا، نحّت جانباً مستقبلها المهني في سبيل الزواج. كانت رويا بشعرها البنّي المحمّر وتسريحتها المرتفعة وذوقها المرهف قد جذبت انتباه مهندس شاب ثري بعد قليل من تخرّجنا. بالنسبة إليه، كان على المرأة أن تعمل فقط إذا كان دخل زوجها غير كاف لتوفير نمط حياة مريح لكليهما. وبما أنه كان ثرياً للغاية لم ير حاجة إلى عمل رويا ولم يشجعها لتصبح قاضية، على نحو ما فعلت بقيتنا. وقد اعتقدت أنها لوسعت إلى إقناعه بحذر لنالت في نهاية المطاف موافقته على السماح لها بالعمل، بعدما أدركت أنها تريد العمل لإغناء شخصها وليس لإغناء حسابهما المصرفي. لذلك اقترحتُ عليها التقدم للحصول على إذن بمزاولة مهنة المحاماة، حتى يمكنها في حال غيّر رأيه أن تباشر العمل على الفور. وقد حصلت على إذن المزاولة لكن رأيه ظل ثابتاً، أما حياتها المهنية فلم تبدأ حتى.

اثنتان من صديقاتي المقرّبات، مريم وسارة، تزوجتا من رجلين تعاملا مع طموحاتهما المهنية، تعاملاً حسناً. كانت مريم الأكثر حميمية معي. وكنا شغوفتين بأن نصبح قاضيتين، وأمضينا الساعات معاً نناقش النقاط الدقيقة في القانون. أما سارة فكان لديها مزاج موجّه إلى الدراسة، وكان تعقيد الأنظمة القانونية يفتنها بالطريقة ذاتها التي كانت فيها حركية العملية القانونية تجذبنا، ووجدتْ في انكبابها على الكتب ذات المواضيع المنوّمة مثل القانون التجاري ما يكفي ليحظى باهتمامها الثابت. وبعد تخرّجنا بدأت العمل كباحثة في كلية الحقوق وأُغرمت بأستاذ شاب، وتابعت العمل بعد زواجهما. وكان لدينا جميعاً، باستثناء رويا ربة البيت، الكثير مما نتحدّث بشأنه عندما تلتئم حلقتنا الجامعية على العشاء.

* * *

ذات صباح من خريف العام ١٩٧٧، رفعت نظري عن مكتبي في قاعة

المحكمة لأجد وُرَيقة منشور موضوعة على ملفاتي. كانت تحمل تحذيراً موجهاً إلى الشاه من أنه يتجاوز السلطات المخصصة له وفق الدستور، وأنه كملك لا يجب أن يتدخل في شؤون الحكومة. وكانت تلك كلمات مصدّق رئيس الوزراء المتوفى والمُقال. التقطت الوريقة وقرأت التواقيع بسرعة، ومن بينها كان توقيع داريوش فوروهار، وهو محام مترافع. لم أكن أعرف ذلك يومها لكن في الأعوام التالية رأيت اسمه على ملفات كثيرة كان بعضها مشؤوماً أكثر من طاقتي حينذاك على التخيل. وقد ضجّت مكاتب الوزارة بالحديث عن المنشور. ولم أكن واثقة بما كان يعنيه أن يجد إعلان كهذا طريقه إلى القاعات الحكومية. أتذكر فقط أن جسارة الموقّعين تركت انطباعاً قوياً لديّ، وذلك لتحدّيهم ملكاً مسيطراً بواسطة الكلمات المناهضة التي قالها رئيس وزراء أقاله الملك ذاته.

كان المناخ في شوارع طهران آخذاً في التغير أيضاً. وقبل أن يبدأ وقعُ الأحداث المتسارعة بصنع عناوين الصحف، كانت الأحداث بيّنة في عالمي القضائي. فقد حاول نظام الشاه بعد فترة من تمرير المنشور تقليص السلطات القضائية للمحاكم من خلال تشكيل ما سُمّي «مجلس التحكيم»، وهو جهاز من خارج الجسم القضائي يتولى الفصل في قضايا من خارج النظام القضائي. وقد كتب عدد من القضاة رسالة احتجاج ضد المجلس مطالبين بعرض كل القضايا أمام محكمة القانون. وكان هذا أول عمل جماعي يقوم به القضاة، وأثار جدالاً صاخباً. وقد وقّعتُ رسالة الاحتجاج إذ بدت لي المسألة نزيهة بشكل كاف - بطبيعة الحال لا يمكنكم إيكال العدالة إلى مجلس أنشئ لغاية محددة. وجرى تهديد الموقّعين على الرسالة بفصلهم من المحاكم، لكن شيئاً لم ينتج عن هذا التهديد وتابعنا عملنا كالمعتاد.

كان لدى نظام الشاه ما يقلق بشأنه أكثر بكثير من رسالة احتجاج مهذب وجهتها إليه حفنة من القضاة. ووصل في كانون الثاني/ يناير من العام ١٩٧٨ الرئيس جيمي كارتر إلى طهران يوم بداية السنة الجديدة في زيارة ووصف إيران

بأنها «جزيرة من الاستقرار». وبثت أخبار المساء صوراً للشاه يشرب نخباً من الشمبانيا، في أول حادث تشهد فيه أمة مؤلفة بأكثريتها الساحقة من المسلمين زعيمها يحتسي الخمر على شاشة التلفاز الوطني. وبعد فترة وجيزة نشرت صحيفة مقالاً يهاجم آية الله الخميني بعدائية. وفي اليوم التالي انتفض طلاب الحوزات في مدينة قم المقدسة، وساروا في المقام مرددين هتافات تطالب بعودة آية الله. وأطلقت الشرطة النار على الحشد فسقط عدد من الرجال قتلى.

ما من لحظة محددة وقفتُ فيها لأميّز الخطوط العريضة للمشهد المتكوّن أمامي. ولم تصدر إشارة واضحة تدلّ على أن المشاحنة تزيد عن كونها تعبيراً عن سياسات حامية، لقد كانت ثورة تتطور تحت راية الإسلام. وكان تدخّل رجال الدين في السياسات الإيرانية في أواخر السبعينيات من القرن العشرين، كما على مدى الأجيال، ظاهرة تاريخية. ففي العام ١٩٠٦ على سبيل المثال، قدّم رجال الدين دعمهم المشروط للحكومة التي أنتجت «الثورة الدستورية» التي أرغمت السلالة المالكة على إعلان دستور على النمط الأوروبي وعلى إخراج هيئة تشريعية إلى حيّز الوجود. وكان المجال العام طوال القرنين السابقين تقريباً متركزاً على المسجد والبازار. ووفّر المسجد خصوصاً مكاناً للقاء العام حيث كان يمكن تناول مظالم الملك الحاكم في الفترة المعيّنة بحرية وتبادل الحديث بشأنها، وراء الجدران شبه المحمية للبناء المقدّس. وتاريخنا مُفعم بالمشاهد عن تدخلات رجال الدين المثمرة، كما أن آذان الإيرانيين العاديين، بمن فيهم أنا، لم تكن لتُصدَم أو تتوقع سوءاً لسماع آية الله الخميني يُمطر من منفاه الشاه بالذمّ والطعن.

* * *

مع حلول صيف العام ١٩٧٨، بات المزاج العام رديئاً على العموم؛ اتسع الاحتجاج شيئاً فشيئاً، ولم يعد ممكناً الجلوس والتفرّج، ومراقبة المواجهات التي كانت تعكّر صفو البلاد. في مطلع آب/أغسطس التهمت النيران قاعة سينما مزدحمة في مدينة عبدان الجنوبية حيث أحاطت ألسنة اللهب بأربع مئة

شخص فاحترقوا أحياء. وقد ألقى الشاه باللائمة على المحافظين الدينيين، ورد آية الله الخميني غاضباً باتهام «السافاك»، شرطة النظام السرية التي كانت قوة أسطورية بسبب وحشيتها ضد خصوم النظام.

أقنع الحريق المأساوي العديد من الإيرانيين بأن الشاه ليس مجرّد دُمية أميركية تعبث بمصالح الأمة ولكنه حاكم مستبد خبيث يعتزم التضحية بحياة الأناس العاديين للبقاء ملتصقاً بعرشه. وقد أدركتُ بعد عقدين فقط زخمَ قوة لحظة كهذه - كيف أن عملاً فظيعاً يمكن أن يكهرب شعباً ظل منقسماً حتى ذلك الحين، ويقنعه بأن نزاعاً محصوراً بين قوى سياسية ينطوي على انعكاسات قادرة على جذبهم خارج غرف معيشتهم نحو القتال. بعد شهر، عند نهاية الصوم في شهر رمضان، تدفق مئة ألف شخص إلى الشوارع، في أول مسيرة كبرى ضد الشاه، وملأ محيط من الإيرانيين على امتداد النظر جادات طهران الواسعة رافعين أصواتهم ضد الشاه.

وجدتُ نفسي منجذبة إلى الأصوات المعارضة التي تهتف لآية الله الخميني كقائد لها. لم يبد لي أمراً متناقضاً بأي شكل من الأشكال - كوني امرأة متعلمة ومن أصحاب المهن- أن أساند المعارضة التي سترت صراعها ضد مظالم الحياة الواقعية بحجاب الدين. كان الإيمان يحتلّ مكاناً مركزياً في حياة الطبقة المتوسطة التي نحياها، بطريقة خاصة على نحو ما، فقد أمضت أمي ساعات منحنية على الجاه -نماز(٣)، تعلّمني الصلاة، وشجّعني أبي على تلاوة الصلاة طوال حياتي. في نهاية المطاف، مع من كنت أملك قواسم مشتركة أكثر: مع معارضة يقودها رجال دين يتحدثون بأصوات مألوفة للإيرانيين العاديين أو مع بلاط الشاه المذهّب الذي يتقافز المسؤولون فيه مع نجمات السينما الأميركية الناشئات في حفلات تُسكب فيها الشمبانيا الفرنسية الباهظة الثمن من دون حساب؟ جلِيٌّ تماماً أن القواسم المشتركة لم تكن مع

---

(٣) سجادة الصلاة، بالفارسية في الأصل. م

البلاط الذي يتألف الموالون له أساساً من رجال الحاشية ومن بعض المسؤولين الرسميين ومن العائلات التي أثرت بفضل صلات العمل التي أقامتها مع النظام. وكان الجزء الأعظم من البلاد أكثر تماهياً مع المعارضة التي تضم في صفوفها القوميين العلمانيين والاشتراكيين والماركسيين. ومن بين المجموعات المعارضة هذه كان صوت رجال الدين هو الأقوى. وكان هؤلاء الذين تنتشر شبكة مساجدهم في طول البلاد وعرضها، هم الذين يمتلكون المراكز التي يستطيعون فيها أن يرفعوا أصواتهم وينظموا صفوفهم. ولم يبدُ أمراً خطِراً أن يتولى رجال الدين القيادة.

بمرور الأيام، مسّت الحماسة جميع مَن حولي، وبحثنا جميعنا عن طرق للمشاركة في الأحداث. وذات صباح أصدر آية الله الخميني بياناً يطلب فيه من الناس طرد الوزراء من مكاتبهم في الوزارات. وقد تلاقى عدد من القضاة وموظفي المحكمة في بهو الوزارة وانضممت إليهم. ثم جمعنا أنفسنا وتولّينا تحفيز بعضنا بعضاً قليلاً واندفعنا إلى مكتب وزير العدل. كان الوزير غائباً، وكان أحد أقدم القضاء يجلس خلف مكتبه. نظر إلينا بدهشة، وتوقف عن التحديق فينا عندما رآني. سألني حائراً ومتجهّماً: «أنت! أنت من بين جميع الناس، لـمَ أنت هنا؟ ألا تعلمين أنك تدعمين أناساً سينتزعون منك وظيفتك إذا وصلوا إلى السلطة؟». أجبت بجسارة والشعور بصواب ما أفعل يبلغ أعماقي: «أفضّل أن أكون إيرانية حرة على أن أكون محامية مستعبدة». بعد أعوام، كنا كلما التقينا، القاضي وأنا، يذكرني بهذه الملاحظة القدرية.

بعد ذلك الصباح، صارت المناقشات المحمومة في الوزارة تدور عادة في مكتبي، وبصفتي قاضية امرأة كان موقفي المؤيد للثورة مرحّباً به ترحيباً خاصاً. وذات يوم، وقّعنا جميعنا رسالة شعرية إلى رئيس فرنسا، حيث لجأ آية الله مكرّراً لازمته «يجب أن يرحل الشاه!» من باريس بدلاً من النجف. وقررنا بعد ظهر أحد الأيام اتخاذ خطوة رمزية أخرى بإنزال صورة الشاه في الوزارة. ولم يكن الشاه قد غادر البلاد بعد، بل لم يكن واضحاً أنه سيغادر أصلاً. وتلاقت

مجموعة منا واقتربت من الصورة - كان الشاه بمظهره الملكي ووجهه الخاوي من أي تعبير يحدّق فينا نزولاً من الحائط- في حين أن عدداً من الزملاء وقفوا حائلاً بيننا وبين الصورة، طالبين منا تركها في مكانها. لكن في يوم آخر نظم العاملون في الوزارة إضراباً وأرغموا المحاكم على التوقف عن العمل. وعلى الرغم من الإضراب، تابعتُ الذهاب إلى العمل فقط لأكون هناك وأقدّم دعمي، وقد أسرني المناخ الثوري.

* * *

لقد نوّمتني الثورة المتصاعدة تنويماً مغناطيسياً، بيد أن الأكثر إثارة للعجب كان حالات الارتداد والتحوّلات المفاجئة في الولاءات. في تلك الأيام، تجلّت في كل مكان الانتهازية كطبيعة بشرية أساسية، والرغبة في خلع إيديولوجيا وارتداء أخرى كما لو كانت معطفاً. وراقب القضاة وطاقم العمل في الوزارة، الذين كانوا يتميزون بسمعة سيئة لتعاونهم مع نظام الشاه وخصوصاً مع «السافاك»، مراقبة دقيقة حرارة مشاعر العامة، وعندما بات واضحاً أن الثورة لا يمكن أن ترجع إلى الوراء- عندما أصبحت المسيرات ضخمة بحيث يسير فيها مليونا إنسان وتستمر ساعات قبل أن تنتهي - انضموا إلى صفوف الثوار.

في السادس عشر من كانون الثاني/يناير من العام ١٩٧٩، وهو يوم تميّز بصقيع شديد، غادر الشاه إيران، حاملاً معه صندوقاً صغيراً من تراب إيران. وانتهت بمغادرته ألفيّتان من حكم الملوك الفرس. في تلك الأثناء امتلأت الشوارع بالناس يحتفلون. وارتديت ثيابي على عجل وقدت سيارتي متوجهة إلى بيت أهلي لآخذ أمي وأختي. ربطنا منديلين بماسحتي الماء على زجاج السيارة الأمامي وصار المنديلان يذهبان ويجيئان كما لو أن يد رجل آليّ راقص تمسكهما، فيما كنا نقود السيارة للانضمام إلى الحشود التي اجتاحتها الفرحة الغامرة. شعرنا أننا استعدنا كرامة لم يكن عدد كبير منا قد لاحظ حتى قبل فترة قصيرة مضت أننا أضعناها.

في الأول من شباط/فبراير من العام ١٩٧٩ظهر آية الله الخميني بحاجبيه

الثقيلين ووجهه العابس من باب طائرة الخطوط الجوية الفرنسية، وهبط الإمام ببطء إلى مدرج مطار مهراباد، منهياً منفاه بعد ستة عشر يوماً من بداية منفى الشاه. جلست أسرتي برمّتها إضافة إلى بعض الأصدقاء، متسمّرين أمام شاشة التلفاز في غرفة المعيشة نراقب المشهد الذي زاد من أهميته وضخامته كونه كان من المشاهد الأولى التي نراها بالألوان. كانت «الشيلو كباب»، أي أسياخ لحم الضأن مع الأرز، التي طلبناها للغداء، تبرد فيما كنا نتابع البث التلفزيوني من داخل طائرة الإمام. سُئل: كيف تشعر اليوم بُعيد عودتك إلى إيران؟ «ما من شعور لديّ»، أجاب من دون أي تعبير.

هتف صديق: «يا له من سؤال سخيف! إنه قائد ثورة وليس نجماً سينمائياً على سجّادة حمراء». قاطعته زوجته قائلة: «لكن كيف يمكن لشخص أن يمضي أربعة عشر عاماً في المنفى ويعود في ظل هذه الظروف غير المعقولة ثم يقول: ما من شعور لديّ؟». تراجعت الكاميرا لتصوّر الشوارع المكتظة بملايين الإيرانيين الذين يطلقون أبواق السيارات وقد استبدّت بهم النشوة لعودة آية الله البالغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً. وعندما انقطع الإرسال فجأة واسودّت شاشة التلفاز رفع والدي يديه عالياً صارخاً: «إنه انقلاب». لوهلة تراجعنا كلنا مرعوبين، متخيلين أن آية الله قد قُتل، وأن الدماء ستملأ الشوارع.

كان الجيش على ولائه للشاه، وقد أرسل الحرس الإمبراطوري في اليوم السابق دبابات قتالية وشاحنات محمّلة بالجنود إلى شوارع طهران لإظهار أنهم لن يسلّموا مقاليد السلطة بهذه السرعة. وزحفت طوابير من الدبابات يزيد طولها عن الكيلومتر ونصف الكيلومتر عبر المدينة، مكتسحة المتاريس ومطلقة النار على المتظاهرين الذين حاولوا قطع الطريق أمامها.

اتصلنا بكل الأصدقاء الثوريين الذين استطعنا تذكرهم، لكن هواتفهم كانت ترنّ بلا مجيب. جلسنا هناك يتأكلنا القلق إلى أن خرج أحد أبناء عمي بسيارته إلى الشوارع وعاد حاملاً التقارير التي تؤكد أن الجميع ما زالوا يحتفلون. لم يتكلم آية الله الخميني في ذلك اليوم عن الدولة الإسلامية، ولم يقل ما الذي

سيحصل لاحقاً. لكنه دعا الله أن يقطع أيدي أعداء إيران.

ظلت البلاد طوال شهر تتأرجح في حالة بحث عن التوازن. وفي أكثر المدن مارست السلطة حكومات عسكرية لحالة الطوارئ، وأمر آية الله الناس بالعودة إلى بيوتهم بحلول الليل. وأصدر تعليماته إلى الأمة بالصعود إلى سطوح المنازل بكثافة عند الساعة التاسعة ليلاً والهتاف «الله أكبر». كان أسلوباً حاذقاً لاستخدام زخم المسيرات ولرفع صوت الغضب والاحتجاج، حرفياً، من دون تعريض الناس لخطر إطلاق النار في الشوارع. وكشف هذا التكتيك أكثر من أي أمر آخر درجة الفاعلية التي كان آية الله قادراً فيها على استخدام المشاعر الدينية للجماهير في حملته ضد الشاه.

وكنا نصعد، زوجي وأنا، كل مساء الدرج إلى السطح ونهتف «الله أكبر» على امتداد نصف ساعة، إلى أن تبحّ أصواتنا. وأتذكر أنني كنت أجيل نظري بين أسطح البيوت حيث كان الناس يقفون على أسطح الأبنية المنخفضة على امتداد البصر، رافعين رؤوسهم إلى سماء الليل حتى تذهب أصواتهم إلى أعلى ما يمكن. كان نَفس هذه الأصوات الرائعة المترنّمة المندفعة يحلّق في سماء المدينة الساكنة ليشيع جواً روحانياً آسراً أثّر حتى في أصدقائي الأكثر بلادة في الأحاسيس والأكثر ولعاً بالانتقاد.

ذات صباح من شهور «الله أكبر»، تحوّلنا، أمي وأنا، إلى زميلين. فقد بدأت أمي وهي عادة ساحرة الحضور وتسيطر على نفسها عندما نكون معاً، تشرح شرحاً غريباً وقوياً أنها وأبي أصبحا متقدّمين في السنّ لذا من العسير عليهما صعود الأدراج إلى السطح. وقالت: «بدلاً من ذلك، نصرخ «الله أكبر» من نافذة غرفة نومنا». شعرت أنها مُحرجة أمام الجيران من عدم قدرتها على الصعود إلى سطح بيتها وضمّ صوتها إلى الصرخات المتصاعدة في الجوار. قاطعتها قائلة: «ماما، لا بأس سأهتف عنك أيضاً».

لو أن بيتاً ظل مظلماً في تلك الأيام وسطحه خالياً، لتساءل الجميع عن السبب. أما اليوم، عندما أمرت الحكومة الناس بالخروج والصعود إلى سطوح

بيوتهم في الثاني والعشرين من شهر بهمن، في ذكرى تلك الليالي، فإن قلة قليلة من البيوت ارتفع منها هتاف «الله اكبر» وبنبرة كئيبة، من دون أن يتساءل أحد عن السبب.

فرض الجيش الذي ظل محتفظاً بمواقعه حظراً على التجوال في أرجاء البلاد يبدأ من الساعة الرابعة بعد الظهر. وفي الحادي عشر من شباط/ فبراير حض آية الله الخميني الشعب على تحدي حظر التجوال وعلى الخروج إلى الشوارع. خرجت من البيت في ذلك اليوم، وكان صدى طلقات النار يتردد مخترقاً الشوارع، وشاهدت الناس يهاجمون مراكز الشرطة. واندمج الكثير من الجنود وضباط الشرطة ببساطة في الحشود، وانضموا إلى الجماهير التي احتضنتهم في مشاهد من العواطف المحمومة. وصمد عدد ضئيل فقط من الجنود والضباط وكانت طلقات النار التي سمعناها آخر رشقات مقاومتهم. في اليوم التالي، الثاني والعشرين من بهمن وفق التقويم الإيراني، أصدر قادة الجيش بياناً يعلنون فيه أن القوات المسلحة لن تنحاز إلى جانب وأنها ستبقى في قواعدها. وعنى ذلك أن الجيش قد استسلم، وفرّ في ذلك المساء رئيس الوزراء من مكتبه وبعد ذلك فرّ من البلاد. ثم توقف التلفزيون والإذاعة التابعان للدولة عن العمل، وحينها صدر صوت حاد ومرتعش يعلن أن الشعب قد سيطر على وسائل الإعلام الرسمية.

ومنذ ذلك اليوم، صار يُحتفل بالثاني والعشرين من بهمن بصفته تاريخ ولادة انتصار الثورة. وفي اللغة الفارسية لا نقول ولادة الثورة، بل نقول إنها حصلت أو جاءت أو وقعت؛ لكننا بحثنا عن فعل فيه تضخيم فصرنا نقول إن الثورة انتصرت. وقد غمرني في ذلك اليوم شعور بالفخر إلى درجة أنه يضحكني عندما أتذكره. وشعرت أنني أنا أيضاً انتصرت، إلى جانب هذه الثورة المنتصرة. لقد شاركتُ بملء إرادتي وبحماسة في زوالي. كنت امرأة وقد طالب انتصار الثورة هذا بهزيمتي.

الفصل الثالث

مذاق الثورة المرّ

كانت «الدعوة» إلى وضع غطاء الرأس أول تحذير من أن الثورة هذه قد تأكل أخواتها، وهو الاسم الذي كانت النساء يطلقنه على بعضهن أثناء تحرّكاتهنّ للإطاحة بالشاه. تخيّلوا المشهد، بعد أيام قليلة فقط من انتصار الثورة. تم تعيين رجل يدعى فتح الله بني صدر كمشرف مؤقت على وزارة العدل. واختارت مجموعة منا، وكنا ما نزال نشعر بالفخر العارم، بعد ظهيرة منعشة ومشمسة للتوجه إلى مكتبه وتهنئته. تدفقنا إلى الغرفة وجرى تبادل الكثير من التحيات الحارة والتهاني الوردية. ثم وقعت عينا بني صدر عليّ فظننت أنه سيشكرني، أو يعبّر عن أهمية ما يعنيه التزام قاضية أنثى مثلي بالوقوف إلى جانب الثورة. لكنه قال بدلاً من ذلك: «ألا تعتقدين أنه انطلاقاً من الاحترام لقائدنا المحبوب الإمام الخميني الذي أنعم على إيران بعودته، من الأفضل أن تغطي شعرك؟». أحسست بالارتعاش. كنا هنا، في وزارة العدل، بعد انتفاضة شعبية عظيمة استبدلت ملكية تعود إلى العصور القديمة بجمهورية حديثة، وها هو المشرف الجديد على العدالة يتحدث عن الشعر.

الشعر!

قلت: «لم أضع غطاء للرأس في حياتي قط، وسيكون من النفاق أن أبدأ ذلك الآن». قال وكأنه حل ببساطة معضلتي: «إذاً لا تكوني منافقة وضعيه عن إيمان!»

أجبت: «انظر، لا تكن فصيح اللسان. لا ينبغي إرغامي على ارتداء حجاب، وإذا لم أكن مؤمنة به فلن أرتديه».

سأل وقد بدأ صوته يرتفع: «ألا ترين كيف يتطور الوضع؟»

قلت: «بلى، لكنني لا أريد ادّعاء أمرٍ أنا لست عليه». ثم غادرت الغرفة.

لم أرد أن أسمع، أو حتى أن أفكر في ماهية الواقع «الوضع» الذي يُحضّر لنا. كان تفكيري منصرفاً إلى هموم أكثر حميمية. في ذلك الربيع، بعد حملٍ فاشل ثانٍ في العام الماضي، قررنا، جواد وأنا، القيام برحلة إلى نيويورك لزيارة اختصاصي في الخصوبة. وكان تحديد الموعد قد جرى منذ وقت طويل، قبل الانهيار الهائل للنظام الاجتماعي، وأصبح السفر الآن شبه مستحيل. لقد بات الكل الآن «ممنوعاً من الخروج» من البلاد («ممنوع الخروج» بالفارسية). فما كان منّي إلا أن توجهت إلى نائب رئيس الوزراء عباس أمير انتظام برسالة خاصة من مكتب رئيس الادعاء العام. فوافق أمير انتظام -الذي اعتقل بعد ذلك بمدة وجيزة وما زال يمضي عقوبة بالسجن حتى اليوم- على منحنا الإذن بالسفر. وتوجهنا إلى المطار قاصدين السفر إلى الولايات المتحدة في نيسان/ أبريل. وبدا مطار مهراباد في طهران، الذي يعجّ عادة بالمسافرين على الرحلات المتجهة إلى أوروبا، كشيء بين مدينة الأشباح والقاعدة العسكرية. وبعد أن تمّ تفتيش حقائبنا بدقة، خشية أن تكون مليئة بالآثار أو بالأموال الحكومية المهربة، صعدنا إلى متن طائرة «البوينغ» إلى جانب خمسة عشر مسافراً آخر في الرحلة ذاتها. تمددنا على صفوف المقاعد الخالية وحدّقت من النافذة إلى طهران التي تختفي تحتنا وتساءلت أي إيران سنجد عند عودتنا؟

* * *

كان الاختصاصيون في نيويورك متعاطفين. وربما كانوا أيضاً في تلك الأيام أكثر صراحة في شأن ما يستطيع الطب المتقدم أن يفعل لامرأة في الثلاثينيات من عمرها تصارع في سبيل الحمل. كان ثمة طبيب إيراني اختصاصي في

الأمراض النسائية بين أعضاء الفريق المعني بالخصوبة في عيادة لونغ ايلاند، وشرح المسألة لي بالطريقة الفارسية التقليدية، مستخدماً تشبيهاً يتعلق بتفتّح الزهور: «شجرة التفاح قد تحمل مئة برعم لكن لا تصبح كل البراعم ثمرات تفاح. هل يمكننا أن نفسّر لماذا، فيما تحصل كلها على الماء ذاته والمناخ ذاته، تقع بعض البراعم وتتحول أخرى إلى تفاحات؟ قطعاً لا». وفسّر لي أن الأطباء لا يستطيعون ببساطة تحرّي أسباب بعض حالات الحمل الفاشل وأن عليّ أن أصارع الاكتئاب وأن أستمر في المحاولة.

ذهبت إلى العمل في اليوم التالي لعودتنا إلى طهران. كنا قد تغيّبنا أقل من شهر، لكن طهران كانت قد أصبحت مدينة مختلفة بالفعل. الشوارع التي تخترق طهران - الجادّات الطويلة التي تحمل أسماء مثل أيزنهاور وروزفلت والملكة أليزابيث وعرش الطاووس- أعيدت تسميتها بأسماء الأئمة الشيعة ورجال الدين الشهداء وأبطال نضال العالم الثالث ضد الامبريالية. وأثناء غيابنا القصير، راح الناس يعبّرون عن دعمهم للثورة علناً وبصورة مبالغ فيها. وفيما كانت سيارة الأجرة التي كنت أستقلها تقترب ببطء من المباني الحكومية في وسط طهران لاحظت أن الصف المعتاد من سيارات الوزارة قرب الحاجز الحجري للمبنى، لم يعد موجوداً وأن صفاً طويلاً من الدرّاجات النارية يقف مكان السيارات. وعندما وصلت إلى المحكمة رحت أنتقل من قاعة إلى قاعة أختلس النظر بريبة إلى داخل المكاتب المختلفة. لم يعد الرجال يرتدون بدلات مع ربطات عنق وإنما سراويل فضفاضة وقمصاناً من دون ياقات، الكثير منها متجعّد بل إن بعضها ملوّث بالبقع. حتى أنفي التقط نفحة التغيير، فقد غابت رائحة الكولونيا أو العطر الخفيفة التي كانت تنتشر في الأروقة، خصوصاً عند الصباح. وعندما التقيت واحدة من زميلاتي في القاعة وهمست لها بما أشعر به من صدمة حيال التحولات السريعة، وكأن طاقم الوزارة يقوم بتمرين بالملابس الكاملة لمسرحية عن الفقر في المدينة.

في لحظة معيّنة أثناء غيابي القصير، بدا أن الهبّة الشعبوية توقفت لتخصّ

بالاهتمام المسائل التي تترتّب عليها تبعات حقيقية، من نوع حظر ربطة العنق في الممتلكات والمؤسسات الحكومية. كان رجال الدين المتشددون يزدرون منذ زمن بعيد التكنوقراطيين ذوي الميول الغربية، ويطلقون عليهم تسمية «فوكولي»، وهي تحريف لكلمة «فو كول» (faux-col) الفرنسية، أو الياقات على شكل فراشة[١]. والآن أصبحت ربطة العنق تُعتبر رمزاً لشرور الغرب، ورائحة الكولونيا تشير إلى الميول المعادية للثورة، وركوب سيارات الوزارة للتوجه إلى العمل يثبت الامتياز الطبقي. كان الجميع في المناخ الجديد يأملون أن يبدوا فقراء، وأصبح ارتداء الثياب المتسخة علامة على النزاهة السياسية وإشارة إلى تعاطف مرتديها مع المستضعفين.

«ما هذه المقاعد!» أصبحت صيحة احتجاج شهيرة أطلقها آية الله طالقاني، وهو واحد من رجال الدين الثوريين البارزين لدى وصوله إلى مبنى مجلس الشيوخ لإعادة كتابة الدستور وعثوره على قاعة مليئة بالمقاعد المزركشة. حاول مساعدوه الدفاع عن أنفسهم بالقول إن المقاعد كانت موجودة من قبل؛ ولم يخرجوا ليشتروها أو أي شيء من هذا القبيل. وطوال أيام، ظل آية الله ومجموعته يخطّون الدستور جالسين القرفصاء على الأرض، إلى أن استسلموا وجلسوا على المقاعد الفاسدة.

انتشر في تلك الفترة جو مسرحي حقيقي، لكنّ الشائعات المنتشرة كالدّوامات في الجسم القضائي كانت تشتت انتباهي؛ شائعات مرعبة حتى أنني كلما سمعتها تتكرر رحتُ أعبُّ الهواء عبّاً حتى يساعدني التنفس في التغلب على يأسي. كان القول المنتشر في القاعات إن الإسلام يمنع النساء من تولي منصب القاضي. وقد حاولت أن أقلل بسخرية من أهمية هذه الشائعات.

---

(١) في واقع الأمر إن الفو كول هي الياقة التي يمكن رفعها أو وضعها ومن هنا اسمها «الياقة المزيّفة». وقد تكون الياقة على شكل فراشة قد أخذت في إيران اسم الفو كول كما يحدث في الكثير من الأحيان عند تعميم ترجمة تعبير أو مصطلح أجنبي. م

وأحصيت العديد من كبار الثوريين بين أصدقائي، وتوصلت إلى استنتاج مفاده أن من أبلغني الشائعات هذه مخطئ. وفي سبيل توضيح ما تنطوي عليه تنحيتي المحتملة من معانٍ رمزية، ينبغي أن أشير إلى أنني كنت القاضية الأكثر تميّزاً في محكمة طهران. وقد أمّنت لي مقالاتي المنشورة بعض الظهور في الحيّز العام. لقد قدّمت كل مؤهلاتي- كقاضية من الطراز الأول- لدعم الثورة. واعتقدت أنهم لن يتعرّضوا لي حتماً. وإذا تعرّضوا لي فهذا يعني نهاية كل شيء بالنسبة إلى النساء في النظام القضائي، وربما في الحكومة برمّتها.

طوال أشهر، حملتُ خلالها، تشبّثت بموقفي. وذات يوم استدعاني وزير العدل المؤقت بني صدر، الذي كان قد دعاني إلى ارتداء الحجاب، إلى مكتبه واقترح بلطف أن ينقلني إلى مكتب التحقيقات في الوزارة. كان ذلك عملاً مرموقاً لو لم أشعر بقلق من أن تكون لإبعادي عن منصب القاضية انعكاسات، منها أن يفترض الناس أن سلك القضاة بات مقفلاً أمام النساء. ولما قلت «لا»، حذّرني بني صدر من أن لجنة تطهير قد تتشكل، ويمكن أن أتعرض لتخفيض الرتبة إلى درجة مساعد قضائي. قلت: «لن أتنحى بملء إرادتي».

* * *

«استولت مجموعةُ تسمّي نفسها «أتباع خط الإمام الخميني» على السفارة الأميركية واحتجزت طاقم السفارة رهائن!»، هكذا أعلنت الإذاعة بصيغة خبر عاجل، في مساء يوم من تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ١٩٧٩، فيما كنت أقف في المطبخ أمام حوض الجلي، وأنا حامل في شهري الخامس، أغسل الأعشاب الطازجة للعشاء. بدا لي اسم المجموعة عديم المعنى على نحو غريب. في تلك الأيام، كان الجميع يتبع خط الإمام الخميني، وإذا لم يفعل فما كان يجرؤ على إعلان ذلك. نحّيت المصفاة جانباً وفكرت فوراً في معاهدة فيينا المتعلقة بالعلاقات القنصلية. «يا لهم من متشددين عديمي التفكير هؤلاء الشبان»، قلت في نفسي. كيف يمكن مجرّد تخيّل احتجاز دبلوماسيين رهائن؟ تخيّلت أن أميركا ستشعر حكماً بالغضب الشديد حيال عملية الاستيلاء

المعادية على سفارتها وتجهز لشنّ هجوم على إيران، وفي حالة التشوش التي تعيشها البلاد في مرحلة ما بعد الثورة فإن إيران ليست في وضع يؤهلها للدفاع عن نفسها. وتوقعت أن يقوم آية الله الخميني، ولو لمجرد اتقاء ضربة أميركية، بإصدار أوامره إلى هؤلاء الفتية (وكانوا بالفعل مجرد فتية؛ ولو رأيتم وجوههم في نشرات الأخبار المسائية للاحظتم على الفور أنهم لا يتجاوزون العشرين من أعمارهم) بإطلاق الرهائن. مرت بضعة أيام. ولم يكتف الإمام الخيمني بعدم إصداره أوامر بالإفراج عن الرهائن، بل أشاد بشجاعة الشبان. أما أميركا فلم تهاجم إيران، وقالت إنها ستكتفي بتجميد الأصول الإيرانية في الولايات المتحدة. وقد صدمني كعمل شديد الغرابة أن ترى الولايات المتحدة المال نظيراً تكتيكياً: تحتجزون دبلوماسيينا رهائن، فنرد باحتجاز أموالكم رهينة.

عندما أفكر في تلك الأوقات لا يثير دهشتي سوى مقدار سذاجتي. كانت منظومة القيم الأخلاقية لهذه المسألة بسيطة إلى درجة باهرة. وذلك أن احتجاز الرهائن يشكّل خرقاً للقانون الدولي. إنه غير قانوني، وعلى ذلك فهو عمل خاطئ يستدعي الإدانة. لماذا حصل إذاً؟ ذكرتني غشاوة حيرتي بأمير عباس هويدا، وهو رئيس للوزراء عمل في خدمة الشاه طوال أربعة عشر عاماً، وألقى به الملك عديم الوفاء في السجن في العام الأخير قبل الثورة كضحية بشرية قصد بها سد الطريق أمام استياء الشعب المتفاقم. في يوم الثورة، هجر حرّاس سجن هويدا مواقعهم واقترحوا عليه أن يفر هو أيضاً. لكن هويدا المتشبّث بقناعته أنه لم يرتكب أي خطأ لم ير داعياً للهرب كمجرم عادي، فبقي في مكانه متصوراً أن محاكمة عادلة ستعقد قريباً وتعلن براءته. لقد كان مثلي مطلعاً بالتأكيد على تاريخ الثورات العظيمة، وعلى قصص الكتب المدرسية عن الثورتين الفرنسية والروسية التي أسفر عنها استعراض للرؤوس المقطوعة على الأسنة. لكنه كان مثلي أيضاً لناحية اقتناعه بأن العالم لا يمكنه القبول بالغضب والاضطراب الملازمين للإطاحة العنيفة بنظام راسخ. ربما كنا مندهشين بمشهد

طهران التي نعرفها تنهار من حولنا لندرك أن القواعد والعدالة ستضيع في الفوضى، كما هي الحال في كل الثورات. فيمَ كان يفكر؟ فيمَ كنت أفكر؟ هل اعتقد حقاً أنهم سيوقفون اهتياجهم، ويلغون مسيراتهم المليونية ليعقدوا محاكمة عادلة في قاعة مكيّفة ويخصّصوا له كاتباً؟ هل اعتقدتُ حقاً أن الشبّان المسلّحين البالغين من العمر عشرين عامًا والمنتشين بخمر السلطة في السفارة الأميركية سيقلبون صفحات معاهدة فيينا ثم يغيّرون رأيهم؟ لم يكن أيّ منا قد استوعب الثورة حقاً. أي مغفلين كنا.

بعدما أبدى آية الله الخميني بهجته باحتلال السفارة معتبراً أنه «ثورة ثانية»، لم يجرؤ أحد على معارضته علناً. لقد عارض الكثير من الإيرانيين معارضة عميقة احتجاز الرهائن، لكنهم لم يتفوّهوا بكلمة خارج بيوتهم، خشية التعرّض للاتّهام بأنهم عملاء أميركيون ويُحكم عليهم بالسجن. ولم يُلق مؤيدو احتلال السفارة بالاً لسمعة إيران في العالم. وقال آية الله: «لا يمكن لأميركا أن تفعل شيئاً»، وسرعان ما طُبع هذا الشعار في أنحاء طهران. لقد ظل الناس مسحورين بفخر خادع، وظنوا أنهم باحتجاز رهائن السفارة الأميركية قد هزموا أميركا.

أستطيع القول بقدر معقول من اليقين أن الإيرانيين الذين كانوا يشعرون بالقلق حيال انعكاسات معاهدة فيينا هم في صف الأقلية، بينما اعتبرت أكثرية الإيرانيين بتأثير كاريزما آية الله التي لا تُجارى، الطلاب أبطالاً.

سرعان ما أصبح احتلال السفارة هو الدراما المركزية للثورة. أعلن الطلاب أنهم نبشوا من الأرض وثائق استخبارات سرّية وراحوا يصدرون البيانات التي تتضمن أسماء إيرانيين زعم الطلاب أنهم كانوا يتجسسون لحساب الحكومة الأميركية. ومع كل بيان جديد كان هؤلاء الطلاب المحتجزون للرهائن يوقّعون عملياً على مذكرات بإعدام المتعاملين المزعومين. والتفّ الناس حول السفارة مُتبارين مهتاجين وراحوا يتجمّعون عند التقاطعات المحيطة بمجمع السفارة الفسيح هاتفين «الموت لأميركا». وراح المناضلون الأغرار يسيّرون الدوريات في باحة السفارة التي تبلغ مساحتها ما يقارب حرم كلية جامعية صغيرة، مع

ملاعب تنس وحدائق وقاعة محاضرات ضخمة - وهي سفارة يعكس حجمها العلاقات الحميمة بين حكومة الولايات المتحدة وشاه إيران.

بعد ظهر أحد الأيام اتصلت بي هاتفياً صديقة لي تسأل ما إذا كنت أود الذهاب إلى السفارة. سألت بدوري: «هل سيدعوننا ندخل؟». أجابت «لا، لكن هناك حشوداً كبيرة. أعتقد أن التجوال هناك سيكون مسلّياً». في ذلك الوقت كان باعة الطعام يعرضون الشمندر المسلوق والذرة المشوية والمشروبات الغازية الباردة، وكل أنواع المأكولات الإيرانية السريعة، وقد نشروا عرباتهم صفوفاً في الشوارع المحيطة بالسفارة، كما لو كانت أرضاً مخصّصة للنزهات. وكان الأهل يحضرون أطفالهم في العربات فيما يلعق الأولاد قراطيس البوظة، ويشتري المكرّسون للثورة صور آية الله إلى جانب عصير الشمّام الطازج. وما بدأ في الأساس اعتصاماً أصبح حالة قطيعة مرضيّة مع العالم، قبل أن يتحوّل الأمران إلى معرض مفتوح في الشارع. قلت لصديقتي: «إنني آسفة، لست مهتمة بالخبل كرياضة معروضة للفرجة». وليلة بعد ليلة، كان التلفاز يبث البيانات الصحافية التي يصدرها هؤلاء الشبان ومشاهد للحشود دائمة الحضور. وقد دام الحصار أكثر مما تخيّل أي منا، وبلغت مدته في الحصيلة ٤٤٤ يوماً. وأذكر كيف أن نصف العالم أرسل موفدين إلى آية الله الخميني يناشدونه إطلاق الرهائن. بل إن البابا أرسل موفداً قال متضرّعاً: نيابة عن البابا وباسم الإنسانية، أرجوك دعهم يرحلون. رد آية الله من دون أن يتأثّر: «أين كان البابا عندما كان شباننا يُعذّبون في سجون الشاه؟».

ظهر العديد من سياسيي الجمهورية الاسلامية المقبلين من صفوف المجموعة التي احتجزت الرهائن في السفارة والتي أطلقت على نفسها تسمية «الطلاب السائرون على خط الإمام». لقد غذّى محتجزو الرهائن، من المتشددين المعروفين إلى الشخصيات الإصلاحية البارزة، صفوف الحكومة، على الرغم من أن وضعهم كأبطال قد تدهور في أعين الإيرانيين في الأعوام التالية، خصوصاً بعد انتهاء الحرب ضد العراق، وبدأ الناس يشعرون بحجم

الضرر الذي ألحقه احتلال السفارة بمكانة إيران وفي العالم. وأسفر انهيار الاتحاد السوفياتي عن نظام عالمي أُحادي القطب. وجلب العداء حيال القوة العظمى العالمية الوحيدة أعباء خطيرة. وكان معنى الذراع الطويلة للعقوبات الاقتصادية التي فرضتها الولايات المتحدة أن إيران لا يمكنها أن تستفيد من المقاولين الأميركيين لصيانة بنيتها التحتية النفطية، التي بنتها بالكامل الشركات الأميركية. ولم يعد في وسعها شراء طائرات «بوينغ» أو استخدام أسطول الطائرات الذي تمتلكه، بل إن طائرات «إيرباص» الأوروبية لم تعد متاحة - بالنظر إلى أن محرّكاتها أميركية الصنع. وتقادم الأسطول الجوي المدني الإيراني بمرور الوقت، وبدأت الحكومة بشراء طائرات توبوليف الروسية التي كانت تسقط من السماء بانتظام مثير للهلع. وحتى اليوم يمكنك إذا سافرت على الخطوط الجوية الإيرانية إلى أوروبا أن تجد نفسك على متن طائرة قديمة من طراز بوينغ ٧٤٧ تعود إلى السبعينيات، كتذكار أثري وحيد من الحقبة التي كان السفير الإيراني في واشنطن يدعو فيها إلى أشهر الحفلات في الولايات المتحدة، في حين كان السفير الأميركي يستضيف مآدب الغداء التي يُقدّم فيها مشروب «البلادي ماري».

جعل احتجاز الرهائن مصيري الولايات المتحدة وإيران متشابكين لعقود مقبلة، على الرغم من أنها ربما كانت المرّة الأخيرة التي تتواجه فيها الأمّتان مباشرة. لقد لاحقت إيران الثورية الأميركيين في بيروت التي كانت تعمّها الفوضى في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين بإرسالها المتشددين وحرّاس الثورة إلى لبنان، وهو بلد صغير على البحر المتوسط ابتلي بصراع أهلي، لتأسيس المجموعة الشيعية الملتزمة «حزب الله». وفي ربيع العام ١٩٨٣ قاد مفجّر انتحاري شاحنة صغيرة محمّلة بالمتفجرات إلى داخل السفارة الأميركية في بيروت ليقتل ثلاثة وستين شخصاً؛ وفي خريف العام ذاته، قُتل في تفجير انتحاري آخر ٢٤١ جندياً من مشاة البحرية في ثكنات تابعة للجيش الأميركي في بيروت. وبعد نجاحهم في تقديم السيارات المفخخة التي يقودها انتحاريون

كسلاح في حرب المدن، باشر المتشددون الإسلاميون الذين يقال إنهم يتلقون دعماً من إيران في خطف الأميركيين، بمن فيهم رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية؛ كان خاطفوهم على صلة بالحرس الثوري الإيراني وكان الدبلوماسيون الذين يريدون تحرير الرهائن يسافرون إلى طهران للتفاوض.

على السطح، هيمن العداء بين الولايات المتحدة وإيران، وراحت الأخيرة توجه الضربات إلى خصمها المُكتشف حديثاً على ساحة المعركة البعيدة للعاصمة المشرقية (بيروت). ولكن الشائعات كانت تنشر، حتى من الجانب الإيراني في أزمة احتجاز الرهائن، عن قناة اتصال سرّية خلفية بين الخصمين المُعلنين. وزعم أعضاء رفيعو المستوى في إدارة الرئيس جيمي كارتر المنصرفة أن محتجزي الرهائن وافقوا عبر قنوات اتصال خاصة على إرجاء الإفراج عن الرهائن إلى يوم أداء الرئيس ريغان القسم الدستوري. وبالفعل، لم تكد تمر ساعات قليلة على أداء ريغان القسم حتى أبلغوا الأمة أن احتلال السفارة قد انتهى.

وغذّت فضيحة إيران - كونترا في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين هذه الشبهات، عندما تسرّب أن الولايات المتحدة عازمة على بيع إيران صواريخ مقابل الإفراج عن رهائن. ولطّخت الفضيحة إدارة ريغان، لكنها أيضاً جعلت الإيرانيين دائمي التساؤل حيال موقف حكومتهم التي تبدي عداءً متّقداً لأميركا، خصوصاً عندما ظهرت تفاصيل عن بعثة سرّية إلى إيران: في العام ١٩٨٦ أرسل الرئيس ريغان مستشاره للأمن القومي روبرت ماكفارلين إلى طهران حاملاً كعكة بالشوكولا على شكل مفتاح، أصبحت سيئة السمعة الآن، ونسخة من الكتاب المقدّس عليها كلمات مكتوبة بخط الرئيس. وقد تحوّلت الكعكة على شكل مفتاح إلى ما يشبه الأسطورة السياسية في إيران، إلى رمز مثلج للتعاون البعيد عن الأنظار خلف العداء العلني بين الدولتين.

لم تكن أزمة الرهائن التي دامت ٤٤٤ يوماً مواجهة عادية أو عابرة بين دولتين ذاتي سيادة. وتذهب الحكمة التي كانت سائدة في واشنطن إلى فهم

العلاقة على أنها زواج اتخذ منحى سيئاً، وفيه تظهر الانفعالات القوية من قبل الجانبين على درجة الأهمية ذاتها لجهة الحسابات الاستراتيجية. يرتاح هذا المنظور إلى فهم سلوك إيران على أنه انفجار لغضب الإسلام المتشدد ضد الشاه العلماني. في حين أن الذاكرة الجمعية في إيران تمتد أبعد إلى الوراء، وترى أن الطلقات الافتتاحية جاءت في العام ١٩٥٣، عندما أبعد انقلاب أميركي مصدّق عن السلطة.

مرّ العديد من محتجزي الرهائن، إلى جانب الشخصيات الثورية، بعملية تحوّل فكري في التسعينيات. وقد استنتجوا أن الثورة انحرفت عن اتجاهها الأصلي، ولم تعد ترى مُثلها العليا في الحرية والاستقلال، وباتت في غربة عن الإيرانيين بسبب تفشي الفساد والإذلال. لقد ساعدوا كطليعة للحركة الإصلاحية في أواخر التسعينيات كونهم يأتون من داخل النظام ويسعون إلى مراقبة الأساليب التسلطية للجمهورية الإسلامية. وعندما فتح مجمَّع السفارة الأميركية أمام الجمهور للمرة الأولى في العام ٢٠٠١ بمعرض مروّع مخصص لـ «الجرائم الأميركية في أنحاء العالم» - استُكمل بعرض دُمية تمثل شيطاناً بقرون للعم سام وتمثال الحرية يحتجز حمامة حية في معدته- رفض محتجزو الرهائن السابقون الحضور.

* * *

عُقد الاجتماع الذي جُرّدتُ فيه من منصبي كقاضية في غرفة كبيرة في محكمة المنطقة في اليوم الأخير من العام ١٩٧٩. كانت مراسم صرف من الخدمة، في واقع الأمر، أكثر منها اجتماعاً، لأن الرجال في لجنة التطهير لم يكلّفوا أنفسهم حتى أن يقدّموا لي مقعداً. جلسوا وراء منضدة خشبية. اثنان منهم كانا من القضاة الذين أعرفهم حق المعرفة، وكان أحدهما حتى العام الماضي مساعداً أصغر لي. بقيت واقفة بعناد ويداي ممسكتان بمسند كرسي؛ كنت حاملاً في الشهر السادس، وتساءلت ما إذا كانوا سيتحلّون بما يكفي من اللياقة لدعوتي إلى الجلوس. ثم التقط أحدهم ورقة ورماها بفظاظة نحوي عبر

المنضدة وقال بغلظة: «توجّهي إلى مكتب البحوث عندما تنتهي إجازتك». و«مكتب البحوث» هو المكان الذي يمثل الموظفون القضائيون أمامه. وهذه العبارة تعني أن رُتبتي قد خُفضت إلى موظفة مكتبية أو مُسيّرة معاملات أو طابعة على الآلة الكاتبة.

لم ينبس أحد آخر ببنت شفة. ونظرت إلى القاضيين اللذين أعرفهما وقد أحاطا برئيس لجنة التطهير من الجهتين.

«تريد أن تبدأ إجازة من دون أن تذهب إلى مكتب البحوث حتى» قال رئيس لجنة التطهير.

أدركت حينذاك أنه يتعمّد استفزازي، لذا مررت يدي على بطني المنتفخ وقلت إن إجازة الأمومة يضمنها قانون العمل.

عندها وقع ما لم يكن ليخطر في بال. بدأوا بالكلام عن القاضيات كما لو لم أكن موجودة في الغرفة. قال أحدهم «إنهن غير منظمات!» وتمتم الثاني «دائمات الشرود». وقال الثالث موافقاً: «ينقصهن الدافع إلى حد بعيد؛ واضح تماماً أنهن لا يردن حتى مجرد العمل».

أدرت كتفيّ وحضنت معدتي بيد حامية، وانسحبت من الغرفة غير واثقة بأنني أستطيع الكلام من شدة غضبي.

وإلى اليوم، عندما أفكر في ذلك الاجتماع أو أخبر قصته، لا أستطيع تذكّر كيف عدت إلى البيت. لعلي مشيت، لأنني عندما ظهرت في البيت، بدا واضحاً أنني قد وقعت على الطريق على الرغم من أنني لا أتذكر الوقوع. ولا أتذكر عبوري التقاطعات المزدحمة أو سماع طنين سيارات «البايكان» اللاهثة، ولا أذكر حتى أنني فتحت باب البيت بمفتاحي، بل قرعت الجرس ووقفت عند المدخل. وجدتني شقيقتي هناك شاحبة وما من تعبير على وجهي، وكنت ألهث فيما ينزف الدم من ساقي وسروالي ممزق. نظرتُ إلى الأسفل ورأيت جرحاً أحمر منفتحاً تحت ركبتي. عندها فقط حضنتني شقيقتي ورحتُ أنتحب.

***

في الأيام التالية، ظل اللامُفكّر فيه يتوالى فصولاً بانتظام مدهش. ومع أنني لم أذكر ذلك صراحة فلا بد أنكم لاحظتم أنني عنيدة. رفضت البقاء في البيت والتخلي عن كياني في الوزارة الذي يتعرض للذوبان ببساطة. تقدمت من مكتب البحوث، المكان الذي «نُقلت» إليه مجللة بالعار، عند الساعة التاسعة تماماً من صباح اليوم التالي. لكن منذ اليوم الأول لوصولي إلى هناك، أعلنت أنه بما أن مرتبتي قد خُفِّضت ضد إرادتي فإنني أرفض القيام بأي عمل، كنوع من إظهار الاحتجاج. كان رئيس مكتب البحوث يعرفني من قبل وتفهّم سبب رفضي للقيام بأي عمل، وتركني وشأني. وكنت أتوجه كل يوم إلى المكتب وأجلس في غرفتي ببساطة. وتحوّلت الساعات إلى أيام والأيام إلى أسابيع.

بعد ظهيرة أحد الأيام، جاءت مجموعة من الناس إلى الوزارة واتخذت موقعاً لها خارج مكتب بني صدر الذي كان قد عُيّن في ذلك الوقت مدّعياً عاماً. كان هؤلاء الرجال ينتمون إلى «انجمان إسلامي»، وهي واحدة من الجمعيات الإسلامية المتكاثرة كالفطر والتي أخذت على عاتقها حماية نقاء الثورة. وعندما وصل بني صدر أخيراً منعوه من دخول مكتبه. وتجادلوا بصخب وقالوا له إنه ليس ثورياً إسلامياً صادقاً؛ كانوا أساساً يبلغونه الرسالة ذاتها التي أبلغني إياها عندما طلب مني تغطية شعري مراعاة لآية الله الخميني.

خرج بني صدر متشامخاً من الوزارة. وبعد مدة، وما إن أصبح أخوه رئيساً لجمهورية إيران[٢] حتى دعاني لأعمل كمستشارة قانونية في مكتب الرئيس. كان هذا عرضاً مغرياً، ويتضمن بالتأكيد مشاركة في العمل أكثر من جلوسي يوماً بعد يوم في المكتب القانوني محدّقة في الجدار. لكنني رفضت العرض. لقد رأيت درجة الهشاشة التي يمكن أن تكون عليها هذه التحالفات السياسية، وكيف يعيد الثوريون المزاجيون اختراع معاييرهم يوماً بيوم. كيف أن أحدهم يكون في يوم يلقي المحاضرات على الآخرين بشأن الروح الثورية الكافية

---

(٢) المقصود هو الرئيس أبو الحسن بني صدر. م.

ويمكن أن يُلقى في اليوم التالي خارج مكتبه على أيدي أناس أكثر تشدداً منه. لم أكن مخطئة. فالرجل الذي قبل العرض بدلاً مني أُعدم رمياً بالرصاص، عندما أُطيح الرئيس بني صدر من مصبه.

* * *

في أحد تلك الأيام المتشابهة في مكتب البحوث، وقبل أن يهدد الضجر بدفعي إلى الجنون، تخليت عن إضرابي عن العمل بعد أن قرأت قطعة إخبارية مهمة في صحيفة «انقلابي اسلامي» اليومية، التي تحمل اسماً غير مبتكر ويعني «الثورة الاسلامية». عندما تجاوزت العنوان وقرأت مسوّدة قانون العقوبات الإسلامي المطبوع في الأسفل، اقتنعت أنني أهلوس. فكرت: كيف يمكن لهذا أن يجري؟ إنّ فرض قانون عقوبات إسلامي، مستوحى من الشريعة الإسلامية، هو بمثابة إعادة صنع غاية في الخطورة للكيفية التي يحكم المجتمع نفسه بها. وسيؤدي إلى تغيير جذري يبلغ أُسُس الحكم وعلاقة المواطنين بالقانون والمبادئ الناظمة والعقود الاجتماعية التي يسير المجتمع بموجبها. وسيكون بمثابة تحوّل ذي أهمية شاملة إلى الدرجة التي يتعيّن معها قراءته بحذر شديد وعرضه على الاقتراع العام. واستخلصت أنه لا يجب أن يظهر ذات يوم في صحيفة الصباح. أبعدت قدح الشاي عن المكتب ونشرت الصحيفة أمامي بحرص وبدأت أقرأ من الأعلى.

حدّقت في المواد الكالحة السواد التي سأمضي ما بقي من عمري أصارعها. قرأت: تعادل قيمة حياة المرأة نصف قيمة حياة الرجل (على سبيل المثال إذا صدمت سيارة رجلاً وامرأة في الشارع فإن التعويض المالي المتوجب لأسرة المرأة يعادل نصف ما يستحق للرجل)؛ تُحتسب شهادة امرأة في المحكمة في شأن جريمة بنصف ما تُحتسب به شهادة الرجل؛ على المرأة أن تطلب موافقة زوجها على الطلاق. وبدا أن واضعي مسوّدة قانون العقوبات أخذوا بنصائح القرن السابع. وبعبارة موجزة أعادت هذه القوانين عقارب الساعة أربعة عشر قرناً إلى الوراء، إلى الأيام المبكرة لانتشار الإسلام، الأيام

التي كان يعتبر فيها رجم النساء الزانيات وقطع أيدي اللصوص أحكاماً مناسبة.

أحسست بالحرارة ترتفع في جسدي وبأشواك غضب لا حدود له. وراح ألمٌ عميق يضرب أحد صدغيّ، وفي غضون ساعة كان قد تفاقم وانقلب إلى نبضات قوية معذبة في جانب واحد من الرأس. وعدت بأول حالة من حالات الشقيقة العديدة إلى البيت واستلقيت على سريري لساعات والستائر مرفوعة. كان جواد مسافراً إلى أوروبا منذ بضعة أشهر في دورة تدريبية. ولم يكن عليّ، في الأقلّ، أن أطهو أي شيء أو حتى أن أرتّب المائدة. وفي ذلك الوقت كان قد ظهر جلياً للإيرانيين المتعلمين أن الثورة تنحرف صوب اتجاه أثيم. ليس فقط لأن مشاعر التأييد التي حملتنا إلى الشوارع غائبة في العديد من الإجراءات الثورية الجارية، ولكن لأن شهية للعنف كان يبدو أنها آخذة في النمو.

عندما غربت الشمس وانطفأت أصوات ازدحام السير المسائي، ومع اقتراب الساعة التاسعة ليلاً وهدوء صخب طهران، دببت خارج السرير وهيّأت كمّادة باردة ثبّتها على جبهتي. وحملت طبقاً من البسكويت إلى غرفة المعيشة حيث شغّلت التلفاز وأبقيت صوته منخفضاً. لم أتمكن من الأكل حقًّا؛ وإنّما حركت فقط الفتات على أطراف الطبق. ثم ظهر وجه آية الله الخميني القاسي على الشاشة، فرفعتُ الصوت، على الرغم من أن الضجيج المصاحب كان لا يحتمل تقريباً. قال في ذلك الخطاب، وبتلك النبرة الرتيبة المميزة التي أطاح بها ملكاً وأعاد رسم مسار التاريخ الإيراني، إن كل من يعارض القانون هو معاد للإسلام وسيُعاقب. وقد أرسيت سابقة في تلك الأيام المبكرة: كان النقد من صنع «الأعداء»، ولائحة هؤلاء المصنّفين في خانة «أعداء الإسلام» و«المناهضين للثورة» راحت تتوسع. وباتت الخطوط المرسومة على الرمال التي تحدد معاني هذه العبارات تُمحى ويعاد رسمها كل يوم. والذين انتهى بهم الأمر واقفين في الجانب الخاطئ، كانوا يواجهون، على الأغلب الأعم، فريق الإعدام رمياً بالرصاص.

بعد أيام عدة، كتبت مجموعة من أساتذة القانون في جامعة طهران رسالة

احتجاج تُحاجّ فيها أن قانون العقوبات الجديد غير ملائم للقرن العشرين وينبغي ألا يُطبّق. وسرعان ما تم إبعادهم من أعمالهم، وظل تعليق ممارستهم للعمل سارياً إلى أن أدّى النقص اللاحق في الأساتذة إلى استدعائهم تدريجاً للعودة إلى وظائفهم.

* * *

أعددت نفسي لمواجهة كل الطرق التي يمكن أن يؤثر فيها فرض القانون الإسلامي على حياتي. وفكرت في كل النواحي التي يمكن أن يُدخل تأثيراً عليها: من غرف المحكمة التي لم أعد أستطيع أن أترأسها، إلى الوزارة التي ستعجّ برجال الدين، إلى الكتب الدينية التي سيتعيّن عليّ الآن أن أستخدمها كمراجع قانونية. لكن من بين كل تكهناتي القلقة لم أتخيل قط أن الخشية من النظام القانوني الجديد، وإن كان نظاماً كارثياً، ستتبعني إلى غرفة المعيشة، وإلى زواجي. لكن لم يكن من المجدي إنكار ذلك. ومنذ أن قرأت عن قانون العقوبات الجديد في الصحيفة صرتُ أتصرف مع جواد على نحو مختلف. كنت كمن يرتدي جلده مقلوباً. كانت أدنى ملاحظة لتجاهلٍ من قبله أو ملاحظة بنبرة سيئة كانت تضعني على سكة الحرب، أو كانت، بحسب العبارة الفارسية، تدفعني إلى حراسة جبهتي. لم أستطع أن أحول دون وقوع ذلك.

يوم تزوجنا، جواد وأنا، ضممنا حياتينا معاً كشخصين متساويين. لكن في ظل هذه القوانين، ظل هو شخصاً وأصبحت أنا رقيقاً. لقد سمحوا له أن يطلقني بحسب رغبته، وأن يحصل على حضانة أطفالنا المقبلين، وأن يتزوج ثلاث نساء غيري وأن يبقيهن في البيت معي. وعلى الرغم من أنني كنت أدرك بعقلي أن ما من وحش كهذا يكمن داخل جواد، منتظراً فقط فرصة الخروج وسرقة أطفالنا المفترضين والزواج مجدداً، فقد كنت مع ذلك أشعر بالاضطهاد. بعد أسبوعين من النكد الجديد، أصبحت شخصاً دفاعياً، وقررت أن عليّ إجراء محادثة مع جواد.

قلت له: «إسمع، لم أعد أستطيع التعامل مع هذا الأمر أكثر من ذلك».

أجاب: «ليست لدينا أي مشكلات». وكان على حق. قبل كل هذه المسألة كان اختلافنا الأكبر يتعلق بواجباتنا المنزلية المملة.

«أعلم، لكن القانون أوجد مشكلات لنا. اعتدنا أن نكون متساويين. والآن تم ترفيعك فوقي وأنا ببساطة لا أستطيع تحمُّل ذلك. لا أستطيع فعلاً»، قلت.

سألني رافعاً يديه: «إذاً ما الذي تريدين أن أفعل؟».

عندها التمع الوحي. عرفت ما الذي يستطيع فعله! يستطيع التوقيع على اتفاق ما بعد الزواج، حيث يضمن لي الحق بالطلاق منه، إلى جانب الأولوية في حضانة أطفالنا المقبلين في حال وقع الفراق.

نهضنا في الصباح التالي عند الساعة الثامنة تقريباً، وأسرعنا في تناول إفطار من الشاي المحلّى والخبز الطازج، واندفعنا نحو الكاتب العدل المحلي. قدتُ السيارة كالعادة. وكان جواد يكره القيادة في المدينة، في حين أنني لم أكن أستمتع بشيء قدر استمتاعي بشق طريقي مقاتلة عبر جادات طهران المتشابكة، متنقلة بين المسارات معبّرة عن إحباطي حيال الحياة في إيران على غرار أكثرية السائقين الآخرين، من وراء المقود. يقول جواد لي دائماً: «يجب أن تكوني سائقة سيارة أجرة». بيد أن الطريف في الأمر هو أنني كنت أتخشب عند القيادة في الطرق الواسعة (الأوتوسترادات). فعندما نسافر إلى خارج طهران كان جواد يقود السيارة دائماً. فأنا ترعبني السرعة. وإذا ما قدت أسرع من خمسين ميلاً (٧٥ كيلومتراً تقريباً) في الساعة كنت أصاب بالدوار بالمعنى الحرفي للكلمة.

بالعودة إلى الفترة التي كنت أتمرن فيها لتولّي منصب القاضية، وكجزء من تدريبنا في فرع المدّعي العام، قمنا بجولة في مشرحة المدينة. كان ثمة خمس عشرة جثة مشوهة ملقاة على الألواح الفولاذية الباردة في انتظار التشريح. كان أصحاب الجثث يستقلون حافلة سارت بأسرع مما يجب وخرجت عن السيطرة وتحطمت. ومنذ ذلك اليوم أصبح السير السريع على الطرق المفتوحة غير مطروح للنقاش عندي.

عندما وصلنا إلى مكتب الكاتب العدل أنعم الرجل النظر ببساطة في جواد

من خلال زجاجتي نظارتيه اللتين تشبهان زجاجة المشروبات الغازية، كما لو أن زوجي فقد عقله. سأل: «ألديك فكرة عما تفعل أيها الرجل الطيب؟»، مفترضاً ربما أن جواد أمّي على الأغلب، حتى يتعرّض للخداع ويوافق على توقيع عقد كهذا. «لماذا تفعل هذا الأمر؟» أضاف.

لن أنسى ما حييت جواب جواد:

«قراري لا عودة عنه. أريد أن أنقذ حياتي».

حدّقت في جانب وجهه وهو جالس في مقعد الراكب، فيما أقود عائدين وشعرت بأن الثقل الذي لا يحتمل لهذا القانون قد تبخر فجأة. فقد عدنا إلى حيث كنا نريد أن نكون، متساويين. بيد أن جزءاً صغيراً مني ظل شديد الانشغال. فأنا لا أستطيع في نهاية المطاف أن أجذب رجال إيران كافة إلى مكتب الكاتب العدل. أليس كذلك؟

* * *

في العشرين من نيسان/ أبريل من العام ١٩٨٠، أي بعد خمسة أعوام من لقائي زوجي، وضعت ابنتي نيغار. وكنت قد تابعت «عملي» في مكتب البحوث إلى ما قبل الولادة بأيام قليلة، ولم يدر في خلدي قط أن ابنتي ستصبح - وسأقولها كما هي- النور في حياتي الآخذة في الإعتام. وبنزاهة كاملة، لم أكن مولعة كثيراً بالأطفال إلى أن رُزقت طفلتي. بقيت في البيت شهرين أراقب هذا المخلوق الغامض الصغير زهري اللون، أمسح اللعاب بعيداً من فمه، وأمسّد ظهره بالمريلة ذات الزغب ليتمكن من التجشؤ. لقد وقعت في أسرها. لأن عالمها الطفولي وأغاني النوم المهدئة والإعداد الطقسي لزجاجاتها، كانت بمثابة استراحة من البشاعة المسيطرة في الخارج، ومن الإعدامات وحملات التطهير التي لا تخمد.

بعد ولادتها، لم نستطع تحمّل نفقة مربّية. وعندما حل وقت عودتي إلى العمل كنت أترك نيغار في بيت أمي صباحاً وأعود لآخذها في طريق عودتي إلى البيت.

الوزارة التي عدت إليها كانت مشحونة بمزيد من الخوف والترهيب. وبدا أن الثوريين كانوا يمرّرون في كل يوم قانوناً ظالماً واستنسابياً، وما كان في وسع أحد أن يهمس محتجاً خشية وسمه بالعداء للإسلام. وبُعيد قيام زملائي السابقين بتخفيض رتبتي عبر «نقلي» إلى قسم آخر، صدر قانون ينص بصراحة على أن في وسع الرجال فقط أن يشغلوا مناصب القضاة، وأن النساء القاضيات ينبغي أن يوضعن في مواقع إدارية. وفي تغيير بيروقراطي قاس جرى تعييني سكرتيرة (أمينة سر) في المحكمة ذاتها التي كنت أترأسها كقاضية. وبطبيعة الحال فإن كثيرات منا، نحن النساء القاضيات، لم يبقين صامتات. قمنا بالاحتجاج في كل الأمكنة التي استطعنا أن نحتج فيها- في القاعات، وعند أصدقائنا الذين يملكون صلات بالثوريين، وعند الوزير الجديد.

توجهت شخصياً نحو الثوريين الذين كنت قريبة منهم في أيام الشاه الأخيرة. كان هؤلاء منفتحي الأذهان في السابق لم يعاملوني كإيرانية من الدرجة الثانية عندما سعوا للحصول على تأييدي في حملتهم ضد النظام، وعندما كانوا يحتاجون إلى توقيعي على رسائل الاحتجاج التي كانوا يكتبونها، وأثناء الإغارات على مكاتب المسؤولين الملكيين سيئي الحظ. كنت في ذلك الحين زميلة «مبارز»[٣]، وشخصاً مساوياً في الكفاح. ذكّرتهم بكل ذلك ولم أتوقف عن الضغط. وسألت بإصرار: لماذا؟ قولوا لي فقط لماذا لا يمكن لامراة أن تكون قاضية؟ لقد وقفت مع هذه الثورة. إنكم تدينون لي بجواب.

أنتِ على حق طبعاً. لن يجادلك أحد. تحلّي بالصبر وحسب. سنصل إلى حقوقك لاحقاً، هكذا وعدوا. لكن لدينا مشكلات أشد إلحاحاً الآن. ألا ترين؟

كنت أرى. وأكّد الزمن شكوكي في الثوريين. وفي هرمية أولوياتهم، كانت حقوق النساء تقع أبداً في آخر السلّم. ببساطة، لم يحِن الوقت قط

(٣) مناضل بالفارسية. م

للدفاع عن حقوق النساء. وبعد مرور خمسة وعشرين عاماً سيفنّدون حججي ذاتها، بالأجوبة ذاتها: الثورة تحتاج إلى إنقاذ. وإني أتساءل، أيها السادة، متى يحل في رأيكم الوقت المناسب لمعالجة حقوق النساء؟ في الحياة الآخرة؟

لكن في ذلك الوقت، كانت البلاد تتعرّض للخطر، وبدت تلك الحجج الواهية أشد إكراهاً. وكما لو أن القدر لم يكن بخيلاً ما يكفي معنا حتى هاجمنا في الثاني والعشرين من أيلول/سبتمبر من العام ١٩٨٠ صدّام حسين.

الفصل الرابع

إيران تخوض الحرب

ما إن فتحت الباب حتى بادرتني صديقتي مضطربة: «هل سمعت الأخبار؟ هل سمعت؟ أسرعي وأديري التلفاز»، واندفعت بقربي داخلة إلى غرفة المعيشة. لم تكن لدي فكرة عما تتحدث. كانت نيغار تستهلك ساعاتي بعد الظهر وقد توقفتُ عن الاستماع إلى الأخبار التي لا أثق بها. لذا قالت لي: «عند الساعة الثانية من بعد الظهر هاجمت الطائرات العراقية مطار مهراباد وغيره من المواضع في طهران».

وضعت الركوة على نار الفرن لأعدّ الشاي وأسرعت عائدة إلى التلفاز. لم يكن هناك برنامج يُعرض، بل قرع الطبل المشؤوم لنشيد وطني. وبين الحين والآخر كان صوت يقطع النشيد طالباً من المشاهدين البقاء منتبهين لخطاب سيلقيه آية الله الخميني. وهكذا فعلنا. لقد أعلن أن «الشعب الإيراني سيدافع عن وطنه». وهكذا أدركنا أن الحرب قد اندلعت. ثمّ رنّ جرس الهاتف، فإذا أمي تدعوني: «لماذا لا تحضرين إلى هنا؟ لنكن معاً في ليلة كهذه». حزمنا جواد وأنا حقيبة لقضاء الليلة وتوجهنا إلى بيت أهلي حيث بقينا مستيقظين حتى ساعة متأخرة من الليل، وظللنا نراقب التلفاز ونكسر بزور اليقطين، قلقين إلى درجة لا نستطيع معها النوم. وعندما انحنيت من النافذة لاستنشاق بعض الهواء المنعش رأيت الأنوار مضاءة في العديد من منازل الحي.

في ساعة متأخرة من المساء بدا واضحاً أن صدام حسين قد باشر اجتياحاً شاملاً. أرسلت بغداد أولاً الطائرات المقاتلة لمهاجمة القواعد الجوية الإيرانية

في طهران وفي ثماني مدن أخرى. لقد استوحى صدام هذا التكتيك من الحرب العربية - الإسرائيلية في العام ١٩٦٧، بغية تحييد سلاح الجو الإيراني قبل أن يُقلع عن الأرض. لكن الطائرات الإيرانية النفاثة كانت مغطاة في مرائب خاصة محصنة وفي غضون ساعات انزلقت طائرات الـ «أف ٤- فانتوم» على المدارج التي أصابها القصف وأقلعت لمهاجمة الأهداف العراقية.

وفيما كانت الطائرات العراقية تلقي صواريخها على القواعد الجوية الإيرانية، كانت ست فرق من الجيش العراقي تندفع إلى داخل الأراضي الإيرانية على ثلاث جبهات، لتتقدم أكثر من خمس مئة ميل (حوالى ثمان مئة كيلومتر) على التراب الإيراني. عبرت الجبهة الشمالية نقطة قصر شيرين الحدودية في المنطقة الشمالية الغربية الجبلية للبلاد، في حين أن الجبهة الوسطى اندفعت عبر السهل الصحراوي عند سفوح جبال زاغروس. لكن الجيش العراقي احتفظ بأفضل قواته للجنوب، موطن حقول النفط التي كان صدّام يحلم بضمّها لتغذية نظامه البعثي الفاشي. وقد عبرت الفِرق المسلحة نهر أرفاند(١) متوجهة إلى النقاط الاستراتيجية والقواعد العسكرية التي سيؤدي احتلالها السريع إلى رد ضربات التعزيزات الإيرانية.

وبينما كانت البلاد تقع تحت وطأة الهجوم، كانت أكثرية كبار ضباط الجيش وأولئك الذين تدرّبوا على قيادة المقاتلات النفاثة الفخمة التي اشتراها الشاه من الولايات المتحدة يقبعون في السجن. بعد بضعة أيام، ومع توسّل قادة الجيش الإقليميين تقديم دعم جوي لهم، لم يعد من المهم ما إذا كان ضباط الجيش والطيارون ما زالوا موالين في صميمهم للشاه. فدعا الرئيس بني صدر الطيارين إلى الخدمة في الجيش. وبعد قفزات رشيقة نقلتهم من زنازين السجن إلى قمرات القيادة في طائراتهم، تمكنوا بسرعة من إبطاء التقدم العراقي.

في الأسابيع الأولى للحرب توقفت دورة الحياة الطبيعية. راحت المكاتب

---

(١) التسمية الفارسية لشط العرب. م

الحكومية والشركات الخاصة تقفل باكراً حتى يسرع الناس في العودة إلى البيوت للاحتماء. وأقفلت المطاعم وقاعات السينما أبوابها، وبعد حلول الظلام كانت شوارع طهران العريضة تبدو فارغة وصامتة وفاتحة أشداقها. وبما أن أحداً لم يكن يعلم متى ستأتي الطائرات العراقية وتمطر قنابلها على المدينة أصبح الناس حذرين حيال الخروج من بيوتهم. وبدأت الأكثرية منهم تحمل أجهزة راديو صغيرة حتى لا يفوتها التحذير من قرب حصول غارة جوية عندما يتجرأ الناس على الخروج لشراء بقالتهم. وبعد مرور وقت قصير فقدت المحلات السلع الأساسية كالسكر والدقيق والمنظفات، وباشرت الحكومة العمل في نظام للحصص. وامتدت الصفوف ملتوية على طول مربّعات سكنية، وكان مجرّد شراء كيس من الدقيق يستغرق أحياناً نهاراً كاملاً وارتفعت الأسعار إلى السماء وكانت السلع في السوق الحرة باهظة الثمن على نحو غير معقول. وكانت أمي تتصل أحياناً في الصباح لترى ماذا أحتاج للبيت، وكنت ما أزال أذهب إلى العمل ولم يكن لدي وقت، لانشغالي بنيغار والمكتب، للوقوف في الصفوف الطويلة.

أصبح النقص في السلع والصفوف أمراً معتاداً تدريجاً، ونسينا الأيام التي كنا ننزل فيها بسرعة إلى البقّال عند ناصية الشارع لشراء كل ما نحتاج إليه في خمس دقائق. وعادت المطاعم تفتح أبوابها ببطء في المساء ولم تعد الدعوة إلى حفلة عيد ميلاد غير ملائمة. واستأنف الأزواج المتقدمون في السن نزهاتهم بعد الظهر. وتكيّفنا مع حقيقة أننا في حرب، تماماً كما تكيّفنا مع فوضى الثورة وجيشانها. كنت أفكر، كم هي مدهشة ومأساوية، في الوقت عينه، غريزة البقاء البشرية.

حدّت الحرب عملياً من مشاعر الاستياء الشعبية حيال الثورة. وإن لم يخمد بأي حال الاضطهاد السياسي الخانق للفترة الأولى للثورة؛ ما زلنا نستيقظ وصحف الصباح تغص بلوائح طويلة بالذين تم إعدامهم، من المسؤولين الرسميين في النظام القديم وممن باتوا يسمّون المناهضين للثورة، الذين أعدموا

رمياً بالرصاص أو شنقاً. كنت أقلّب الصحفات المليئة أحياناً بصور مرعبة لمشانق وجثث وأرتعد اشمئزازاً حيال المحاكمات الصورية السرّية التي سبقت الإعدامات هذه. بيد أنه لم يكن يوجد أي حيّز ولو في الهوامش للتعبير عن غضبنا. حتى بيننا وبين أنفسنا، في «الدورة»[٢] - أي تلك الجلسات المنتظمة التي كان يعقدها أناس متشابهو الاهتمامات لمناقشة مسائل الأدب والأخبار أو أية مواضيع يمكن أن يثيرها هوانا - كنا نمتنع عن إظهار يأسنا من سفك الدماء.

حاولت أن أكون جذلة على الرغم من أن مزاجنا بعد الثورة انقلب انقلاباً لا رجعة عنه نحو السوداوية. في أحد الأيام حملت صحيفة أثناء «دورتنا» وأخرجت آلة حاسبة، وأعلنت أنه «أخذاً في الاعتبار لعدد الأشخاص الذين يُعدمون في كل شهر، وإذا ضربنا المعدّل بعدد سكان إيران، فإن قانون الاحتمالات ينبئنا أنه في غضون سبعة أعوام وعشرة أشهر وستة وعشرين يوماً سيأتي دورنا». بهذه السرعة كانت لوائح الموت تُنشر. أصبحت هذه مزحة سائرة بيننا، ورحنا نفتتح أكثر اجتماعاتنا بعدٍّ عكسي: «بقي لنا كذا وكذا من الأيام». كم يبدو هذا مخيفاً عندما ننظر إليه نظرة استعادية. لكن ما البديل الذي كان أمامنا؟ لو اعترفنا لأنفسنا أن الثورة تعرّضت للخيانة لكنا خسرنا الحرب بالتأكيد. كنا نعتقد بأن علينا دعم الحكومة لأن ذلك هو الخيار الوحيد المتاح ونحن منخرطون في حرب ضد طاغية متوحش. إن ثورة آية الله الخميني لم توحّد الإيرانيين، لكن الحرب فرضت عليهم، لدواعي الحاجة، توافقاً متضارباً.

***

شنّ صدّام حسين، الجزّار المستبد، ما أطلق عليه تسمية القادسية ضد إيران، ظاهرياً لإعادة ترسيم الحدود والسيطرة على المقاطعة الجنوبية الغنية

---

(٢) بالفارسية في الأصل. م

بالنفط. وعبر استعادته تسمية القادسية، أو الفتح العربي - الإسلامي في القرن السابع لما كان يُسمّى في حينها فارس، سعى صدّام إلى أسطرة حربه التي تهدف إلى احتلال الأرض والسيطرة على النفط وجعلها حرب العرب ضد العجم في الزمن الراهن. ومن جهته، كان آية الله الخميني يحاضر بصراحة عن عزمه نشر ثورته الشيعية في أرجاء المنطقة. وراح أنصاره الثوريون يزعمون أن ما من حدود في الإسلام وأن النزعة الوطنية إذا قورنت بالإيمان ليست إلا موقفاً دنيوياً رخيصاً. ورأوا أرضاً خصبة، من لبنان إلى العراق، لنهضة إسلامية شيعية قادرة على محو الحدود المصطنعة التي رسمها المستعمرون البريطانيون السابقون. ودعا آية الله إلى مواجهة الحرب المفروضة «جنك تحميلي»، وأضفى عليها طابع الصراع الشيعي القديم ضد الاستبداد، مصوّراً صدّام كيزيد الشرير في التاريخ الشيعي الذي قتل الإمام الحسين، المبجّل في المذهب الشيعي، في معركة كربلاء.

في معزل عن الحربين العالميتين، نادرة هي الحروب التي بلغت هذا المستوى من الدموية في القرن العشرين. كانت الحرب العراقية الإيرانية آخر حروب الاستنزاف في ذلك القرن حيث تتواجه دولتان ذاتا سيادة، قبل تقدّم التكنولوجيا العسكرية، وترسلان موجات من الشبان إلى ميادين القتال سيراً على الأقدام. كان صدام يتمتع بميزة الوصول إلى مخازن الغرب العسكرية، فاشترى العناصر الكيميائية من الشركات الأوروبية الغربية وكميّات ضخمة من الأسلحة من الولايات المتحدة. في حين أن إيران الدولة الأكثر كثافة في السكان كان لديها فائض من حياة البشر.

إن تاريخ الثورة الإيرانية وحربها متضافران على نحو لا تنفصم عُراه. لحقت الثانية بالأولى بسرعة إلى الحد الذي صاغت معه الثورة إيديولوجيتها ورمزيتها في غمار الحرب. ولإلهام فِرق الشبان وحضّهم على التوجه إلى الجبهة مع وعد بعبور سريع إلى الجنة ظهرت عبادة الشهادة التي تمجّد التضحية البشرية في سبيل الإسلام. وصار التلفزيون يعرض كل ليلة صوراً للمجندين

الشبان الذين يعتمرون عصبات رأس حمراء وتحيط بأعناقهم مفاتيح الجنة يستقلون الحافلات نحو ميادين القتال العراقية. وكثير منهم كانوا في أعوام المراهقة ويحملون نسخاً صغيرة من القرآن إلى جانب صور الإمام الخميني والإمام علي، الإمام الأول لدى الشيعة. وزرع الجيش العراقي الألغام على امتداد مساحات واسعة من حدوده، واستخدمت القيادة الإيرانية المجندين الشبان هؤلاء ككاسحات ألغام بشرية، فكانت ترسلهم عبر السهول موجات تلو موجات لتطهير ميدان القتال أمام الجنود في المؤخرة.

أصبح الدفاع عن الوطن «دفاعاً مقدّساً». وحملت العمليات في ميادين القتال أسماء من نوع «الله أكبر» و«الإمام المهدي»؛ وسمّيت القواعد «كربلاء» و«القدس». وأعلمنا الحرس الثوري أن الغرب رفض بيعه حتى الأسلاك الشائكة والبنادق الهجومية. وقال آية الله الخميني إن الله يقود الحرب.

نحّينا، نحن الذين ما زالت جروحنا طرية بسبب ثورة عنيفة، أحزاننا وشعورنا بالتعرض للخيانة. وأضرمت تلك الصور التي يعرضها التلفزيون كل ليلة مشاعرنا القومية. وكان قلبي ينفطر على شباننا القاصدين حقول صدّام القاتلة حاملين أسلحتهم الرثة التي لا تقارن بما لدى الديكتاتور المسلّح من آخر ما تقدمه متاجر السلاح الغربية. وقد اعتقدنا جميعنا أن الجنود الشبان كانوا يقاتلون قتالاً ممتازاً ويدافعون عنا بألمعية.

كيف يمكن البدء بوصف الانصهار التدريجي للشهادة في حياتنا؟ كيف يمكن نقل العملية البطيئة التي جعلت الموت والعزاء والحزن تهيمن على كل شيء - المجال العام والطقوس وملخّصات السير الشخصية والصحف والتلفزة؟ في ذلك الزمن، لم يبد غريباً أو مفرطاً شعور الحماسة الاحتفالية بالشهادة وبجمالية الموت.

* * *

تابعت عملي في الوزارة، لكنني عُيّنت في منصب جديد كـ«خبيرة» في

مكتب «حراسة القاصرين والمرضى العقليين» الذي كان جزءاً من مكتب المدعي العام في طهران. كنا نعيّن الحراس القانونيين للأشخاص العاجزين عقلياً وللأطفال الذين لا آباء أو أجداد لهم. وكانت الأمهات يأتين إلى مكتبي يومياً للسؤال عن الحضانة والحراسة القانونية لأطفالهن. ومع مطلع النهار كان المكتب يهتز بصراخ الأطفال وزعيقهم، يتبعه بحلول الظهيرة صمت مطبق.

كان مكتبي الجديد يقع تماماً في مقابل باحة في الوزارة تتجمع فيها الجنازات الجماعية لقتلى الحرب. لم يذهب أيّ من أقاربي إلى الجبهة، لكنني اختبرت المئات من الجنازات المؤلمة بسبب موقع مكتبي فقط. وما زلت أذكر الجنازة الأولى بجلاء.

بدأت الجنازة مع الترتيل الوجداني لصلاة الفجر الذي تبثه مكبّرات الصوت. وحُمل حوالى عشرين نعشاً تلفّها الأعلام الإيرانية إلى الباحة حيث جُمعت من قبل الأقارب المباشرين. كان الجنود يافعين إلى الحد الذي كان معه العديد من أجدادهم المتقدمين في السن حاضرين، يقاربون بين أرجلهم للبقاء واقفين. ثم أطلقت مكبّرات الصوت نشيد الجنازة، وبدأ التشييع. خبّأت وجهي وأدرته صوب الحائط حتى تنسكب دموعي من دون أن تراني سكرتيرتي. فلم أردها أن تعتقد أنني ضعيفة إلى درجة البكاء أمام جنازة أناس غرباء. وصار هذا المشهد الرهيب يتكرر يومياً تقريباً. في نهاية الأمر، لم أعد أستطيع التحمل وأغلقت النوافذ، وبذلك يتحطم ذلك النحيب النفّاذ على الزجاج. كنت أتصبّب عرقاً في الصيف مفضلة تحمّل الحرارة جراء غطاء الرأس الذي أضعه والزي الإسلامي على سماع العويل منبعثاً من الأسفل.

* * *

في الثلاثين من نيسان/ أبريل من العام ١٩٨٢، وقبل ساعات قليلة من بزوغ الفجر في نهاية ليلة كالحة بلون الحبر وشديدة الحرارة، عبر حوالى الأربعين ألف شاب مسلحين بالإيمان العميق وببنادق كلاشينكوف صدئة نهر أرفاند (شط العرب) وانتشروا في حقول الألغام. وبحلول الليل كانت أشجار

النخيل مقطوعة الرؤوس والتراب المسودّ والمحروق تعطي المشهد بُعداً يجعله وكأنه مأخوذ من القمر. لقد كان الاستيلاء على خورمشهر، وهي مرفأ استراتيجي يقع قرب الجزء الجنوبي من الممر المائي الفاصل بين العراق وإيران، كما أنها المدينة الكبرى الوحيدة التي سقطت بيد صدّام، دفعةً قوية للدفاع الإيراني. في تلك الليلة همس القادة الإيرانيون: «علي بن أبي طالب» (كلمة السر لعملية بيت المقدس)، وقادوا رجالهم إلى قلب فيلقين عراقيين كاملي التسليح، وحملوا عناء كسر ظهريهما.

في المرحلتين الأولى والثانية من العملية اندفعت أمواج من الجنود الإيرانيين نحو محيط المدينة في ظل غارات جوية كثيفة، وحرّروا عدداً من الكيلومترات، وفي الاندفاعة الثالثة (وكانت كلمة السر فيها «محمّد رسول الله») بنوا جسراً عبر النهر وطوقوا الطريق الرئيس حول المدينة من أجل الهجوم النهائي. وفي الرابع والعشرين من أيار/ مايو ساروا منتصرين في المدينة، وأسروا اثني عشر ألف جندي عراقي. لقد سُفك من الدم في خورمشهر ما دفع آية الله الخميني إلى أن يُطلق عليها اسم خونين شهر، أي مدينة الدم. وعندما أعلن الجنود النصر قال إن «الله حرّر خورمشهر».

كنا نتابع هذه الأحداث بأنفاس مقطوعة، وغمرتنا البهجة. لقد تحرّرت خورمشهر! يمكن للحرب أخيراً أن تضع أوزارها. كنّا جميعاً متفقين على أن إيران يجب أن تواصل القتال، إلى أن استعاد الحرس الثوري المدينة، وحتى تلك الفترة كان قد قتل من جنودنا الشبان مئة ألف على الأقل. لكن معركة خورمشهر كانت نقطة تحول سياسية وعسكرية؛ لقد استعدنا أراضينا وقوات صدام الأفضل تسليحاً رأت أنها لا يمكن أن تقارن بقيادة حرب تمتلك الإرداة على متابعة القتال بواسطة الموجات البشرية. وقد افترضنا، بارتياح عظيم، أن الحرب ستنتهي.

وبالفعل، فقد عرض صدّام حسين بنفسه الهدنة في الشهر التالي. لكن المتشددين لم يكونوا بعد قد صلّبوا عود الثورة، وكانت طهران ساحة قتال بين

منظمة مجاهدي خلق ونظام آية الله الخميني الوليد. وقد ظهرت منظمة مجاهدي خلق في الستينيات، مستوحية أفكارها من حركات حرب العصابات في كوبا وأميركا الجنوبية. ورأى قادتها في إيران نظاماً شبه إقطاعي مماثلاً لذاك القائم في تلك البلدان، وأن هذا النظام بات ناضجاً للثورة الطبقية، لكنهم أحسوا بالقلق من أن القدرات الكامنة الضخمة القابلة للتجنيد لدى الشبان الإيرانيين قد تضيع إذا وجّهوا نضالهم وفق الخطوط الشيوعية العلمانية والاشتراكية. وكانت الحركات السياسية الناشئة في ذلك الحين قد انعزلت بعضها عن بعض لاعتبارات نظرية وبسبب فروق غير مهمة، بحسب ما كانت ترى منظمة مجاهدي خلق. كانوا يعتقدون أن انحياز الماوي ضد اللينيني، أو الماركسي ضد التروتسكي، في السياق الإيراني كان ببساطة ترفاً فكرياً يشغل الشبان بمظاهر استيائهم بدلاً من التركيز على هدفهم وهو الإطاحة بملكية آل بهلوي من خلال الكفاح المسلح.

لمواجهة هذا التفتت ابتكر قادة منظمة مجاهدي خلق قراءة اشتراكية نضالية للإسلام وجدت صدى خصوصاً في أوساط الطبقة المتوسطة المتعلمة، التي كانت قد نالت ما يكفي من الثقافة لتؤوّل الدين تأويلاً معتدلاً لكنها كانت منغرسة عميقاً في التقليد الإيراني بما يكفي لكي تستجيب للقوة الأساسية في دعواها. وفي أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات ارتفعت جاذبية منظمة مجاهدي خلق بفضل عمل المثقف وعالم الاجتماع الشهير في ذلك الوقت علي شريعتي الذي تلقّى تعليمه في السوربون. كان ذلك زمناً يمكن فيه لعلماء الاجتماع أن يكونوا أبطالاً ومناضلين في الوقت عينه، وشريعتي الذي أحبه الملايين كان الاثنين معاً. وعلى الرغم من أنه ليس معروفاً جداً في الغرب، فمن الصعب المبالغة في شأن دوره في عملية التوجه البطيء نحو السياسات الجذرية للشبان الإيرانيين في تلك الحقبة. لقد أعاد شريعتي صوغ السردية المسيطرة على المذهب الشيعي - صراع الشهيد في معركته ضد الظلم - للتركيز على المقاومة بدلاً من الهزيمة. وأثارت محاضراته ببراعة الاستياء

الإيراني من التغريب الشبيه بالسقوط الحر للشاه، وجعل من شخصيات القرن السابع كالإمام علي وفاطمة ابنة النبي محمد، أبطالاً معاصرين.

وعد شريعتي، الطوباوي الأبدي، الإيرانيين أن الإسلام سيحل مشكلات يومهم الراهن إذا ما عادوا إلى مواءمة أنفسهم مع التقليد الإيراني «الحقيقي» (بدلاً من إرثه الخامل)، وإذا ما «عادوا هم أنفسهم»، بحسب عبارته، فإن المخرج من مشكلاتهم المعاصرة سيكشف عن ذاته. وقد نجح هذا الإسلامي الطوباوي في جعل المجتمع الإيراني أرضاً خصبة لنهوض منظمة مجاهدي خلق، ومن العسير تقديم وصف دقيق للأثر الاجتماعي لمنظمة مجاهدي خلق من دون الإشارة إلى شريعتي الذي ظل اسمه على كل شفة ولسان طوال أعوام، عندما كان قلة يعرفون آية الله الخميني أو يفكرون فيه. إن شريعتي هو من ألهم الجماهير الإيرانية دعم الإسلام الملتزم بدل النزعات اليسارية العلمانية، وجعل علم منظمة مجاهدي خلق يرفرف إلى جانب أعلام غيرها من المجموعات في مقدّمة كل المسيرات الكبرى. وعلى الرغم من أن الكثير من تاريخ الثورة ما زال موضع خلاف فإن البعض يعتقد أن منظمة مجاهدي خلق هي من دفع نحو انتصار الثورة.

لكن عندما استحوذ آية الله الخميني على السلطة في العام ١٩٧٩، أبقت حكومته الثورية منظمة مجاهدي خلق في منأى عن السلطة، وفي العام ١٩٨١ أعادت المجموعة إطلاق كفاحها المسلح ضد القيادة الجديدة. وقد أُخمدت الانتفاضات في طهران وفي أنحاء أخرى من البلاد بعنف شديد، وتحركت الحكومة للقضاء نهائياً على معارضة مجاهدي خلق، ما جعل قادتها يتجهون إلى العمل السرّي وإلى المنفى، أو أن يتعرّض أيّ مشتبه فيه بالتعاطف مع المنظمة إلى الاعتقال. ومع أن حلفاء مجاهدي خلق ومؤيّديهم ما لبثوا أن تساقطوا في الأعوام التالية فقد تمكنت المنظمة لفترة من الوقت من القيام باغتيالات ضد المسؤولين الرسميين ومن تفجير المباني الحكومية في طهران بوتيرة شبه منتظمة.

وضعت الهجمات طهران في حالة من الفوضى السياسية والحكومية المعلّقة. والأكثر تشدداً في حاشية آية الله أقنعوه بأن علينا الاندفاع قُدماً نحو بغداد لخلع صدام. وحاججوا بأنه إذا استطاعت إيران فتح بلاد ما بين النهرين القديمة فإنها ستصبح قوة إقليمية يحسب لها حساب. من الواضح أن هذا التفكير كان يقوم على الوهم. فلم تكن إيران قادرة بحال من الأحوال على إنجاز هذا الأمر، ولم يكن بوسع العالم - أو على الأقل من يساند صدّام من الغربيين - السماح به. لكننا اندفعنا صوب بلاد ما بين النهرين، وبدلاً من أن تكون خورمشهر المعركة التي تضع حداً لمعاناتنا، صارت إلهة الوحي في مغامرة الجمهورية الإسلامية الرومنسية مع حربها.

* * *

بالعودة إلى طهران، رفعتُ من مستوى يقظتي ودققت في الكتب الموجودة في مكتبتنا المنزلية وأبعدت العناوين التي يمكن أن تثير اعتراضاً سياسياً، وكوّمتها في صندوق من الورق المقوّى وجررته إلى الباحة الخلفية. كانت نيغار تراقبني من وراء زجاج الباب المنزلق وهي لا تدرك ماذا أفعل. ثم أقمت هرماً صغيراً في جوار الباحة وأضرمت النار فيه. كومة من ماركس. كومة من لينين. وإني لأتساءل أحياناً ما إذا كانت نيغار ستحتفظ بذكريات عن تلك الأوقات الغريبة، عندما كان البالغون يستخدمون بانتظام كلمات مثل «إعدام» و«اعتقال» أثناء الحديث في المطبخ وعندما ربضت أمها في الباحة الخلفية لتضرم النار في الكتب. بدأت أحتفظ بقُصاصات من الصحف لأقدّمها لها لاحقاً، عندما تصبح كبيرة بما يكفي للمطالبة بتفسيرات، وتكون ذاكرتي، على ما أرجو، قد تلاشت. ارتفع حلزون دوّار صغير من الدخان من كل كومة من الكتب المحترقة، كما لو كنت أؤدي طقساً خفياً. وعندما انهارت المجموعة الأخيرة وتحوّلت إلى كدسة صغيرة من الرماد غطى السخام الشجيرات وسوسن الحديقة، وتطايرت الصفحات المحترقة في المحيط كأوراق الأشجار.

في وقت مبكر من ذلك الأسبوع، بدأت الصحف تعلن عن إعدامات رمياً

بالرصاص لأولئك المشتبه في تعاطفهم مع المجموعات اليسارية التي وسِمت بمناهضة الثورة. ومنذ رحيل الشاه وعودة آية الله الخميني كانت مختلف الجماعات السياسية تنقسم وتنتشر ثم تبدأ بالقتال بعضها ضد بعض حول توجّه الثورة؛ وباشرت الحلقة المحيطة بآية الله، من أجل تثبيت سيطرتها، مطاردة أعضاء المجموعات التي يسعى المحيطون بآية الله إلى دفعها نحو الهامش برفقة من يشتبه في التعاطف معهم. وكان كل تيار ينشر مجلاته وكتبه، ويصوغ تعريفه الخاص للثورة، ويشتري العديد من الإيرانيين هذه المنشورات ويكدّسونها في مكتبات صغيرة من النصوص السياسية التي تفصّل الميول المختلفة للثورة. لكن عندما بدأت حملات التطهير كان القبض على المرء وفي حوزته أدبيات المجموعة المستهدفة في ذلك الحين يُعتبر جريمة وعملاً مناهضاً للنظام. ويمكن أن يتعرّض أصحاب الكتب وحتى عائلات أصحاب الكتب إلى الحكم بالسجن لسنوات.

كان وقتاً متوتّراً، وشعر الجميع بالضيق والكرب. وقد دعا جواد شقيقه فؤاد، وهو الأصغر في العائلة، للمجيء والبقاء معنا لفترة من الزمن. كان فؤاد في السابعة عشرة من عمره مسحوراً بمثالية الثورة، وعلى غرار كثرٍ من شبان ذلك الزمان كان منجذباً إلى مجاهدي خلق، ومتأثراً بإصرارهم على بلوغ الرؤيا الثورية للحرية والاستقلال، وبدأ ببيع كتيّبات المجموعة في مدرسته. وكان الشبان في تلك الأيام ينجذبون بسهولة إلى الإيديولوجيا؛ وكانت الشتيمة الأبشع في ذلك الوقت «يا لك من ليبرالي». إذا كنت ليبرالياً فهذا يعني أنك محترس من الإيديولوجيا، وأنك إما كسول ولا يمكن أن تزعج نفسك بالإيمان بمبدأ أو جبان وترفض دعم ما تؤمن به.

تواجه النظام ومنظمة مجاهدي خلق يومياً في تلك الفترة، وكان يجري العديد من المداهمات لقيادة المجموعة، وقد توسعت في نهاية المطاف لتشمل صغار المؤيدين مثل فؤاد. وجرى في الأسبوع السابق اعتقال عدد من أصدقائه. وخشية الملاحقة وتعريض أهله الكبار في السن للخطر صار يمضي

الليل في بيتنا. كان ذلك في شهر رمضان (التي تلفظ «رمازان» بالفارسية) شهر الصوم المقدس، وكان فؤاد يظهر في الحادية عشرة من كل ليلة ويغفو في غرفتنا الاحتياطية. في واحدة من أولى الليالي التي قضاها عندنا، هززته برفق لإيقاظه قبل الفجر. كنت قد أعددت له رغيفاً من خبز اللواش(٣) والتمر، مجرّد وجبة بسيطة قبل بزوغ الشمس يتناولها الصائمون عادة حتى يتمكنوا من الصمود خلال النهار إلى موعد الإفطار، أي نهاية يوم الصوم. فتح فؤاد عينيه وأغمضهما ونظر من خلال هُدبيه الطويلين وهزّ رأسه. قلت: «بضع لقمات فقط، ستحتاج إلى الطاقة». أجاب بهمسة ضعيفة «لا. أريد أن أشعر بالجوع كما يشعر به الفقراء». أطفأت النور وسحبت الغطاء فوق كتفيه النحيلتين المراهقتين، وتركته يعود إلى النوم.

بعد ظهر أحد الأيام، وثب فؤاد إلى داخل البيت وسأل ما إذا كان في وسعه استعارة آلتي الكاتبة القديمة. لم يقل لماذا يحتاج إليها، لكنني لم أفكر في سؤاله، ففي نهاية المطاف ما هي إلا آلة كاتبة. وعندما عاد جواد إلى البيت في تلك الليلة ولاحظ غياب الآلة الكاتبة، غضب غضباً شديداً. صاح فيّ قائلاً: «ما الذي كنت تفكرين فيه؟ تعلمين أننا لن نستعيدها أبداً». انتاب الخوف جواد أسرع مما انتابني. ولم يقل ذلك في واقع الأمر - كنا في تلك الأيام ما نزال نحاول إخفاء رعبنا- لكنه كان يشعر بالقلق حيال المكان الذي ستنتهي فيه هذه الآلة الكاتبة وما إذا كان في الوسع اقتفاء أثرها وصولاً إلينا. قلت: «طيب، هو أخوك. ولم أستطع رفض طلبه. ثم إنني لا أستخدمها».

كان جواد على حق بطبيعة الحال. لم تعد الآلة الكاتبة قط. لكن جواداً وأنا وجدنا مزيداً مما يمكن الشجار حوله. كان فؤاد المشتت بسبب رؤاه الطوباوية لثورة إسلامية أنقى وأكثر عدلاً غالباً ما يترك أغراضاً في الأرجاء. وذات يوم كنت أوضّب حقيبتي استعداداً للذهاب إلى العمل فلاحظت كتاباً

---

(٣) صنف الخبز الأكثر انتشاراً في إيران وعدد من الدول القريبة منها. م

لمنظمة مجاهدي خلق عن الإمام الحسين في مكتبتنا. بدأت بتقليب صفحاته، وكان مثيراً للاهتمام بالنسبة إلى أدبيات منظمة ستصبح لاحقاً أشبه بطائفة. في تلك الليلة كنا نناقش الكتاب، فؤاد وأنا، في المطبخ عندما جاء جواد إلى البيت. وعندما التقط الكتاب ولاحظ أنه من كتب منظمة مجاهدي خلق، سأل بحدة: «هل تعتقد أيها العزيز فؤاد أن ترك هذا على رفّ الكتب تصرّف مسؤول؟ لماذا تركته هناك؟».

قاطعته قائلة: «لقد أحرقتُ جميع الكتب السياسية الأخرى. واحد فقط ليس بهذه الأهمية». شعرت بضرورة حماية فؤاد، هذا الشاب الذي يُسمّي أصدقاءه «أخوة» ولم يتعرض بعد للضربة القاضية ولم يملأه اليأس من المسار الذي اتخذته الثورة ليهجرها، ولينكفئ إلى الداخل كما فعلنا.

رفع فؤاد يده كأنه يريد إسكاتي ومنعي من الدفاع عنه: «أرجوكِ. جواد على حق، ما كان ينبغي أن نأتي بهذا الكتاب إلى البيت. لكن في غضون شهرين سيروّج التلفزيون هذا الكتاب. ستريان» قال واعداً بنظرة مشعّة ومصمّمة.

على غرار جميع المجموعات السياسية، كانت منظمة مجاهدي خلق في صراعها من أجل جذب المتعاطفين إليها تؤكد لأنصارها أن النظام سيسقط سريعاً.

ذهب فؤاد في اليوم التالي إلى الجامعة كالمعتاد. كانت معدته الخاوية تئن ومر بجانب أكشاك بائعي التوابل وبجانب أكياس الخيش المملوءة إلى الحافة بحبوب العدس الصفراء، وبالليمون الحامض المجفف المغبّر وباللوز الفضّي. ولعله وسط صفير الحافلات وضجيج ورش البناء لم يسمع وقعَ الخطوات القريبة جداً منه. «فؤاد!» التفت إلى الخلف عندما سمع أحداً يناديه باسمه، وقبل أن يدرك ما الذي يجري كانت يداه قد قُيّدتا بقسوة وراء ظهره ودفع دفعاً إلى سيارة كانت في الانتظار.

طوال ثلاث ليال لم نسمع شيئاً. حاولت أن أقتنع بأنه مختبئ مع أصدقائه

من منظمة مجاهدي خلق، قابعاً في مكان ما يرتشف الشاي ويتخيل كيفية إنقاذ الثورة. في اليوم الرابع، أُبلغت أمه بأنه مُعتقل. وبدأت تتصل مذعورة بكل من تستطيع التفكير فيه، وتدبّرت في نهاية المطاف أمر الاتصال برئيس الوزراء الذي قال لها: «أستطيع التوسط فقط إذا نبذ ابنك آراءه وتعاون مع النظام».

حاوِلوا تفسير ذلك لصبيّ مراهق اكتسحته نشوة الثورة وهو على قناعة ببراءته. وكان بريئاً. ما الذي فعله؟ حُكم على فؤاد بالسجن عشرين عاماً لجريمة بيع الصحف، وهو في السابعة عشرة من عمره. وأثناء وجوده في السجن رفض التعاون مع سلطات السجن. وفي عالم السجن وسياقه كانت كلمة «تعاون» غير المؤذية تعني عادة تسمية أصدقائه (الذين يمكن أن يُجرّوا بعد ذلك إلى استجواب مشابه، لتسمية أصدقائهم)، وتوسُّل العفو وإنكار كل الارتباطات السياسية والاستسلام لمشيئة الله. في السجن لا يُطلب التعاون بل يُحث عليه. وذات مرة ضربوه بعنف حتى كسروا فكه. وبعد ذلك دعوا أمه وطالبوها بالمال من أجل معالجة الكسر. وفي مرة ثانية، كسروا ذراعه. ومجدّداً جاءت الدعوة: ذراع فؤاد المكسورة تتدلى إلى جانبه. إذا رغبتم في معالجتها أرسلوا المال.

قُتل والد جواد في حادث سيارة في وقت لاحق من ذلك العام، وطلبت العائلة الإذن لفؤاد بالخروج من السجن للمشاركة في الجنازة. وقد وقع عمه الأوراق في السجن متعهداً بعودته. وجاء فؤاد لقضاء ليلة في إجازة مختلسة. وعندما وصل إلى البيت برفقة عمه لم أعرفه للوهلة الأولى. هل يمكن أن يكون هذا فؤاد؟ هذا الصبي الشاحب المتقلص ذو النظرة الحائرة. ما زالت إلى يومنا هذا أشعر بالأسف على أولى الكلمات التي خرجت من فمي عندما رأيته. قلت: «كن رجلاً يا فؤاد اليوم». قصدت أن عليه أن يكون قوياً من أجل أمه التي تكاد تصاب بالهستيريا وأن يحجر على حزنه الشخصي على أبيه. لكنه أخطأ في فهمي. لقد ظن أنني أنتقده لعدم إبدائه الصلابة الكافية في السجن، أثناء الاستجواب.

قال بصوت مرتفع أدار الرؤوس إليه: «أنا رجل حقيقي وقد أثبت ذلك». وبدأ الأقارب يلاحظون وصوله وراحوا يحيطون به ببطء. وبعد نصف ساعة قال إنه يريد الفرار من السجن. وراحت جميع الرؤوس حوله تهتز كما لو أنها تفعل ذلك بالتتابع. لا! يا للفكرة الرهيبة... ماذا عن عمك، الذي كفل عودتك... سيجري القبض عليك، وماذا بعد ذلك! وابل من الآراء المعارضة.

أومأت إلى جواد عبر الغرفة وهمست له على عجل. «لِمَ لا؟ لماذا لا تتركون الفتى يهرب؟».

قال جواد: «إذا هرب فإنه سيتوجه على الأغلب إلى منظمة مجاهدي خلق. وعندها سيقتل بالتأكيد. أعرف، إنني أخشى عليه من العودة إلى السجن كذلك. لكن على الأقل هو على قيد الحياة هناك». عندما رأى فؤاد أن الأقارب لن يتزحزحوا عن رفضهم، التزم الصمت ورفض أن ينطق بكلمة إضافية لبقية الليلة. بعد العشاء عندما احتاج إلى التوجه نحو بيت الخلاء، تبعه واحد من الأقارب وأمره بأن يُبقي الباب غير موصد. كانوا يخشون من أن يهرب من النافذة. في نهاية تلك الليلة صعد إلى السيارة برفقة عمه محدّقاً إلى الأمام وترك نفسه يُقاد عائداً إلى السجن.

الفصل الخامس

حرب المدن

فرض النظام منذ عامين كاملين غطاء الرأس الإلزامي على النساء، لكنني ما زلت أنساه. في الثواني الأخيرة قبل أن أخرج مسرعة من الباب، أقوم عادة بتفقد سريع لغرفة المعيشة يراودني شعور بأنني قد نسيت شيئاً. المفاتيح؟ لائحة التسوّق؟ مرّة سرت إلى آخر الحي ولاحظت أن كل من في الشارع - من جارنا العجوز الذي يتنزه متكئاً على عكازه إلى الأطفال اللاعبين عند مداخل البيوت- يحدّقون فيّ. لم أستطع تخيل السبب، خصوصاً أن خطوتي كانت رشيقة وأشعر بارتياح أكبر من المعتاد. أخيراً صرخ أحد الجيران: «خانوم عبادي. نسيت حجابك». ركضت كل الطريق عائدة إلى المنزل، ووضعت واحداً من الأغطية القطنية على رأسي.

قلت لصديقة لي عبر الهاتف في تلك الليلة: «فكري في الأمر، لو رآني شرطي لكنت قد اعتقلت».

ردت قائلة: «هذا لا يُذكر. في الأسبوع الماضي كنت أقود السيارة وقد نسيت وضع غطاء الرأس. ولمّا وصلت إلى حيث السير الكثيف، وتوقفت عند تقاطع، رأيت أن جميع الذين يعبرون الشارع يلقون عليّ نظرات متفاجئة. ما الذي أستطيع فعله؟ لقد كنت في السيارة فعلاً. لذا خلعت تنورتي وسحبتها لتغطي شعري».

أخيراً، علّقت حجاباً في مدخل البيت لأظل متذكرة.

في تلك الأيام، كما في الأيام الراهنة، كان قسم كبير من النساء الإيرانيات يفضّل الخروج بلا غطاء الشعر إذا ما أُعطي حرية الاختيار. لكنّ أعوام الحرب فرضت علينا التحمل وليس التفكير المتأني أو القيام برد فعل. ولم يتقدم بعد غضب النساء حيال الحجاب المفروض عليهن (وهو رمز انتقاص أوسع لحقوقهن) إلى مقدمة وعيهن. وعلى نحو مشابه فإن الاستياء السياسي من النظام الجديد - رقابته وتصفيته الوحشية لخصومه وقراره المتشدد في تمديد الحرب - ظل خوفاً شخصياً وخاصاً بدل أن يكون مزاجاً عاماً مهيمناً.

في العام ١٩٨٣، ولدت ابنتنا الثانية نرجس. اتفقنا جواد وأنا أنه في حال كان المولودُ صبياً يختار جواد الاسم، أما إذا كان بنتاً فسأختار أنا اسمها. وسمّيتها نرجس نسبة إلى زهرة تتفتح في الشتاء. وعندما ذهبت لإتمام الولادة، اصطحبت أمي نيغار، التي كان عمرها ثلاثة أعوام، إلى بيتها، بعد أن وعدتها بأننا سنعود مع رفيقة لعب لها. كنت قد راجعت كتباً عدة في علم نفس الطفل حول السبيل الأفضل لتقديم المولود الجديد إلى طفل صغير. اشتريت لنيغار ثياباً جديدة وألعاباً وشكولاتة من الأنواع التي تفضّلها، كهدايا من أختها الصغيرة. تأكدت من أن نرجس قد استلقت في مهدها، في اللحظة التي أعادت فيها المربية نيغار من بيت أمي. ووقف جواد قرب الباب، منتظراً اللحظة التي تندفع فيها نيغار إلى ما بين ذراعي. فلم تكن تحتمل الابتعاد عني، وكانت أطول فترة انفصال هي ليومين.

فتحتُ الباب وأنا أبتسم ابتسامة مشعة. وغيّر جواد وضعيته حاملاً الكاميرا. ثم مرت نيغار مسرعة بالقرب مني، من دون أن تلقي عليّ ولو نظرة. كتفت ذراعيها الصغيرتين على صدرها، ومشت نحو غرفة المعيشة وجلست صامتة على الكنبة. لم أكن مستعدة للكيفية التي سيؤثر بها فيّ غضب طفلة تبلغ من العمر ثلاثة أعوام. وقد أضناني الشعور بالذنب لأنني جعلتها تعاني.

منافستهما الأخوية وطرائف طفولتهما حركتا حياتي في الوقت الذي انتهى فيه عملي المثير للإحباط وبدأ الإحباط الناجم عن عدم العمل. بعد عام من

ولادة نرجس أصبحت مستحقة للإحالة على التقاعد من الوزارة. وذلك أن الموظفين في القطاع العام يمكنهم التقاعد بعد خمسة عشر عاماً من الخدمة، مع الحصول على تعويض تقاعد. بعد يوم واحد بالضبط من مرور خمسة عشر عاماً على عملي قدّمت طلب إحالتي على التقاعد، الذي قبلته الوزارة بسرعة طبعاً، بل بسعادة للتخلص من هذا الإزعاج الكبير الذي تشكله الموظفة الأنثى.

شكّل العام الذي تقاعدت فيه نقطة تحوّل بالنسبة إليّ، وبالنسبة إلى صديقاتي من الجامعة اللواتي بدأن حياتهن المهنية في الوقت ذاته تقريباً. لقد مرّ ما يكفي من الوقت ليصير واضحاً أن النظام لن يتغير في أي طريقة ذات مغزى. لقد ثبتت إيديولوجيته، وكذلك ثبتت درجة تحمّل النظام للنساء في الحكومة. كان ذلك زمناً، تضطر فيه إلى وضع طموحاتك وحساسياتك ومنظومة قيمك الأخلاقية في الميزان، وتقرر فيه كيفية تعاملك مع النظام الجديد. لقد أصبح امتعاضي عميقاً جداً وشخصيتي متمردة أكثر مما يسمح لي بفعل أي شيء باستثناء التعبير عن ازدرائي في كل مناسبة. وكان التقاعد هو الخيار الوحيد الذي له معنى. ولم يحدث لي أن فكرت يوماً في التبعات المترتبة على حياتي المهنية، نظراً إلى أنني كنت مقتنعة أن النظام قد قتل حياتنا المهنية. ولم أفكر قط في أن النظام الثوري قد يلين ذات يوم، وأنه ربما تصبح لي حياة مهنية في مجال القضاء إذا هدأت نفسي في الحاضر. صديقتي مريم، وهي قاضية زميلة وشغوفة منذ أيام الجامعة، كانت أكثر اهتماماً بالحسابات. واعتادت العمل الوظيفي كما لو كان تخفيض الرتبة من قاضية إلى موظفة هو أقصى درجات التشريف. وقد أصيبت صداقتنا بانتكاسة، تشاجرنا شجاراً لاذعاً في آخر مرة التقينا فيها بعد ظهر أحد الأيام لشرب الشاي عندما قلت إنني سأتجه إلى التقاعد. وقد خاب أملي بشدة بسبب موقفها الجديد المفرط في العاطفية و سلوكها المرتدّ - في رأيي - ما أدّى في النهاية إلى التشويش على أفكاري.

سألتها: «لماذا أصبحت قاضية في المقام الأول يا مريم؟ لا أصدق أنك تريدين التخلي عن مبادئك بهذا الشكل».

أجابت بالنبرة ذاتها: «أنت لا تعرفين هذا النظام. ظلي ثرثري إذا أردت، وراقبي كيف سيصلون إليك. سيتحرّشون بك وستفقدين عملك».

«هل تقصدين درّة الأعمال هذه؟ هذه الوظيفة المكتبية؟ هل تحبين هذا العمل إلى الحد الذي جعلك تنسين من أنت وتتخلين عن أصدقائك القدامى؟».

حدّقت فيّ مصدومة. كان من المحرَّمات تقريباً في الثقافة الإيرانية، حتى بين الأصدقاء، تناول الواقع بهذه الحدّة.

تابعت كلامي قائلة الكثير من الأشياء التي دفعني الغضب إلى قولها ما أحال صداقتنا إلى أنقاض، لكنها كانت في جميع الأحوال قد توقفت في تلك المرحلة عن اللقاء بي علناً (نظراً إلى أن رؤيتها مع شخص ناقد للنظام مثلي يمكن أن تلطّخ سمعتها)، لذا لم أشعر أن لديّ الكثير مما أخسره. أخبرتها أنها تريد السلطة من أجل السلطة وأنها على استعداد لدوس أي شيء - أصدقائها وقيَمها- للوصول إلى هناك. قلت لها إنها حتى لو رُفّعت ذات يوم إلى منصب سامٍ لكان ذلك انتصاراً فارغاً، والتقدم في مراتب نظام مكروه شعبياً أمر ضار أكثرٍ من البقاء نكرة في الهامش. أنهى هدا الحوار كل شيء تقريباً بين مريم وبيني. وفي الأعوام التالية كنا نقصد دورياً المؤتمرات ذاتها، وتكون هي عادة المرأة المبتهجة مرتدية التشادور التي تكثر من الكلام في شرح كيف أعتق القانون الإسلامي النساء الإيرانيات. ولم نكن نتبادل التحية عندما تمرّ إحدانا بالقرب من الأخرى في القاعات.

صديقتنا القديمة سارة، التي انصرفت من بيننا إلى الاهتمامات الأكاديمية والتي تزوجت أستاذ القانون، لم تتعمد انتقاد القوانين الجديدة مثلما فعلت أنا، لكنها أيضاً لم تنتصر لها مثلما فعلت مريم. لقد وظفتها وزارة الخارجية للعمل على قانون التجارة الدولي قبل وقت قصير من الثورة، ولأنها كانت باحثة

متواضعة أبقتها الوزارة في عملها لسنوات طويلة قبل أن تتلقى ترقية تأخرت كثيراً. في تلك الأثناء، تدبّرت سارة طريقة لعدم بيع ما تعتقد به. لم تدّعِ قط أنها تدعم النظام الجديد، وعموماً، أبقت آراءها حول ممارسات النظام، خارج الدائرة الضيقة للقانون التجاري، خاصة جداً. وفي الأعوام المتأخرة بدأت تمثل الجمهورية الإسلامية في مؤتمرات التجارة الدولية، لكنها كانت تتكلم في نطاق اختصاصها فقط وترفض مناقشة مسائل تتعلق بالوضع القانوني للمرأة، حتى عندما تُطرح عليها.

علمت وزارة الخارجية أن سارة ليست مؤمنة مكرّسة نفسها للإيمان، بيد أن رؤساءها وجدوا فائدة في خبرتها، وكان مجالها يتطلب اختصاصاً دقيقاً إلى الحدّ الذي مكّنها من متابعة العمل من دون أن يجري استدعاؤها لإضفاء صفة شرعية على أمر تعارضه. كانت سارة بالنسبة إليّ تمثل الشريحة الرقيقة المحظوظة من المهنيين المحترفين الإيرانيين الذين كانت مجالات عملهم في منأى نسبياً عن السياسة ما سمح لهم بالعمل والازدهار في مجالاتهم المحدودة. لم يعنِ هذا، بطبيعة الحال، أن الأمر كان هيّناً عليها. وأنا متأكدة أنها كانت طوال الوقت تراقب زملاءها الأدنى مرتبة منها يحصلون على الترقيات ويتجاوزونها، وعرفت أنها لن ترتقي أبداً إلى ما يعادل كامل قدراتها الكامنة. كانت لامعة بما يكفي لتكون وزيرة للمالية، لكنها كانت أنثى، وليست ثورية على الإطلاق، وليس لها أي صلة بالنخبة السياسية حتى تتمكن من الارتقاء إلى تلك المستويات. لكنها تمكنت من الاحتفاظ بعملها، لتظهر أنه على الرغم من أن العمل في الجمهورية الاسلامية يكون خانقاً في العادة، فليس من الضروري دائماً أن يكون المرء بوقاً ليحصل على حياة مهنية.

وعندما أحاول اليوم أن أخبر قصص أواسط الثمانينيات أو أتذكر كيف كانت تبدو حياتي عندما كانت طفلتاي صغيرتين والحرب مندلعة، فإن الصور الوحيدة التي تحضر إلى ذهني هي مجموعات مفككة من الذكريات في غرفة المعيشة. كانت عائلتنا تكافح في تلك الأيام وأمضينا القسم الأكبر من أوقاتنا

في البيت. تقاعدت وأُغلقتْ شركة جواد بذريعة أنها مخترقة من الشيوعيين. كنا نشعر بالارتياح عندما نحصل على مدخول صغير. وكان التضخم مرتفعاً وبوجود طفلتين كانت مصاريفنا مرتفعة كذلك. ولتوفير الحاجات الأساسية كالحفاضات والحليب المجفف للطفلتين اقتطعنا من عادات الإنفاق الخاصة بنا وقلّصنا أمور الرفاهية مثل الوجبة التي كنا نتناولها أحياناً في المطعم. وقد كانت الفتاتان تحبان الأكل في الخارج وتحدثان جلبة في المساء للمطالبة بشيء أكثر تميزاً من عشائنا العادي في المطبخ. لذا نقلت طاولة العشاء إلى زاوية مختلفة من الشقة، ووضعت عليها غطاء جديداً وأعلنت افتتاح «مطعم شيرين». ورحت أقول «أهلاً بالسيدات» وأمثل أنني أسجّل طلباتهما فيما هما تسيران بتردد إلى مقهانا المزعوم. وقد أملت أن تتعلما خلق الفرص اعتماداً على ما يوجد بين أيديهما. أملت أن تتعلما متعة الإشباع المتأخر.

***

الخلفية التي كانت تمر فيها هذه الأعوام الهادئة في غرفة المعيشة كانت بشعة. في العام ١٩٨٤، أطلق صدّام حسين أسلحته الكيميائية على الجيش الإيراني للمرة الأولى. بدأ بذلك باستخدام السارين ومن ثم غاز الأعصاب عديم الرائحة الذي يقتل بعد بضع دقائق من استنشاقه. وما إن بات واضحاً أن صدّام سيستخدم ما كان ونستون تشرشل قد أطلق عليه تسمية «السمّ من الجحيم» كسلاح دائم الحضور في المعارك، زوّدت القيادة الإيرانية جنودها الشبان بحقن الأتروبين، وهو عنصر مضاد لغاز الأعصاب، لكنه في ظروف الحر الشديد لم يوفر الحظ لأكثرهم. ولم يوجد ما يكفي من المعدات المخصصة لمواجهة الأسلحة الكيميائية لتوزيعها، وفي حرّ الصحراء الشديد كان الجنود القليلون المزوّدون بالأقنعة الواقية لا يرتدونها أو لا يثبّتونها بما يلزم من الضبط حول لحاهم. في نهاية المطاف كانوا يخوضون حرباً يقودها الله، والمسلم الملتزم يكون ملتحياً، خصوصاً عندما يكون عازماً على التوجه إلى الجنة. وغالباً ما أخفقت الحقن في أداء وظيفتها أو فقد الأتروبين فاعليته بسبب

الحرّ. وقد روى الناجون قصصاً تقشعرّ لها الأبدان عن ميادين القتال التي تتبعثر في أرجائها الحقن بين الجثث، والجنود الذين حاولوا حقن أنفسهم في الدقائق الثمينة بين أول استنشاق للغاز القاتل وبين الموت.

وزّع صدّام غاز الأعصاب بسرعة ثم تحوّل إلى ما سيصبح سلاحه الكيميائي المفضّل، وهو العنصر الحارق المعروف بغاز الخردل. وخلافاً لغاز الأعصاب كانت لغاز الخردل رائحة مميزة - الغريب أنها رائحة الثوم- بيد أن ما من ترياق له وكان يقتل ببطء مضنٍ ومعذّب. وبعد قليل من إصابة الجنود على الجبهة بأول هبة من الغاز، كانت غشاوة تغطي أبصارهم ويروحون يسعلون من دون قدرة السيطرة على أنفسهم وغالباً ما كانوا يتقيّأون أثناء السعال. وفيما تمر الساعات وكأنها تزحف تبدأ جلودهم بالاحتراق ويصبح لونها أولاً أرجوانياً قاتماً. بعد ذلك تسقط قطع كاملة من الجلد، وتكتسي منطقة الإبط والأربية (أصل الفخذ) باللون الأسود وتصاب بالضرر ذاته. ومن ينجو من الموت يتلقّى العلاج في المستشفى بضعة أيام أو بضعة أسابيع، تبعاً لشدة الإصابة. واذا استطاعوا استعادة قدراتهم الوظيفية كانوا يرسلون مجدداً إلى الجبهة.

كان العالم في الغالب يتفرج صامتاً. حققت بعثات الأمم المتحدة وعثرت على إثباتات على استخدام العراق للأسلحة الكيميائية، لكن لم ينشأ عن ذلك تحالف للراغبين في إدانة الديكتاتور العراقي، ناهيك عن محاولة وقف أعماله. وسعت الولايات المتحدة إلى احتواء النظام الثوري وإضعافه بعدما بدا لها معادياً لمصالحها في المنطقة، بل ذهبت إلى تعزيز القوة العراقية. وأكد المسؤولون العسكريون السابقون في واشنطن لاحقاً ما كانت القيادة الإيرانية تعتقده منذ البدء- أن إدارة ريغان زوّدت العراق بصور من الأقمار الاصطناعية لانتشار القوات الإيرانية. وتبيّن في الأعوام التالية أيضاً أن برنامجاً أميركياً سرّياً اتّسع أكثر من ذلك بكثير وشمل مساعدة أكثر جدية من صور الأقمار الاصطناعية في التخطيط العسكري، وذلك في الوقت الذي كانت فيه وكالات

الاستخبارات الأميركية تعلم أن العراق يستخدم الأسلحة الكيميائية في معظم العمليات الكبرى. مع بقاء الرأي العام الدولي صامتاً، ومساندة القوة العظمى لصدّام حسين، وتصميم نظام رجال الدين على الاستمرار في «الدفاع المقدس» وإطالة أمده، سرعان ما أدركنا أن نهاية الحرب ليست وشيكة. وفي هذا الوقت تقريباً بدأ سفر الإيرانيين إلى خارج البلاد يصبح ظاهرة خطيرة.

غادرت موجة من الإيرانيين البلاد بعد الثورة؛ أولئك الذين كانوا يعارضون الثورة والذين خافوا على حياتهم بسبب صِلاتهم السابقة مع النظام سافروا إلى الولايات المتحدة وإلى أوروبا وبدأوا حياة جديدة في الغرب. لكن ما إن أصبح جلياً أن الحرب ستمتد في الزمن، وأن صدّام حسين سيستخدم السموم الكيميائية وسينجو بفعلته حتى باشرت شريحة واسعة من الناس تغادر، خصوصاً الذين كانوا يخشون أن يُطلب أولادهم إلى التجنيد وأن يقتلوا على الجبهة. كانت الأرقام تتضخم كل يوم. وقد تدبّر البعض أمر الحصول على تأشيرة سفر والصعود إلى متون الطائرات في مطار مهراباد، من دون أن تمس سلامتهم أو كرامتهم. أما مئات الآلاف من الآخرين الذين تاقوا إلى الخروج بأي ثمن، فقد دفعوا إلى الأشقياء لتهريبهم براً إلى تركيا أو باكستان. وجنى المهربون أرباحاً سريعة من خلال قيادة جموع من الإيرانيين في عتمة الليل إلى المعابر الجبلية والممرات الصحراوية عند حدود البلاد؛ كانت المغادرة على هذا النحو مجازفة لكنهم كانوا يعتقدون أن البقاء ينطوي على مجازفة أكبر.

وزّع الذين غادروا أنفسهم على طول أوروبا وأميركا الشمالية وعرضهما، فيما تجمّعت أولى الجيوب الإيرانية أولاً في لوس أنجلس والعواصم الأوروبية مثل باريس ولندن. وسعى المهاجرون في المراحل اللاحقة للحصول على ملاجئ في الدول الإسكندنافية، وجذبت الحدود الكندية المفتوحة نسبياً الإيرانيين إلى فانكوفر وتورنتو. كان الجميع يغادر من أفراد الطبقة العاملة إلى الأثرياء، يغادرون أفواجاً يملأون أسواق الجلود في فلورنسا ويتاجرون

بالكوكايين في شوارع طوكيو، ويديرون إمبراطوريات واسعة للسجّاد في مانهاتن. وأشبع المحترفون المتعلمون حاجات وادي السيليكون[1] والشاطئ الشرقي للولايات المتحدة إلى الأطباء والمهندسين والمصرفيين، في حين كانوا يقيمون علاقاتهم الاجتماعية في كينغستون وبيفرلي هيلز. إن التقديرات ليست دقيقة، لكن ما يراوح بين أربعة إلى خمسة ملايين إيراني غادروا البلاد في غضون عقدين، من بينهم الألمع من الإيرانيين. وحتى هذه الأيام لا تزال إيران تعاني واحدة من أشد حالات هجرة الأدمغة في العالم؛ والذين بقوا منا راحوا يراقبون شباننا ينتشرون في العالم ليحرّكوا مجتمعات واقتصادات دول غير دولتهم.

لا تتخذ الهجرة شكلاً مأساوياً في قصة إيران الحديثة، بمعنى أن صورتها تختلف عن صور الحرب والثورة، فهي لا تحتوي لقطات سينمائية لساحات المعارك التي تنتشر في أرجائها الأطراف المبتورة أو صور تظاهرات يسير فيها ثلاثة ملايين شخص رافعي القبضات. لكن إذا سألتم أكثر الإيرانيين عن «كينه» (الانتقام)، وعن الشجن الأشد مرارة الذي نما لديهم ضد الجمهورية الإسلامية، فسيقولون إنه تفرّق شمل أسرهم. تلاشت ذكريات الحرب، وقلة من الناس لديها الطاقة على تحمّل الضائقة الفكرية طوال العمر، لكنّ غياب الأحباء - الانفصال شبه الدائم للأخت عن أختها وللأم عن ابنتها- هو ألم لا يداويه الزمن. هل أُحصي لكم عدد الأسر التي أعرفها والتي عاشت في الماضي في مدينة واحدة وتشتتت في أنحاء الكوكب، كل ابن في مدينة غربية مختلفة، والأهل في إيران؟ يرى كثرٌ أن الجمهورية الإسلامية هي التي يجب أن يوجّه اللوم إليها؛ لو تمكن الثوريون من تليين جذريتهم الشرسة، ولو لم يستبدلوا الشاه بنظام دفع إلى الرحيل الجماعي، لظلت أسرهم مجتمعة.

---

(١) هي منطقة في ولاية كاليفورنيا الأميركية تُعرف بهذا الاسم لتركز صناعات الحواسيب والبرمجيات فيها. م

هجر أصدقائي الأعزّ البلاد، واحد بعد آخر. جمعوا مقتنياتهم وقالوا كلمات الوداع، وفي رأيي، أداروا ظهرهم لإيران. يسحقني شعور بخيبة الأمل في كل مرة ألتقط قلمي بحذر لأشطب اسماً آخر من دفتر عناويني. وأشعر أنني أقيم في بيت مهجور يتأكل كل يوم، وترافقني فيه الأشباح.

في البداية، حاربتهم. حاربتهم جميعاً وكل واحد بمفرده، عندما أعلنوا نيّاتهم بالرحيل، مواجهين ما قد يكون فيضاناً غير منصف من احتجاجاتي ومحاولاتي ثنيهم عن قراراتهم. كنت أعلم أن قرار الرحيل هو قرار شخصي في العمق. وصحيح أنه لم يكن لديّ أبناء ذكور إلا أنني، على الرغم من ذلك، وكموقف أخلاقي وسياسي، كنت ضد فكرة الرحيل عن إيران.

اتصل بي أحد أبناء عمومتي في الأسبوع الذي كان يستعد فيه قاصداً ألمانيا وطلب أن أمرّ به. وبينما كان يتجول في شقته ويحزم أمتعته، ظل يردد أنه يرحل «من أجل الأطفال». في نهاية الأمر انفجرتُ: «انظر حولك! ألا ترى بلداً يعج بالإيرانيين ولديهم جميعاً أطفال؟ أطفالهم يدرسون هنا. ما هي مشكلتك؟ ابقَ فقط ودع الأطفال يذهبون إلى المدرسة هنا».

أجاب: «ليس لهم مستقبل هنا. عليّ أن أصطحبهم إلى حيث يجدون مستقبلاً».

«وماذا عن مستقبل جميع الأطفال الذين سيبقون؟ هل بقاؤهم يعني أن لا مستقبل لهم؟» قلت.

أجاب: «لو كان أبناؤك أكبر، سيدة شيرين، لرحلت أيضاً».

أجبت بسرعة وحزم: «لا، ما كنت لأتخلى عن إيران أبداً. لو تعيّن على ابنتيّ الرحيل لكنت أرسلتهما. على كل جيل أن يبقى في المكان الذي نشأ فيه. إذا تركنا أنت وأنا إيران ماذا نكون قد فعلنا؟ نحن هنا أناس لنا مكانتنا. لقد حققنا إنجازاً ما، وعملنا لنصل إلى مكان ما في المجتمع. وأصدقاؤنا مثلنا، لامعون ومتعلمون. إذا ذهبنا إلى الخارج، هل تعتقد أننا سنكون موضع

ترحيب - بشهادتنا (الجامعية) الأجنبية ولهجاتنا الأجنبية؟ أطفالنا ما زالوا صغاراً وسيتشرّبون ثقافة ذلك العالم الجديد، وبمرور بعض الوقت سنخسرهم هم أيضاً».

نظر إليّ غير مقتنع. فجرّبت مقاربة أخرى.

«انظر، الفتاة التي تترعرع في الخارج من عمر السبع سنوات ستتزوج أجنبياً على الأرجح. من الطبيعي أن تتكيف مع ثقافته، وسيحلّ التباعد بيننا على مهل. وذات يوم سنستيقظ ونكتشف أننا لا يمكن لنا أن يوجد أي منا في عالم الآخر - هي في عالمنا ونحن في عالمها - في الطريقة ذاتها. يجب أن نفكر في هذا الأمر ونتوقع حصوله منذ الآن، وأن نبقي أبناءنا هنا. لاحقاً في المرحلة الأخيرة من دراستهم، يمكنهم السفر إلى الخارج لفترة من الزمن. لكنهم يكونون قد تشكلوا هنا. ومثلنا، سيكون عليهم التكيف مع أي حقيقة مؤلمة توجد في الواقع، هذا المكان سيكون قد نزل في قلوبهم، فيعودون».

صمت طويل أعقب نهاية خطابي. زفر ابن عمي نفساً طويلاً، وتابع حزم أمتعته. «خذي ما تشائين»، قال مشيراً إلى الأدوات المنزلية المبعثرة في أرجاء الشقة. وعلى الرغم من أنني كنت في حاجة إلى بعض تلك الأغراض، رفضت أن ألمس أياً منها وغادرت. لم أرد أن آخذ طبقاً أو منضدة من شخص يتركني ويترك بلده وراء ظهره.

كان المزيد من دراما غرف المعيشة تلك على وشك الوقوع. قررت واحدة من صديقاتي أن تعرض قسماً من مفروشات بيتها للبيع، واتصلت بي ذات يوم ودعتني إلى زيارتها. وجدتها تدور حول نفسها في غرفة المعيشة، تلصق رقعاً صغيرة تحمل الأسعار على كل ما تراه. كنت آمل أن نشرب الشاي معاً وأن نتحدث أولاً، لكنها على غرار جميع من بات على وشك الرحيل، كانت مشغولة في مشكلات أيامها الأخيرة، وانسحبت من المحادثة إلى غابة من الصناديق والأشرطة اللاصقة. تبعتها في غرفة المعيشة أنزع بغضب كل رقعة لاصقة تثبتها. وتواجهنا، وأصابعنا تكسوها الرقع البيضاء اللاصقة. وعندها،

قاطعنا جرس الباب الخارجي. كانت الساعة الثالثة والنصف، تفصلنا نصف ساعة فقط عن الموعد المحدد لبدء المبيع.

دخلت امرأة كبيرة الجثة وباشرت تفقّد الشمعدانات وإطارات الصور بعينين ثاقبتي النظرات، كما لو أن غرفة معيشة صديقتي، حيث سار أبناؤها خطواتهم الأولى، كانت كشكاً في السوق. ثارت ثائرتي. لديّ نصف ساعة للتأثير في صديقتي، ولإقناعها بتغيير رأيها، وتأتي هذه المساومة الجشعة الشبيهة بالنسر الجائع لتسرق وقتي. أمسكت ذراعها بشدة وقدتها إلى الخارج، وقلت لها: «قفي هنا حتى الساعة الرابعة»، ثم أغلقت الباب بعنف.

توسّلت إلى صديقتي في الداخل: «أرجوكِ، أوقفي هذا الجنون. ماذا تفعلين؟ هذا بلدنا!».

لكن عند الساعة الرابعة بدأ المبيع. لم يحفز أي من مناشداتي الوجدانية الرقيقة أصدقائي أو أقاربهم على إعادة النظر في قراراتهم. ربما لم يكن الأمر يستحق المحاولة، أن يبادلوا سعادة الحياة اليومية وطموحات المستقبل بهدف بعيد المنال هو إعادة تأهيل البلاد. في نهاية المطاف، امتلأ دفتر عناويني بأرقام مشطوبة، وفي وسعي تمزيق صفحات كاملة. وبمعنى ما، عندما أنظر إلى الخلف، إلى أعوام تعج بالألم وبالشدائد، أرى تلك اللحظة على أنها القعر. لقد خسرت مهنتي التي أحب. لقد خسرت بلدي. لقد خسرت أصدقائي.

رفضت أن أكتب رسائل إلى الذين غادروا. حاولت بضع مرات، لكنني شعرت بالقلم وكأنه كتلة صمّاء لا يمكن تحريكها بين يدي، وجعلتني فكرة تعبئة هذه الصفحات أشعر باليأس. لقد ذكرتني أنني فقدت هؤلاء الذين أحببتهم، وأنهم غائبون الآن عن حياتي. كانوا يتصلون بي هاتفياً ويقولون «شيرين العزيزة، مجرد رسالة قصيرة، لا تعلمين كم ستجعلنا سعداء ملاحظة قصيرة منك». لكنني لم أستطع. آذى ذلك بعض أصدقائي، لكن بمرور الوقت آمل أن يكونوا قد رأوا أن عنادي كان يصدر عن فائض في الإخلاص وليس عن نقص فيه.

عندما يرحل أحدهم عن إيران، يبدو وكأن هذا الشخص قد مات بالنسبة إليّ. كنا أصدقاء لفترة مديدة وتقاسمنا العالم ذاته طويلاً حتى أضاءت الآمال عينُها عالمَنا، وأبقتنا المخاوف ذاتها يقظين أثناء الليل. بعد أعوام، عندما عاد أصدقائي إلى إيران للقيام بزيارات قصيرة رأيت كم كنت محقة. ما زلنا نتكلم اللغة الفارسية، وما زال الدم ذاته يجري في عروقنا، بيد أنهم يعيشون على كوكب مختلف عن الذي أعيش عليه. يمكن أن تجدوا الكلمات التي تبادلناها في القاموس الفارسي نفسه، لكن الأمر بدا كمن يتحدث لغتين مختلفتين. لقد فقدت، في الواقع، أصدقائي. أصدقائي الحقيقيون - أي أولئك الذين كنت أتبضع معهم من الأكشاكِ ذاتها ونحدّق معاً مصدومين في عناوين الصحف نفسها - قد ماتوا. لن تتبادل الرسائل مع شخص ميت، هل تفعل أنت؟ بالطريقة ذاتها لم يحصل معي قط أن كتبت رسالة إلى ميت (هل تتفقون معي على أنها مهمة مؤذية وهي مجرد لغو). ولم يحدث لي قط أن كتبت إلى أصدقائي الذين غادروا إيران. والسبب هو أنني أحببتهم كثيراً، وليس لأنني نسيتهم. أحببتهم إلى الحد الذي كان يؤلمني التقاط قلم وكتابة فقرة افتتاحية من رسالة. وبغياب المراسلة، وبُعد المسافة كان التباين الصارخ بين حياتينا يظل محجوباً.

* * *

في أحد الأعوام، وفيما الحرب مشتعلة، قررنا جواد وأنا أن نأخذ العائلة في رحلة إلى الهند. بُعيد وصولنا، أعلن صدّام أنه سيبدأ رسمياً استهداف الرحلات الجوية التجارية. تأكلنا القلق بشأن رحلة العودة كل الوقت الذي أمضيناه هناك، وعندما دخلت الطائرة المجال الجوي الإيراني حنى جميع المسافرين رؤوسهم وراحوا يتلون صلواتهم، كما لو كانوا في رحلة حج إلى مكة. وأثناء عودتنا بالسيارة من مطار مهراباد، الذي بدا متوتراً أكثر من وقت مغادرتنا، قرر جواد أننا يجب أن نتجب الطائرات إلى حين انتهاء الحرب.

بعد تلك الرحلة، مر الوقت مملاً. سجل العام ١٩٨٨ مرحلة جديدة في

الحرب، هي حرب المدن. صارت الضربات الجوية العراقية، التي كانت تقتصر إلى ذلك الحين على المناطق الاستراتيجية القريبة من الحدود وتصيبها بتقطع، تتكرر في طهران وغيرها من المدن يومياً. وأصبح هدير الطائرات العراقية المقاتلة الضجيج الخلفي لحياتنا اليومية. وفي بعض الأيام كان يضرب المدينة حوالى عشرين صاروخاً. كان ذلك العام الذي وصلت فيه الحرب إلى ناحيتنا وقلبت ليالينا رأساً على عقب.

أعلن الجيش العراقي أنه لا يقصف المدن لقتل المدنيين، بل لدفعهم إلى الضغط على الحكومة للقبول بوقف إطلاق النار. ولتحقيق هذا الهدف المزعوم استخدم صور طهران التي تلتقطها الأقمار الاصطناعية لاختيار الأنحاء التي يوجّه إليها ضرباته الدقيقة، ويعلن الأهداف التي سيضربها ليلاً في نشرات الأخبار الصباحية، حتى يتاح للسكان إخلاء بيوتهم. من امتلك القدرة أو المكان الذي يلجأ اليه فر من منزله؛ وأمضى الآخرون لياليهم بلا نوم في أسرّتهم. وسواء أكانت القيادة العراقية عاجزة عن تنفيذ قصف ذكي، أم كانت تشن حرباً نفسية فقد كان من النادر أن تصيب الصواريخ أهدافها المحددة. ذات يوم قال المذيع: «اليوم سنضرب يوسف آباد»، ناحيتنا، فاتصلت بأهلي وقلت إن علينا العثور على مكان ما للنوم في تلك الليلة. رفض أبي بعناد قائلاً: «ما سيحصل، سيحصل». لذا نمنا جميعاً في تلك الليلة في منزل أبي، متخيلين أنه لو كان مقدّراً لنا أن نفنى فيجب أن نفنى معاً. تشاركنا ما افترضنا أنه العشاء الأخير من لحم الضأن المطهو والليمون المجفف والعدس الأصفر، وارتشفنا الشاي ونحن نحدق من دون تركيز إلى التلفاز، ثم توجهنا إلى أسرّتنا. في النهاية، لم يحدث شيء فتبادلنا أثناء الإفطار القُبلات على وجوهنا المنهكة، شاعرين بنوع من الارتياح المرتبك بأنه لم يكن دورنا، مدركين بما يشبه اليقين أنه كان دور أناس آخرين.

لم يصب الهجوم على المدن أياً من أقربائنا، لكنّ صديقاً لجواد لم يسعفه مثل هذا الحظ. عاد من عمله ذات مساء ليجد أن بيته وزوجته وابنتيه تحوّلوا

جيمعاً إلى رماد في ضربة صاروخية وقعت أثناء دوام عمله. ومع امّحاء حياته برمّتها أصيب بالجنون تقريباً.

دفعت قصص مرعبة كهذه الإيرانيين إلى الرحيل عن طهران. أولئك الذين تحمّلوا التخلي عن أعمالهم أعادوا التموضع في المقاطعات. والأثرياء الذين ينظرون دائماً إلى الأمام احتلوا أماكن سكن ثابتة في الفنادق، وخصوصاً في فندقي الهيلتون والحياة الفخمين، سابقاً، واللذين لم يُستهدف برجاهما وكان يمكنهما تحمّل القصف إذا استُهدفا. وبات الفندقان اللذان أعيدت تسميتهما وأصبحت الدولة تسيرهما، يعجّان بالنزلاء الذين يدفعون ما قيمته ثلاثة أو أربعة أضعاف السعر الطبيعي.

ذات يوم تجوّلت في بهو فندق الشيراتون سابقاً، منتظرة وصول مراسل أجنبي. (في العام ١٩٨٧، بعدما تقاعدت من العمل وقبل أن تنتهي الحرب، بدأت بتأليف الكتب حتى أتمكن على الأقل من المساهمة في الحقول القانونية التي لم أستطع العمل فيها. كذلك كان الصحافيون غالباً ما يقصدونني بصفتي خبيرة في حقوق النساء وما يشبهها من المسائل القانونية). رحت أسير جيئة وذهاباً وأنا مشدوهة بين المطعم والمقهى أراقب الشبان والشابات بالتسريحات الحديثة والأزياء الأنيقة يتناولون العشاء ترافقهم في الخلفية موسيقى البيانو الناعمة. كانوا يقطعون شرائح اللحم برشاقة ويدسّون الملاعق في الكريم كراميل، في حين أن نصف ما كنا في حاجة إليه في طهران كان غير متوافر البتة ويتطلب الحصول على النصف الآخر قسائم حكومية. كان بهو الفندق بمثابة جزيرة هادئة في مدينة مزّقتها الحرب، وبدا أن الأثرياء بملابسهم المكوية حديثاً وتعابير وجوههم الهادئة قد عاشوا تجربة الحرب على نحو مغاير لما عاشته بقيتنا.

لم تدمّر الضربات التي كان الإيرانيون يفرّون منها العاصمة مربّعاً بعد مربّع. واذا قدتم السيارة في طهران يمكنكم ملاحظة جيوب من الدمار فقط.

لم تسوِّ الطائرات النّفاثة العراقية المدينة بالأرض لكنها جعلتنا نعيش حياتنا اليومية في حالة ترقب دائمة للأسوأ.

في أحد صباحات تلك الفترة قصدت وسط المدينة لتدبير بعض الشؤون، وتوقفت عند تقاطع مزدحم أنتظر سيارة أجرة. وبعد حوالى خمس عشرة دقيقة، وبعدما تعبت من أدخنة الحافلات الهادرة، بدأت المشي. ولم أكن قد وصلت بعد إلى آخر المربّع السكني الطويل حتى سمعت دويّ انفجار يصمّ الآذان، وارتفعت الأرض تحتي ورأيت حجارة الرصيف تفقد شكلها الواضح. وقد دفعتني قوة الانفجار إلى الجانب الإسمنتي لأحد الأبنية حيث استلقيت بلا حراك أنظر بذعر إلى الفوضى المحيطة بي. وراح الناس يصرخون ويشيرون إلى الزاوية التي كنت أقف عندها. نهضت مترنحة وشققت طريقي عبر الحشد ومررت بسيارات متفحمة يتصاعد منها الدخان وحدّقت في الفوّهة الواسعة الممتلئة بالركام والأجساد المصابة.

أصرّ جواد في تلك الليلة على أن طهران لم تعد آمنة وأن علينا مغادرتها. لكنّ والديّ وقد أصبحا متقدمين في السنّ في ذلك الوقت ومعارضين لمغادرة منزلهما رفضا الذهاب. في نهاية الأمر، وافقت على مرافقة الطفلتين وشقيقتي إلى شمال إيران، قرب بحر قزوين، فيما بقي جواد في طهران مع أهلي.

استأجرنا بيتاً صغيراً في واحدة من البلدات الصغيرة في الشمال. وكانت نيغار تذهب بدرّاجتها إلى مدرسة ابتدائية مكتظة بأطفال من مختلف أنحاء البلاد جاءوا هرباً من الحرب. كانت كل ليلة تعود إلى البيت وتنكبّ على فروضها المنزلية حتى الساعة العاشرة ليلاً. تساءلت: لماذا يكون لطفلة في الثامنة من عمرها هذا القدر من الفروض المنزلية؟ في اليوم التالي ذهبت معها إلى المدرسة للتحدّث إلى المعلمة. وفي طريقنا إليها عبرنا الشوارع الضيقة والأسوار الإسمنتية غير المنتهية التي تجعل من هذا المكان أشبه بقرية مقارنةً مع طهران. قالت المرأة كمن يتعرّض لهجوم: «كل صف من صفوفي يحتوي من الطلاب ما يزيد بثلاثة أضعاف عن طاقته الاستيعابية. ليس ما يكفي من

الكتب لتوزيعها فأحمّلهم بالدروس حتى يجدوا ما يفعلون وبذلك أحفظ النظام».

بعد شهرين، أعلنت الحكومة نهاية حرب المدن. وعدنا إلى طهران.

* * *

مساء ليلة صيفية من تموز/ يوليو من العام ١٩٨٨، أدرنا التلفاز فرأينا صور أجساد تطفو في البحر وسط حُطام طائرة متناثرة الأجزاء. في صباح ذلك اليوم أطلقت سفينة حربية أميركية تبحر في الخليج صاروخاً يبحث عن الحرارة على طائرة مدنية إيرانية ففجرتها في السماء. ولقي جميع الركاب المئتين والتسعين الذين كانوا على متنها نحبهم، وكانت أجسادهم هي التي عرضها التلفزيون الإيراني تتمايل في مياه الخليج الدافئة. لم يقدّم الرئيس رونالد ريغان تفسيراً مقنعاً لما جعل السفينة «يو اس اس فينسنس» المجهزة بمنظومة الرادار الأكثر تطوراً في ترسانة البحرية تخلط بين طائرة الإيرباص الإيرانية الضخمة وطائرة مقاتلة فوق صوتية صغيرة يكاد حجمها لا يزيد على ثلث الطائرة المدنية. قلّة من الإيرانيين أمكنها تصديق أن ما جرى كان خطأ - ولاحظنا ذلك أيضاً عندما تلقى قبطان السفينة ميدالية تقديراً لأدائه- وتوقف قادة البلاد لإعادة تقييم الحرب، متخيلين أن الولايات المتحدة قررت أخيراً أن تؤيد جانباً في الحرب. وما كان التدخل الأميركي ليساعد صدّام على استعادة الأرض التي خسرها فقط وإنما يعرّض الثورة الإيرانية للخطر أيضاً. فقرّر القادة الإيرانيون، بعد ثمانية أعوام تقريباً وبعد خسارة نصف مليون نسمة، إنهاء القتال والموافقة على قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار. وبثت الاذاعة في الثامن عشر من تموز/ يوليو البيان التاريخي لآية الله الخميني الذي قال فيه: «لقد تعهدت القتال حتى آخر قطرة من دمي. على الرغم من أن هذا القرار يعادل تجرّع كأس من السم فإنني أسلّم أمري إلى إرادة الله».

تنفّسنا جميعاً الصُعداء، مصدّقين بصعوبة أن الحرب التي شكلت خلفية حياتنا، والواقع الوحيد الذي عرفته ابنتاي، قد وصلت في الحقيقة إلى نهاية

المطاف. أخيراً يمكننا التوقف عن التركيز على ما إذا كانت ضربة صاروخية ستقع غداً أم لا. سنتوقف عن التخطيط لأيامنا حول الصفوف في انتظار السكر. هل تعود الحياة طبيعية مجدداً؟ بل ماذا تعني كلمة «طبيعية»؟ لقد خيضت الحرب أساساً على الأرض الإيرانية. أراضينا الزراعية في المقاطعات ومدننا واقتصادنا وصناعتنا تعرّضت جميعها للدمار الشديد. لقد انتقلنا مباشرة من الذهول الذي سببته الثورة إلى الانخراط في الحرب، وعلينا الآن أن نتعافى فعلاً من الاثنين.

بعد ستة أيام، دفعت منظمة مجاهدي خلق ستة آلاف مقاتل من قاعدة في العراق لمهاجمة مقاطعة كرمنشاه الإيرانية الغربية. وكانت المنظمة قد بدأت في أواخر الثمانينيات تدريب مقاتليها في العراق، وحاربت إلى جانب جيش صدّام. وفكروا أنهم بمساعدة صدّام على إضعاف النظام الإيراني سيتقدمون نحو تحقيق هدفهم في إسقاط الحكومة. وبناء على اعتقادهم أن النظام يحاول امتصاص آثار وقف إطلاق النار ويمر بحالة من الهشاشة حيال أي انتفاضة شعبية، قرروا أن الوقت قد حل أخيراً للزحف إلى طهران. وعشية هجومهم الذي أطلقوا عليه اسم «النور الأبدي»، وعد قادة منظمة مجاهدي خلق قواتهم أن الجماهير الإيرانية ستنضم إليهم في القتال وتقودهم إلى النصر. «سيكون (الهجوم) كالانهيار الثلجي يتعاظم كلما تقدم. وفي نهاية الأمر سيمزّق الانهيار الثلجي نسيج العنكبوت الذي حاكه آية الله الخميني تمزيقاً. لستم في حاجة إلى أخذ أي شيء معكم. سنكون كالأسماك تسبح في بحر الشعب».

كم كانوا مخطئين، وكم كان مأساوياً سوء حساباتهم. آخر ما كان الإيرانيون يريدونه في تلك اللحظة هو المزيد من العنف. ولن يغفروا أبداً لمنظمة مجاهدي خلق أنها حملت السلاح إلى جانب رجال صدّام، وقواته التي ستقضي على حياة نصف مليون شاب إيراني، وتنثر غاز الأعصاب على كتائب بأسرها. وقد سارع الحرس الثوري إلى سحق هجوم مجاهدي خلق فقتل حوالى ألف وثمانمائة مقاتل وأرغم الآخرين على الفرار عائدين عبر الجبال إلى

العراق. وفي طهران جرى تعليق زيارات أهالي سجناء المنظمة لثلاثة شهور. لماذا؟ تساءلنا بهلع وتفكيرنا يتجه صوب فؤاد.

* * *

تلقت حماتي اتصالاً هاتفياً تضمّن تدقيقاً بشأن ابنها فؤاد في صباح يوم بارد من خريف العام ١٩٨٨. كانت في أوائل السبعينيات من عمرها وغالباً ما كانت تبذل جهداً لسماع صوت محدّثها على الهاتف. ولم تلاحظ أن المتصل المجهول طرح سؤاله في صيغة الماضي:

- هل كان لديك ابن اسمه فؤاد؟
- طبعاً نعم، فؤاد أصغر أبنائي.
- إذاً قولي لأبيه أن يتقدم إلى سجن إيفين غداً.

أجابت:

- والده توفي منذ بضعة أعوام.
- حسناً، قولي لشقيقه أن يحضر.

وأقفل الخط.

يقع السجن المعروف باسم إيفين في منعطف إلى جانب طريق سريع يحمل الاسم ذاته في شمال طهران. هو واحد من عدد قليل من المؤسسات الإيرانية التي ظلت سمعتها كما هي في ظل نظام الشاه ونظام الجمهورية الإسلامية. حمل السجن بجدرانه الحديدية وهندسته المنخفضة سمعة كالحة لكونه مسرح آلاف الإعدامات منذ وقوع الثورة. وتتضافر حول اسم إيفين صور أقبية الاستجواب والصفوف الطويلة شديدة الرطوبة للزنازين الإفرادية ولعله يحتل الزاوية الأكثر ظلمة في المخيّلة الإيرانية.

في اليوم التالي، استقلّ جواد وعمّه السيارة عبر الطريق المتعرّج المفضي إلى السجن، وكانت قمم جبال البورز ترتفع بعيدة. لم يكن عسيراً العثور على المكتب الصحيح: لقد تبعا فقط الطريق الذي يأتي منه الأقارب الشاحبون

والذين تصدر من بينهم أصوات النشيج. «هنا» قال آمر السجن وسلّم جواد كيساً. «هذه هي متعلّقات أخيك. لقد أُعدم». وأضاف بعد ما بدا أنه برهة تفكير: «عليكم أن تمتنعوا عن إقامة العزاء أو أن تظهروا الحداد على موته لعام كامل بأي طريقة علنية. إذا تبيّن بعد عام أن سلوككم كان مقبولاً سنكشف لكم مكان دفنه».

كان أول ما فعله جواد وعمه التفتيش في محتويات الكيس. كيف لهما أن يتأكدا من أن هذه أغراض فؤاد؟ وكيف يمكن أن تحاسب السلطات عن كل سجين ومقتنياته في ظل ازدحام إيفين واكتظاظه؟ ربما كانوا يصدرون لائحة من الأسماء ويعلنون أن أصحابها قد ماتوا فيما هؤلاء ما زالوا على قيد الحياة. سحب جواد من الكيس بذلة رياضية لم يتعرف إليها وزوجاً من الثياب التحتية التي يمكن أن تكون ملكاً لأي شخص. فتّش بدقة في قعر الكيس وعثر على مسبحة صلاة صغيرة وعندها علم أن شقيقه قد مات. كانت المسبحة لا تفارق فؤاد، كانت تذكاره المفضل، تتدلى من بين أصابعه أثناء توجّهه مسرعاً إلى الصف أو عائداً منه.

اتصل جواد بشقيقاته من السجن وطلب منهن إعداد أمه للنبأ، وطلب مني أن أتوجه إلى بيتها على وجه السرعة. وفيما كنت أستحمّ وأرتدي ثيابي شعرت أن شيئاً حاداً كبيراً قد انغرز في حلقي، لكنني لم أستطع البكاء. أدرت مفتاح الإشعال في السيارة، وعندما تصاعد صوت موسيقى البيانو التي تعاد كثيراً «روزكاري ما» («زمننا») من جهاز الستيريو، بدأت دموعي تنهمر. بكيت طوال الطريق ورحت أمسح عينيّ بطرف غطاء رأسي.

انفردت بجواد في زاوية مطبخ حماتي، قرب السماور الكهربائي الذي يبقي الشاي ساخناً، وسألته لماذا أُعدم فؤاد. وفقاً لرواية مسؤولي السجن، فإن عناصر منظمة مجاهدي خلق الذين قتلوا في عملية «مرصاد» (وهو الاسم الذي أطلقته الحكومة على هجوم مجاهدي خلق) كانوا يعلّقون ملاحظات على أجسادهم تحمل لوائح بأسماء مؤيديهم في إيفين. ويبدو أن اسم فؤاد قد ورد في

إحدى اللوائح هذه. ضحكت ضحكاً مريراً. فتى يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً يقبع في السجن ليمضي عقوبة تمتد عشرين عاماً بتهمة بيع صحف، تمكن بطريقة ما من إقامة اتصال مع مقاتلي مجاهدي خلق على الحدود العراقية - الإيرانية؟ حتى لو فعل، حتى لو كان هذا الزعم المهلهل صحيحاً بطريقة ما، فإن مسؤولي السجن هم من يجب أن يحاسب لسماحهم للسجناء بالاتصال بالخارج. ارتبك ذهني. كيف يمكن لأحد أن يأمر بإعدام مواطن إيراني موجود في السجن منذ أعوام من دون إدانة جديدة صادرة عن المحكمة؟

ما الذي اقترفه؟ وكوني قاضية شعرت بحدة أكثر من أي شخص آخر بجسامة الحكم بالموت. إن أمراً بالإعدام، بتجريد شخص من الحياة، هو الحد الأقصى في أي نظام قضائي، ويأتي في أعقاب مداولات منهكة لا يغيب عنها العبء الأخلاقي لهذه العملية. ما الذي ارتكبه فؤاد، هذا الشاب الساذج؟ جريمته الوحيدة بيع الصحف، وهي جريمة سلّمها بالفعل شبابه، ليمضي سبعة أعوام في السجن من حكم مدته عشرون عاماً.

لقد أُعدم! لم أستطع أن أستوعب الأمر. فكرت لنفسي أنه لم يعد ثمة قانون، وحياة الناس باتت رخيصة جداً.

في تلك الليلة استقر غضب شديد في داخلي. وعندما أتذكر وأحاول تحديد نقطة التحوّل التي غيّرتني، اللحظة التي اتخذت حياتي فيها مساراً مختلفاً، أرى أن كل شيء بدأ في هذه الليلة. نظرت شقيقة زوجي، وهي طبيبة، إلى وجهي في ذلك المساء ورفعت كُمَّ سُترتي لقياس ضغط دمي. وفيما كانت الإبرة الصغيرة تتراقص فوق المؤشر الأحمر أبلغتني أن عليّ التوجه إلى غرفة الطوارئ على الفور. في اليوم التالي بدأت تناول دواء لارتفاع ضغط الدم، وطوال ما سيتبقى من حياتي سأبدأ نهاري بابتلاع حفنة من الأقراص لتهدئة قلقي وإبقاء ضغط دمي منخفضاً. بدأ جواد تناول أدوية الربو الذي كان عارضاً خفيفاً في السابق وأصبح قاسياً بما يكفي لجعله يصدر صفيراً أثناء محاولته التنفس.

جعلني موت فؤاد أكثر عناداً. طُلب إلينا ألا نناقش موته مع أي كان، لذا صرت أتحدث عن إعدامه في الليل والنهار. في سيارات الأجرة، وفي المتجر عند الناصية، وفي الصف الواقف في انتظار الخبز، كنت أقترب من أشخاص غرباء تماماً عني وأخبرهم عن ذاك الصبي حلو المعشر الذي حُكم عليه بالسجن عشرين عاماً لبيعه الصحف، ومن ثم أعدم. لم ينظر إليّ أحد باستغراب. لقد استمعوا فقط، وأبدوا تعاطفهم. لم أفكر قط في أن الأمر ربما ينطوي على خطورة، أو أن يكون بعض المتنّصتين يسجّلون أسماء العُصاة الذين يتكلمون بشأن ما أُمروا بإخفائه. لقد كان في داخلي ألم شديد وأحتاج إلى إخراجه. ربما لو لم يقولوا لنا ألا نتحدث لما أحسست بالحاجة الملحة إلى الصراخ بما جرى من أعلى السطوح.

أبلغونا بعدم الحداد على موته، لكن كيف يمكننا ذلك؟ وبذريعة إحياء الذكرى السنوية لوفاة والده، أقمنا عزاء لفؤاد ونشرنا ذلك في الصحف. وتقدّم عم فؤاد، الذي رافقه خارج السجن لحضور جنازة أبيه، مراسمَ العزاء وتلا «نوحة»، أو النواح التقليدي على الميت، تثير الكرب، وأثر صوته في مشاعر الجميع. وفي وسط المراسم تأرجحت أفكاري. لقد فكرت في أنه كان على العائلة أن تسمح لفؤاد بالفرار في ذلك اليوم عندما كان بيننا وطلب مساعدتنا. لو تركوه يهرب لكان ربما على قيد الحياة اليوم.

* * *

عاد جواد بعد عام (في العام ١٩٨٩)، إلى السلطات وسألها عن مكان دفنها لفؤاد، فأجيب بأنه في بهشت الزهراء، المقبرة الرئيسة في طهران، التي تبدأ عند الطرف الجنوبي للمدينة وتمتد عدة كيلومترات إلى جانب الطريق السريع الذي يختفي في الصحراء. لا تبدو بهشت الزهراء كمقبرة، بل هي أشبه بضاحية صغيرة أو منطقة للتخييم تتوسطها طرقات محفوفة بالأشجار، وملعب ومطعم ومحلات للمأكولات السريعة؛ وغالباً ما يُمضي ذوو المتوفّى فترة بعد الظهر في المقبرة يتنزهون بين القبور فيما يركض أولادهم حولها، كما أن

الناس لا يستطيعون العثور على طريقهم هناك من دون دليل أو خريطة. والقسم الأوسع من المقبرة هو ذاك المخصص للجنود الذين قتلوا في الحرب العراقية-الإيرانية. وما من شيء يمكن أن يجعلكم تستعدّون لمنظر كهذا: كيلومترات من شواهد القبور الحجرية تمتد في المسافة إلى أفق غريب من القبور.

ذهبنا إلى المقبرة في اليوم التالي، وشققنا طريقنا بين حشود المتفجعين، وقضينا ساعتين في البحث عن قبر فؤاد. لقد دُفن في قسم قديم من المقبرة كان قد امتلأ منذ عقود، ولاحظنا أن قبور من تم إعدامهم قد بُعثرت على امتداد المقبرة الشاسعة لمنع الزائر من محاولة تقدير عدد الضحايا. وقد نُظّم العديد من أقسام بهشت الزهراء وفقاً للفئات: الناشطون المناهضون للشاه الذين قُتلوا قبل الثورة، وأولئك الذين قُتلوا على أيدي «السافاك» أثناء الثورة، وهكذا على هذا المنوال وتحمل أبعاد كل قسم دلالة معيّنة، وتكشف الثمن البشري للحظات العنيفة في تاريخ إيران. ولو أنشئ قسم خاص لأنصار منظمة مجاهدي خلق وغيرهم من السجناء السياسيين الذين أعدموا بعد فشل عملية «مرصاد» لضمّ ما يراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف قبر، وهذا هو العدد التقريبي لمن قتلوا، إلى جانب فؤاد، في موجة الإعدامات تلك في العام ١٩٨٨. ووفقاً لجمعيات حقوق الانسان والسجناء السابقين فإن أكثرية الذين أعدموا كانت إما من تلامذة المدارس الثانوية أو من طلاب الجامعات، أو من المتخرجين الجُدد، وحوالى عشرة في المئة منهم كانت من النساء.

لم نعلم إلا لاحقاً، عندما ظهرت التفاصيل عبر الشائعات ومن خلال انتقال المعلومات من شخص إلى آخر، بـ«المحاكمات» التي أجريت قبل الإعدامات. كانت العملية تستغرق بضع دقائق، وهو الوقت اللازم ليُسأل السجناء أسئلة من نوع «هل أنت مسلم؟ ما هي المنظمة التي تنتمي إليها؟ هل تصلّي؟ هل القرآن الكريم هو كلام الله؟ هل تشجب علناً المادية التاريخية؟» إذا أجاب السجين - المرتبك والمغمض العينين وغير المعتاد على التفتيش الديني- إجابة خاطئة، لا يوجّه إليه المزيد من الأسئلة، ويصدر فوراً الأمر بالإعدام.

إذا ادّعى السجين الإيمان بالإسلام، يُسأل ما إذا كان يريد التعاون مع النظام، وما إذا كان يشجب علناً معتقداته السابقة. إذا جاء الجواب «لا»، يأتي مجدداً الحكم بالموت؛ إذا كان الجواب «نعم»، يرغم السجين على المشاركة في إعدام السجناء الآخرين كبرهان على تحوّله. وقيل إن السجينات، وكنّ كثيرات، تعرضن للاغتصاب قبل إعدامهن للتأكد من أنهن قد أُدنّ، حيث يعتقد أن العذراوات ينتقلن مباشرة إلى الجنة.

كان المشرف على السجن أثناء هذه الإعدامات يدعى أسد الله لاجوردي. وفي الذكرى السنوية العاشرة للإعدامات، وكان قد أصبح متقدماً في السن، تسلل إليه قتلة منظمة مجاهدي خلق في متجر الأقمشة الذي يملكه في بازار طهران وأطلقوا عليه النار حتى الموت من رُشَيش من طراز «عوزي».

في كل مرة نزور المقبرة، نشعر بأن عيوناً تلاحقنا كما لو كنا مراقَبين. ثم إن الشيوعيين الذين أعدموا لم يُدفنوا في المقبرة إذ رفض النظام أن يُدفن الملحدون (أي غير المؤمنين أو الكفار) إلى جانب المسلمين، وأُبعدت قبورهم إلى منطقة مهجورة في جنوب شرق طهران تسمّى خفاران، يشير إليها المتشددون الدينيون بـ«الأرض الملعونة».

ما كان إرث هذه الحرب؟ لم تتغير الحدود. والعالم سرعان ما نسي. وفي كل مرة أذهب إلى بهشت الزهراء وأحدّق في قبور قتلى الحرب، أولئك الذين يُذكرون كهوامش وكتقديرات إحصائية، أسأل نفسي: من كان الرابح الحقيقي؟ لم يكن الرابح إيران التي دُمر اقتصادها، واجتاحت الحرب ثلثي مقاطعاتها، ويرقد جنودها من ضحايا أسلحة صدّام حسين الكيميائية في مستشفيات خاصة حيث تلتهب باستمرار أجسادهم المتقرّحة. ولم يكن العراق هو الرابح. لقد أصابت الندوب سكانه أيضاً، وتعرّض أكراده لغاز الأعصاب على نحو مشابه. من هم الرابحون إذاً؟ تجار الأسلحة! الشركات الأوروبية التي باعت إلى صدّام أسلحته الكيميائية، والمؤسسات الأميركية التي باعت الأسلحة إلى الطرفين. لقد كدّست تلك الشركات والمؤسسات الثروات، وانتفخت حساباتها

المصرفية، ولم تمس عائلات أصحابها في بون وفرجينيا بأذى.

عليّ أن أتباطأ قليلاً بعد في الحديث عن الحرب، لأن تأثيرها هو ما يشكل إلى حد بعيد المواقف الإيرانية الحالية من مستقبلنا ومن مكاننا في العالم. هناك أولاً، الشكوك وانعدام الثقة التي تعززت لدينا بخصوص دوافع أميركا في المنطقة. تخيّلوا أنكم إيرانيون تشاهدون فتيان حيّكم يركبون الحافلات قاصدين الجبهة ولا يعودون أبداً. تخيّلوا أنكم تحدّقون برعب صامت في شاشة التلفزيون فيما صدّام يمطر فتيانكم بالأسلحة الكيميائية، وتوجّه طائراتِ الموت التي يملكها صورُ الأقمار الاصطناعية الأميركية. ولنتقدّم سريعاً لخمسة عشر عاماً خلت. تشاهدون أولاً شريط فيديو باهتاً لرونالد رامسفيلد يصافح صدّام حسين، مبتسماً للجزّار الذي جعل من مقبرة عاصمتنا مدينة. وتنصتون الآن إلى الرئيس جورج دبليو بوش يتعهد بإحلال الديموقراطية في الشرق الأوسط. تسمعونه يتوجه إلى الشعب الإيراني في خطابه عن حال الاتحاد، ليقول للإيرانيين إن أميركا ستقف إلى جانبهم في سبيل حريتهم. هل تصدقونه؟

من المستحيل تقريباً وضع تقدير يُعوَّل عليه لخسائر الحرب في كل من البلدين، في السكان والاقتصاد. لقد خسر كل من الجانبين ما يقارب خمس مئة مليار دولار من عائدات النفط ونتيجة الإنفاق العسكري وتدمير البنية التحتية. وقلّص كلّ منهما خسائره العسكرية إلى الحد الأدنى وبالغ في خسائر العدو؛ والرقم المقبول عموماً هو أن أكثر من مليون إيراني وعراقي قتلوا أو أصيبوا بجروح. ووقع أكثر من مئة ألف جندي في الأسر، ونجم عن القتال حوالى ٢,٥ مليون لاجئ.

الفصل السادس

أوقات غريبة، يا حبيبي

توفّي آية الله الخميني في يوم سبت معتدل الحرارة، في الثالث من حزيران/يونيو من العام ١٩٨٩. طوال عدة ليالٍ متوالية كانت أخبار المساء تفيد أن آية الله مريض. يوم السبت ذاك، أدرت التلفاز فإذا بالمذيع يطلب منا جميعاً رفع الصلاة من أجل آية الله الخميني، وتحديداً الصلاة المخصصة لشديدي المرض. فكرت في أنه لا بد يحتضر إذا كان علينا تلاوة تلك الصلاة. في الصباح التالي استيقظت في وقت أبكر بكثير من المعتاد وتوجهت لأدير المذياع. وبعد إدارة إبرة الجهاز لدورتين علمت أنه قد رحل. إذا كنتم تعيشون في بلد مسلم وفجأة شرعت محطات الإذاعة كافة في بث تلاوة القرآن من دون توقف فإنكم لا تحتاجون إلى إعلان ليخبركم أن الزعيم قد مات.

مع رحيل آية الله الخميني كما مع وصوله عائداً من المنفى، أصابت طهران حالة من الفوضى الشاملة. ملايين من الإيرانيين - تراوح التقديرات بين أربعة ملايين وتسعة ملايين - ارتدوا زي الحداد الشيعي الأسود وتدفقوا إلى شوارع المدينة وجادّاتها يتحركون جنوباً نحو مقبرة بهشت الزهراء، حيث سيدفن آية الله إلى جانب شهداء الحرب مع العراق. راحت النساء المتشحات بالشادور الأسود يقرعن صدورهن وينتحبن ويندبن وفق الطقوس التي يمارس فيها الشيعة الحداد على شهدائهم وموتاهم منذ قرون.

ما من قوة شرطة في المدينة مجهزة تجهيزاً ملائماً للتعامل مع بحر بشري كاسح كهذا. جلسنا متسمّرين أمام شاشة التلفاز نتابع حشود الدوّامات السوداء،

ونتخيل فقط الغبار والعرق اللذين يتراكمان على جلود الناس المتحركين ككتل بشرية صوب جثمان آية الله، مصابين تقريباً بالهستيريا للمس أو جذب قطعة من كفنه الأبيض. أطلقت قوات الأمن المياه من خراطيم الإطفاء على الحشود على أمل تهدئتها وانتهاز الفرصة لحمل جثمان آية الله إلى موقع الدفن. وردّدت الحشود هتافها «ماذا ستفعل هذه الأمة من دونك؟» فيما كانت الجموع تتموّج متقدّمة نحو الشاحنة المبردة وتحيط بها.

عندما مرّ صوت محرّك مروحية تابعة للجيش من خلال الهواء، ابيضّت الكتلة السوداء إذ رفع المشيعون وجوههم صوب السماء. لقد حوصرت الشاحنة ونُقل الجثمان منها إلى متن المروحية التي طارت مباشرة إلى موقع القبر الذي كان حشد منتحب آخر ينتظر بالقرب منه. وقد التقط مصوّرٌ جسورٌ ما حدث بعد ذلك، وما أصبح واحدة إضافية من صور القرن العشرين الأكثر صموداً للزمن: جثمان آية الله الملفوف بالكفن ينزلق من النعش الخشبي الرقيق ورجله تتدلى خارج النعش. أنزل الحشد النعش، وداس الناس بعضهم بعضاً وسط نوبة من الاهتياج محاولين الحصول على قطعة من الكفن، وتفسّخ النعش في ما بدا كتشويه متعمد. وسرت لاحقاً شائعة تقول إن عناصر من منظمة مجاهدي خلق اندسوا وسط الحشد وحاولوا طعن الجثمان. ثم دوّت طلقات نارية فيما اندفع الجنود إلى إنقاذ الجثمان وإعادة وضعه على متن المروحية. وتعلق المشيّعون بقوائم المروحية التي ارتفعت وهبطت مرّات عدة لإرغامهم على النزول.

بعد بضع ساعات، عادت مجموعة من مروحيات الجيش إلى المقبرة حاملة الجثمان الذي وضِع الآن في نعش معدني، وأُنزل بسرعة إلى الناحية التي أُبعد عنها المشيعون وحيث يقف ابن آية الله الخميني، وخليفته كقائد أعلى آية الله علي خامنئي، وصاحب الوزن الثقيل والثابت في السياسات الإيرانية علي أكبر هاشمي رفسنجاني. كانوا يراقبون الحواجز الأمنية التي أُعيد بناؤها حول موقع الدفن واستنتجوا أن الجثمان يمكن أن يُدفن من دون خسارته

مجدداً. وقد أخرج الجثمان من صندوق النعش نظراً إلى أن الشيعة يدفنون موتاهم في الكفن فقط. ومرة ثانية عبر المشيعون الحواجز وقذفوا أنفسهم نحو الموقع، فأطلقت المروحيات التي تحوم في السماء خراطيم الماء عليهم. وأخيراً، وسط تنافر أصوات الصراخ ومحركات المروحيات وتداخل الغبار وخراطيم المياه، رقد جسد آية الله الخميني بطل المستضعفين ومؤسس الدولة الإسلامية والرمز الكاريزماتي لنضال العالم الثالث.

ظل مذيعو التلفزيون الرسمي يجشهون بالبكاء أثناء قراءة الأخبار ذلك المساء، لكن ردود فعل الناس لم تكن موحّدة على هذا النحو. كثيرون، مثل عشرات الآلاف الذين سهروا طوال الليل في جوار قبره، كانوا عن حق فرائس الأسى والحزن. وآخرون شعروا بالخوف أكثر من أي شيء آخر، فقد انتابهم القلق من أن موت آية الله سيسفر عن فوضى سياسية واقتتال في الشوارع. والبعض الآخر كان منكباً على التفكير، ولم يتجرأ على قول ذلك، لكنه أمل أنه بموت آية الله ربما تستطيع البلاد تعديل مسارها وأن تكون أكثر اعتدالاً.

آية الله الكاريزماتي الذي فتن الإيرانيين بهتافه المخادع في بساطته «على الشاه أن يرحل!»، قد رحل هو الآن. وحلّت مكانه زمرة من الثوريين - يفتقدون جميعاً المكانة الرمزية التي كانت لآية الله، وحضوره المسيطر- يترأسون دولة يعاني شعبها إرهاق الحرب وقد بدأ يتساءل: هل كانت الثورة وحرب الأعوام الثمانية تستحق هذا العناء؟ وبما أن الحرب قد انتهت فقد حوّلت الحكومة انتباهها إلى المسائل الملحّة التي كانت قد أهملتها في زمن الحرب ومنها التأكد أن الإيرانيين لا يخرجون بمواعيد عاطفية ولا يشاهدون محطات تلفزيونية غير لائقة.

فرضت القيادة الجديدة قيوداً اجتماعية بهمّة جديدة، بسبب شعورها بالهلع حيال تماسك قبضتها على البلاد والتوجه الذي ستسلكه ثورة موحّدة جزئياً فقط. ربما لو قُطعت صلات الإيرانيين بالعالم الخارجي، ربما لو لم يُسمح للأزواج بارتياد المقاهي، هل كانت الجمهورية الإسلامية لتصارع من أجل تعلّق

الناس بها؟ وسواء أكان الهدف غرس الخوف وردع المعارضين أم فرض تفسير متشدد وقاس للإسلام فإن النتيجة كانت هي ذاتها: لقد دسّت سياسات النظام أنفها في حياتنا، وتبعتنا إلى غرف المعيشة وجعلت من وجودنا اليومي لعبة قط وفأر للتهرب من السلطات.

لقد أزعجت شرطة الأخلاق، «الكميته»[1]، جميع الإيرانيين - المسلمين والمسيحيين واليهود الإيرانيين، وكبار السنّ والشبان- لكنّ عناصرها كانوا يتقصدون إيذاء النساء بحماسة استثنائية. وقد تعلّمنا ببطء كيفية التعامل مع سباق الحواجز الذي يُسمّى المجال العام. على سبيل المثال، يستعير شاب وشابة يتواعدان قبل الزواج ابنة أو ابن أخ أو أخت عندما يريدان قضاء أمسياتهما في الخارج، حتى يبدوا كعائلة وليتمكنا من تجاوز نقاط التفتيش من دون مضايقات. ولقد ضبطنا كل شيءفي حياتنا من شخصياتنا إلى خزائن ملابسنا، والتزمنا الحذر حيال إبداء آرائنا علناً، وارتدينا الجوارب مع الخفّين. لكنّ التحرش غالباً ما يكون استنسابياً وبلا معنى، وهذا ما يجعل من المستحيل توقّعه. وعندما تنظر أكثرية الإيرانيين إلى الوراء نحو تلك الأعوام عادة ما تكون ذكرياتها عن مشاهد مشاحنات تركتها تعاني آلاماً في الرأس وتحمل خزاناً من الامتعاض. ويتذكر البعض مواجهات جارحة لم تلتئم تماماً بعدها لا أجسادهم ولا نفوسهم.

وكان يبدو في بعض الأحيان أن الكميته تلقي الرعب في قلوبنا لأن عناصرها لا يعرفون ماذا يفعلون سوى ذلك. لم يكن أي منا يعلم ذلك فعلاً. وقد فصل الشاعر أحمد شاملو، في واحدة من قصائده المحبوبة، أنواع الأعمال الوحشية التي شهدناها منذ الأيام المبكرة للثورة، وكل مقطع شعري

(١) شكلت اللجان الثورية «الكميته» في جميع أنحاء إيران لدعم الثورة في مرحلتها الأولى لكنها أصبحت في وقت لاحق نوعاً من الشرطة المتخصصة قبل أن تُلحق بالجيش في العام ١٩٩١. م

منها ينتهي بـ«إنها أوقات غريبة، يا حبيبي». ولقد كان العام أو العامان اللذان أعقبا الحرب مباشرة شديدي الغرابة حقاً. وشعرنا بأننا ننطلق بسرعة فائقة نحو الظلام، ونحن غير متأكدين من اتجاهنا لكننا غير قادرين كذلك على إبطاء سرعتنا.

* * *

عاد بعض الإيرانيين الذين غادروا البلاد أثناء الحرب في زيارات قصيرة، لتقييم المناخ العام وتطوره. وقد وجد بعضهم، كصديقتي ثريا، أن الكميته حوّلت عملها إلى شن الغارات على مواطنيها الإيرانيين بدلاً من الجبهة العراقية. كان أهل ثريا يعيشون في قرية صغيرة مزدهرة وخصبة قرب بحر قزوين، وبعد أسبوعين فقط من انتهاء الحرب طارت عائدة إلى الوطن وتوجّهت لزيارتهم مع خطيبها واثنين من أصدقائهما الذكور. ساروا في طريق متعرج قليلاً على سبيل الاستكشاف وعرّجوا على المقاطعة الشمالية الغربية التي كانت منظمة مجاهدي خلق قد شنّت هجومها الفاشل عليها قبل أيام.

وبينما كانت سيارتهم متوقفة عند تقاطع طرق في إحدى القرى الصغيرة تقدّم صوبهم أحد عناصر الكميته وطلب إليهم بفظاظة فتح الصندوق الخلفي. على أن أحد الأصدقاء، بدلاً من أن يجلس صامتاً كما تعلّم الناس أن يفعلوا في الأعوام اللاحقة، ردّ بحدة: «افتحه بنفسك». وقبل أن يدركوا ما جرى، استدعى عنصر الكميته تعزيزات وأمر الأصدقاء بالتوجه إلى مبنى مؤقت يُستخدم كمقّر للمحكمة ومركز استجواب وثكنة للكميته في آن واحد. وقد فصلت اللجنة ثريا عن الرجال وباشرت استجوابهم كل بمفرده. وما إن كشفت المعلومات عن هوياتهم حتى استنتجت السلطات - أو على الأصح التجمع الفضفاض الذي يضم المحقق وعناصر اللجنة والقاضي الثوري، الذي يؤدي دور السلطات- أن هؤلاء من عناصر منظمة مجاهدي خلق، ولا ريب.

قالوا متشككين إن ثريا متعلمة أكثر بكثير من أن تكون مجرّد فتاة إيرانية عادية تمر في المقاطعة في طريقها لزيارة أهلها. لقد عبّأت استمارة استجوابها

بخط جميل وبنص مقنع ومنطقي. ولوّحوا بالاستمارة في وجهها كما لو كانت سكينة ملطخة بالدماء تحمل بصماتها. وعندما شرحت لهم أنها درست الحقوق وأنها تلقت تدريباً كي تفكر وتكتب على هذا النحو وبهذه العبارات هزوا رؤوسهم بارتياب. وعندما علموا أن واحداً من الرجال كان يدرس في الخارج، في بريطانيا، لم يعودوا في حاجة إلى المزيد من الإثباتات. لقد وقعت جمعية سرّية متآمرة بين أيديهم.

أبقوهم هناك يومين. وكانت ثريا وحيدة في غرفة قذرة فارغة، حيث احتجزوها في مجمّع مبانٍ منفصل وتركوها في الليل. وبعد ثمان وأربعين ساعة بدأت التأكيدات تصل من طهران. إن ثريا تعمل فعلاً في طاقم شبكة التلفزيون الوطنية. وتم التدقيق في هويات الأصدقاء أيضاً. ما من أحد من رؤسائهم أو أساتذتهم يعلم بأن لهم أي ارتباطات بمنظمة مجاهدي خلق على الإطلاق. في وسعكم تخيّل أن هذه المصيبة المفاجئة قد توقفت هنا. لكن لماذا يجب أن تتوقف؟ لقد أوقفوا بناء على نزوة، واعتقلوا بناء على شبهة لا أساس لها؛ ومن الواضح أنهم تعرّضوا للتحرّش في سبيل التحرّش. كانت هذه فرصة لتنفس الكميته عن غضبها حيال مجاهدي خلق، وتوجهه نحو إيرانيين ذنبهما أنهما غادرا البلاد، ونحو امرأة ذنبها أنها متعلمة وبرفقة رجال ليسوا أشقاءها.

استدعاهم القاضي، وهو رجل دين قذر الملبس يجلس وراء منضدة غير متقنة الصنع، واحداً بعد الآخر. «أرسلوا لي أولاً الإنكليزي» مشيراً إلى من درس في الخارج. ثم استدعى ثريا التي كانت شابة جميلة حقاً. وهمس: «أليس من العار لفتاة ذكية مثلك أن تذهب إلى السجن، وأن تتسكع مع هؤلاء الشبان؟ إذا اعترفتِ أخذتك زوجة مؤقتة لي».

فصلوهم مجدداً بعضهم عن بعض في جلسات الاستجواب، وحاولوا إرغام ثريا على الاعتراف بإقامة علاقات جنسية مع جميع الرجال. قال المحقق ساخراً: «لقد قالوا جميعاً إنهم كانوا معك. أما بالنسبة إلى خطيبك المفترض فقد قال إنه ينام معك فقط وإنك لا تعنين شيئاً له». عند هذه النقطة كادت ثريا

أن تفقد صوابها، بسبب الليالي التي أمضتها بلا نوم، حيث ظلت مستيقظة جرّاء خوفها وجرّاء طنين الناموس، وصرخت باكية: «اجلبه إلى هنا. ليقل هذا في وجهي».

في نهاية المطاف استدعاهم القاضي لجلسة أخيرة. وعلى الرغم من أنهم أخفقوا في أن يكونوا جواسيس، كما فشلوا في أن يكونوا من عناصر مجاهدي خلق، وفشلوا في أن يشكلوا أي تهديد للنظام أو للبلاد، يمكنهم على الأقل أن يعاقبوا لاستهزائهم بالقانون الإسلامي من خلال ظهورهم علناً، وهم غير متزوجين وما من قرابة نسب بينهم.

قال القاضي مومئاً برأسه صوب ثريا: «أنتِ، أربعون جلدة». فحدّقت فيه مصدومة. كان يأكل، وطبق الشيلو كباب يتلألأ بالدهن أمامه.

همست باستهجان: «هل أنت قاضٍ؟ لأنك لو كنت قاضياً لأنهيت طعامك قبل أن تصدر الحكم؟ أم هل تريد بشدة أن أجلد إلى الحد الذي لا يمكنك معه الانتظار حتى تفرغ من الطعام؟ لماذا كل ما تعرفونه من القرآن هو الجلد والضرب بالسياط؟ هل تجنبتم كل ذلك الجزء في البداية عن الرحمة والعطف؟ هل تعلم أنه وفق القانون الإسلامي لا يمكن أن أجلد سوى من قبل امرأة؟».

بدا مصعوقاً. ما من مجال للجدال في النقطة الأخيرة. الشريعة الإسلامية تقضي بألا يُنزل العقاب الجسدي بامرأة سوى امرأة. لقد ازرقّ لونه ولقّنته امرأة درساً قاسياً، وصحّحت أقواله في شأن عقوبة كان يوزّعها جزافاً، أثناء تناوله الغداء. ولم يكن من امرأة متوافرة لجلد ثريا، لذا حوّل القاضي غضبه نحو خطيبها. نبح قائلاً: «ثمانون جلدة له. وخذها معك حتى تستطيع المشاهدة».

أخذوا خطيب ثريا إلى الغرفة المجاورة مدّدوه على الأرضية العارية. ثم أخرج أحدهم سلكاً كهربائياً، وبطبيعة الحال لم يكن ممكناً أن يضع قرآناً تحت ذراعه، ليخفف الضربات، كما يُفترض. ففي روح الشريعة تكمن القيمة الردعية للجلد في الإذلال وليس في الجروح التي تصيب اللحم؛ ومدارس التفسير الكبرى تقول بأن على الجلاد إبقاء مصحف تحت الذراع التي

يستخدمها في الجلد، حتى لا ينسى أبداً هذه النقطة. وفي الحالة الراهنة، لم تبدِ الكميته اهتماماً بروح أي شيء غير ميلها إلى الانتقام.

بعد الضربة الثلاثين نضح الدم من قميص خطيب ثريا. وبعد الضربة الخمسين بدأ بالصراخ، وحينها راحت ثريا تقرع باب غرفة القاضي بقوة. صرخت: «ستعاقَب على هذا. أعدك! . إذا لم أعد ذات يوم وأقتلك بنفسي، ستعاقب بطريقة ما أيها الحيوان».

يرسم هذا الحادث، على ما أعتقد، صورة الأسلوب الذي كانت الكميته تعمل به طوال أعوام. تحرّشوا بالناس لأنهم رغبوا في ذلك، وبحثوا عن الذرائع لإخافتهم، وعندما لا يعثرون على أي منها كانوا يختلقونها. كانت نظرة ساخطة أو كلمة غير مناسبة أو أبسط حالة من حالات الدفاع عن النفس تولّد لديهم غضباً عظيماً. وقبل أن تدركوا الأمر تُحتجزون لثلاثة أيام من أجل الاستجواب، وتوجّه إليكم اتهامات من أي نوع كان تراوح بين الزنى والخيانة الوطنية. أعتقد أنه في تلك الفترة، أي الأوقات الغريبة التي أعقبت الحرب مباشرة، بدأ الإيرانيون يلاحظون الندوب العاطفية التي أنزلها وجود الكميته في حياتهم. لقد أذل الأزواج أمام زوجاتهم والأمهات أمام أبنائهن. وغالباً ما لا يقيم الناس صلات بين ما يواجهه كل منهم، مفضلين الاحتفاظ بعارهم لأنفسهم، لكن كما أن لجميع الإيرانيين تقريباً نسيباً ما قُتل في الحرب أو في الإعدامات ضد منظمة مجاهدي خلق، فإن الكل تقريباً يعرف شخصاً اعتُقل أو جُلد أو أُهين بطريقة علنية على أيدي الكميته.

***

في بعض الأحيان توفّر حملات الكميته مادة طازجة لحسّ الدعابة عندنا الذي أصبح قاتماً بالفعل. ربما هي النعمة المنقذة في تلك الأوقات الغريبة التي جعلت شرطة الأخلاق تضع الجميع أحياناً - المعاقِب والمعاقَب - في مواجهة سخافة الوضع. أمي وابنتاي لا يسمحن لي أبداً بنسيان ما جرى ذات شتاء عندما حاولنا الذهاب للتزلج في ديزين، المنتجع الخلاب الواقع على بعد ساعة

بالسيارة خارج طهران. كنا قد بدأنا نقضي بضعة أيام من كل عام هناك، حتى تتعلم الفتاتان التزلج. والتزلج رياضة تتطلب طبقات عدة من الملابس، وبدت كأنها مقبولة إلى حد ما من الحكومة. في تلك السنة قررنا ألا نذهب بسيارتنا بل أن نستقلّ حافلة من وسط طهران إلى المنحدرات مباشرة. خرجنا قبل الفجر واستقللت مع الفتيات الحافلة المخصصة للنساء ولوّحنا لجواد الذي اختفى وسط حافلة الرجال. عند أحد الحواجز على الطريق التي تعصف بها الريح ويغطيها الثلج والمفضية إلى ديزين ذكّرت السائق أنني وابنتيّ لن نعود على متن الحافلة ذاتها، حتى لا يشملنا في التعداد عند العودة. أثار شيء ما في هذه الملاحظة الشبهة، وأنزلنا الضابط عند الحاجز من الحافلة.

شرحت له قائلة: «إن زوجي في حافلة الرجال وسنبقى هناك لبضعة أيام». وعبر نافذة الحاجز التي يغطيها البخار استطعت رؤية حافلات الرجال تتسلق الطريق صوب الجبال، ولم يكن من سبيل للوصول إلى جواد ليؤكد قصتي. أجاب الضابط المسؤول غير مبال: «يا سيدة، تحتاجين إلى موافقة أهلك لتتمكني من قضاء الليل خارجاً».

حدّقت فيه مشدوهة. كانت الفتاتان تقفان بالقرب مني. قلت: «لديّ ابنتان. وبطبيعة الحال فإنني لا أعيش مع أهلي. لقد مرت حافلة الرجال، لذا ما من شيء أستطيع فعله».

قال بعناد: «آسف. لا أستطيع السماح بتحرك الحافلة». حدّق فينا بانفعال عشرون زوجاً من عيون الإناث عبر نوافذ الحافلة.

قلت: «هذا عمل سخيف. وليس من العدل في شيء بالنسبة إلى الآخرين على متن هذه الحافلة».

تنهد قائلاً: «ثمة حل واحد».

تساءلت هل سيعيدنا إلى طهران؟

لقد أضاف: «عليّ أن أتصل بوالدتك لأرى ما إذا كان لديك الإذن بالذهاب للتزلج».

عند هذه النقطة شعرت بالشحوب يعلو وجهي، لكنني فكرت في النساء الجالسات في الحافلة في الصقيع ووافقت.

قلت «لكن دعني أتحدث إليها أولاً». فأمي تعاني مرضاً في القلب، ولو أن شرطياً اتصل بها فجراً بشأني لأصيبت على الأرجح بنوبة قلبية على الفور.

وهكذا أُجبرت وأنا في الخامسة والأربعين من عمري على الاتصال بأمي والقول: «ماما، هل في وسعك أن تقولي لهذا الرجل أنه مسموح لي بالذهاب إلى التزلج».

أخذ سمّاعة الهاتف مني وقال: «سيدتي، هل تدركين أن ابنتك التي تحمل اسم شيرين لن تعود إلى البيت لأربع ليالٍ؟». قالت: «نعم». أغلق الخط. وصرنا تقريباً خارج الباب عندما توقفت. وسألت: «بالمناسبة، كيف تعرف أنها أمي حقاً؟ كيف تعرف أنه لم يكن رقماً مزيفاً؟».

نظر إليّ مصدوماً. تلقيت لطمتين على جانبيّ من مرفقين في وقت واحد. ووجهت نيغار إليّ نظرة حادة مفادها: هل تريدين حقاً تذكيره.

هز كتفيه غير مبال: «حسناً، يقول القانون إن عليّ الاتصال، لذا اتصلت».

وبينما كنا نصعد إلى متن الحافلة مقهقهات، وسائرات إلى جانب حافة الوادي، نظرت إلى أشجار الصنوبر التي تسترق النظر من تحت الثلج، وفكرت في أن قوانيننا قد أصبحت من جنس الأشباح. الأشخاص الذين يجسّدون القانون - المحامون والقضاة ورجال الشرطة- هم وحدهم الذين يحددون معنى الالتزام بالقانون، وبمعزل عن ذلك لا تزيد القوانين على كونها كلمات على الورق.

عندما عدنا إلى طهران، ظلت أمي تلاحقني بسخريتها لعام كامل. كانت تقول: «في المرة المقبلة عندما يتصلون بي يا شيرين سأقول لهم لا!».

* * *

غالباً ما كانت القيود التي واجهتها النساء في أوائل التسعينيات تتطور -

على غرار الحظ العاثر في رحلة التزلج تلك - إلى مواجهات كريهة وإلى مضيعة للوقت بين شبان يتكلمون بغلظة مع نساء أكبر منهم في العمر بما يكفي ليكنّ أمهاتهم. وفي كثير من الأحيان كانت شرطة الأخلاق تتحوّل إلى سلطة مخيفة وشبيهة برجال العصابات. وقد اكتسبت بعض الساحات في أنحاء طهران سمعة سيئة بسبب دوريات الكميته والأساليب التي كانت فاعليتها تتزايد على نحو مقلق بمرور الوقت لتتلاءم مع تقنيات النساء في التضليل. وعلى سبيل المثال، إذا لاحظت امرأة تسير في الشارع دورية للكميته عن بعد فعليها بسرعة أن تسحب حجابها إلى الأمام ليغطي شعرها وأن تمسح أي نوع من التبرج تكون قد وضعته. لذا توسعت شرطة الأخلاق لتشمل نساء بثياب عادية يخفين أجهزة اتصال لاسلكية تحت شادوراتهن ويتصلن لاستدعاء عناصر الكميته من الذكور وحافلاتهم الصغيرة لتطويق النساء الغافلات.

صار المجال العام - من متجر البقالة إلى المتنزه إلى محطة الحافلات- بالنسبة إلى النساء محفوفاً بالغموض. أنتم ببساطة لا تعلمون أين وفي أي ساعة وبأية ذريعة قد تتعرّضون للتحرش، وغالباً ما تثير المواجهات مع الكميته الانزعاج والذعر. وبعد أن أوقفتُ مرة أو مرتين بسبب «الحجاب السيّئ»، أو الرداء الإسلامي غير المناسب، استنتجتُ أن ليس هناك ما يمكن القيام به لحماية نفسي من دولة تتمنى ببساطة أن تفرض مناخاً من الخوف. واعتقدت أن هذا هو الهدف النهائي، خوف متفشٍ إلى الحد الذي تبقى معه النساء في البيت، المكان الذي يعتقد الرجال الإيرانيون التقليديون أن النساء يجب أن يكنّ فيه.

أوقفتُ للمرة الأولى بعد ظهر يوم ربيعي مشمس في رمسار، وهي بلدة صغيرة قرب بحر قزوين، حيث كنا نذهب أحياناً للاحتفال برأس السنة الفارسية. كنت أرتدي بالفعل سترة طويلة وسروالاً فضفاضاً وأضع غطاء للرأس عندما تقدم مني ضابط شرطة وخاطبني بخشونة: «اصعدي إلى الحافلة الصغيرة»، مشيراً إلى سيارة نقل بيضاء متوقفة بالقرب منا. وعندما اعترضت

قبض على ذراعي وجرّني عبر الشارع ودفعني إلى داخل الحافلة. كانت ثلاث نساء تعسات أخريات قد سبقنني إلى التجمع على المقاعد. إحداهنّ معلّمة متقاعدة أوقفت لانتعالها خفاً.

«قدماي متورّمتان لا أستطيع انتعال حذاء» صرختْ في وجه الضابط الذي كان يمشّط الساحة بحثاً عن طرائد إضافية. وتابعت: «أين ورد في القرآن أن انتعال الخفّ جريمة؟».

وكلما ارتفع صراخها ازداد انفعال الضابط. وأخيراً تخلى عن فكرة ملء الحافلة الصغيرة وتوجه ببساطة إلى مقر الشرطة. وضعونا في غرفة وطلبوا إلينا البقاء هناك إلى أن تأتي شرطية «لإرشادنا». ويعتقد المسلمون، وفق المفهوم التقليدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن من واجبهم مساندة الفضيلة وإحباط الرذيلة من خلال مراقبة سلوك أفراد الجماعة التي يعيشون فيها.

قعقع الباب أثناء فتحه ودخلت بخطوات واسعة فتاة تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ترتدي شادوراً أسود. لقد وصلت مرشدتنا، ومن كلامها الموجز وغير الفصيح بدا واضحاً أنها أمّية.

أعلنت: «سأتلو عليكن قصيدة لحضرة فاطمة». وكانت فاطمة ابنة النبي محمد مثال الامرأة المتفانية والتقية.

وبدأت الإلقاء: «أيتها النساء! فاطمة تتوجه إليكم بما يلي: أثمن تاج للمرأة حجابها». ثم سكتت وراحت تتأمل وجوهنا وقد شعرت على ما يبدو بالفخر.

«اعذريني، لكن حضرة فاطمة لم تكن شاعرة» أوضحت معلمة المدرسة. وادّعت المرشدة أنها لم تسمعها، وأدلت ببعض الملاحظات المبهمة حول يوم القيامة والجنة وجهنم. وبدا عليها أنها فوجئت عندما لم نلاحظ أن عظتها المفككة قد انتهت.

قالت: «حسناً، ما الذي تنتظرنه؟ يمكنكنّ الذهاب الآن». لقد تم إرشادنا رسمياً.

وبينما أنا جالسة هناك على الأرضية المتسخة لمقر الكميته في تلك البلدة الساحلية، أصغي إلى خطاب رنّان تلقيه فتاة تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، صدمني أن تكون مرشدتنا ظاهرة حقيقية من ظواهر الجمهورية الإسلامية. لو كنا في عهد الشاه، لظلت هذه الشابة في بيتها تغسل أو تقطّع شيئاً ما، ولما كان في وسع الحكومة أن تصل إليها، حتى لو أرادت، ولاستخدم أهلها الريفيون شرفها كذريعة لإبقائها في البيت. لقد وصلت الثورة هذه إلى النساء اللواتي يشبهن المرشدة. واحتاج النظام الإسلامي في أيامه الأولى إلى أصوات النساء من الأسر التقليدية وأغراهن بالتوجه إلى صناديق الاقتراع. أخبرهن رجال الدين: «إنكن إذا صوتّن تكنّ قد ساعدتنّ الإسلام». ومنح هذا الأمر نساء الأسر التقليدية ثقة بالنفس لا سابق لها، وأدركن أمراً يخالف ما كنّ يفترضنه، وهو أنهن يساوين شيئاً خارج بيوتهن. إن أصواتهن تحتسب. وفي وسعهن القيام بدور ما.

في تلك الأعوام، كانت الانتخابات تعمل في الأغلب كأداة شعبية لتثبيت شرعية النظام. وحتى في حكم الشاه كان صندوق الاقتراع مفهوماً غريباً بالنسبة إلى أكثرية الإيرانيين. كان البلاط يوافق مسبقاً على لائحة المرشحين، وما من أحد يفاجأ بالنتائج نظراً إلى النقص في المنافسة. لقد خدم أحد أقاربي في البرلمان أثناء حكم الشاه ولم يزر المنطقة التي من المفترض أنه انتخب عنها أكثر من مرتين. ولم يمتلك الناس فهماً خاصاً لما كانت تعنيه الانتخابات، ولهذا السبب عندما اقتيدوا للاقتراع في انتخابات الجمهورية الإسلامية لم يكونوا يفهمون كثيراً عن العملية الانتخابية. أتذكر مقابلات بثها التلفزيون مع أشخاص كانوا يقفون في الصفوف في تلك الأيام المبكرة من الثورة وعندما يسألهم المذيع: «لمن ستدلون بأصواتكم؟» كان الكثير منهم يقولون ببساطة: «لانتصار الإسلام بطبيعة الحال!».

كان الناس غير متآلفين مع الثوريين في صناديق الاقتراع بيد أنهم استجابوا لدعوات المساجد - «صوّتوا ليرضى عنكم إمام الزمان» - وخرجوا في أيام

الانتخابات. كان في وسعهم الاختيار بحرية بين مرشحين مجهولين، وآمنوا بشرعية العملية على الرغم من أنهم كانوا على الأرجح غير مبالين بالنتائج. وبمرور الوقت ازداد إدراك أهمية العملية الانتخابية؛ وفهم الناس ببطء أنهم يختارون ممثلين عنهم سيقومون بتشريع سياسات تؤثر في تفاصيل حياتهم، وباتوا يولون خياراتهم اهتماماً أكبر. ومن المحزن أنه في بداية التسعينيات، عندما بدأ الإيرانيون يقبضون بأيديهم على الانتخابات التي ضمنت لهم كلمة مؤثّرة في كيفية إدارة البلاد، صدر قانون يمنح هيئة غير منتخبة من رجال الدين تُعرف بـ«مجلس الأوصياء» سلطة التدقيق في المرشحين إلى الانتخابات البرلمانية والرئاسية؛ وفقد الإيرانيون بهذا القانون حقهم في اختيار ممثليهم بحرية. وظلت الانتخابات تنافسية ولم تتسم قط بسِمة المهازل التي ترافق الانتخابات في الديكتاتوريات المجاورة لإيران، لكنها لم تعد تعكس إرادة الشعب الحقيقية.

وظل مجرد الاقتراع عملاً رمزياً قوياً بالنسبة إلى النساء الأميات أو الجيل الأول من النساء اللواتي ذهبن إلى المدرسة. تلك القناعة بأن في وسع المرأة أن تؤدي دوراً في المجتمع هي ما أهّل فتاة ريفية في الثامنة عشرة من عمرها أو ربما أقل، أن تلقي عليّ تلك العظة الرديئة، أنا التي شغلت مرة منصب قاضية والمرأة التي تجاوزت الأربعين من العمر. ولن أفاجأ إذا ما كانت قريبات هذه الفتاة يرتدن الكليات، حيث أصبحت الجامعات إسلامية في تلك الأعوام، ومكرّسة لتربية نساء مثل هؤلاء. تتوجه الفتيات إلى الصف وهنّ يضعن الحجاب ويجلسن في قاعات منفصلة، حتى طاولات الغداء في المقصف منفصلة. إذا كانت الجامعات أوكاراً للخطيئة في عهد الشاه، فما هي عليه اليوم؟ لقد أعيد تأهيلها! وهي صحية! لم يعد من عذر لرب الأسرة البطريركية لإبقاء بناته خارج المدرسة. أولئك الفتيات اللواتي وجدن أنفسهن شيئاً فشيئاً في قاعات الدراسة وبعيداً عن أهلهن في المساكن الجامعية في طهران. جيل من النساء اللاتي كانت أمهاتهنّ مقيّدات إلى البيت وجدنَ أنفسهنّ في المدن

يقرأن الكتب. وببطء صار من العادات المتوافقة مع العصر أن تتوجه بنات الأسر التقليدية إلى الكليات.

لم يكن ثمة حديث، بطبيعة الحال، عن المساواة بين الجنسين (أو النسوية): «نسوي» ما زالت كلمة تحقيرية يستخدمها الأصوليون ضد كل من يشكك في التشريع القانوني ذي السمة التمييزية، مثلي أنا. وكان من المبكر جداً ظهور حملة على مستوى القاعدة للدفاع عن حقوق النساء. ولم تكن أكثرية النساء لتدعم مفاهيم كهذه نظراً إلى أنهن ما كدنَ يلمسنَ آفاق الفرصة، وآفاق مسألة حقوقهن. يبزغ الوعي أحياناً ببطء؛ وفي طريقه يخطئ بارتكابه التهويل في سبيل التحول إلى سلطة، والاستحواذ على الفرصة من أجل الحقوق المتساوية. لكن في ذلك اليوم رأيت العملية وقد بدأت، ليس من دون بعض الألم، بطبيعة الحال، فالتيار الذي سيدفع المرشدة إلى الكلية كان هو ذاته الذي أطاح بي من القضاء.

أنتج توسيع التعليم الجامعي ليشمل كل النساء توتّرات كبرى في قلب العائلات. إذ لا تميل فتاة جرى تشجيعها على الإدلاء بصوتها في الانتخابات والتحقت بالكلية إلى إطاعة أبيها ببلاهة. وقد وفّر لي جيراننا المباشرون مثالاً حياً وطويل المدى عن هذه الظاهرة. قبل الثورة مباشرة، عقد الأب الشديد التديّن قران ابنته الكبرى على «بازاري» (يشير هذا التعبير إلى التاجر أو البائع الذي يأتي من خلفية تقليدية عميقة) أشد ورعاً منه. وأرغمها البازاري من دون إبطاء على ارتداء الشادور، ومنعها من زيارة أحد حتى أهلها من دون أن تكون في رفقته. وقد شعرت الفتاة المسكينة بالتعاسة وباتت تمضي أيامها الطويلة مهجورة في البيت تنتظر زوجها المتشدد ليعود في المساء ويصطحبها إلى منزل أهلها. كانا يتشاجران بمرارة. وعلم الأهل أنني كنت قاضية وأنني مسلمة ملتزمة بواجباتي الدينية، لذا غالباً ما كانوا يدعونني إلى تقديم النصح لهم حول كيفية مساعدة ابنتهم.

تطلّب الأمر مني بذل غاية الجهد لعدم الصراخ في وجه هذا الرجل

المتناقض الذي يشعر بالقلق حيال سعادة ابنته لكنه يظل في المقام الأخير وفياً لشرفه، الذي يحدده على غرار أكثر الرجال التقليديين عبر التزام ابنته بالفضيلة. في وسط جلستنا، كنت أسمع نشيجاً يصدر من غرفة نوم الابنة الثانية. سألت أخيراً ذات مساء: «لِمَ هي مستاءة؟». قالت الأم موجهة نظرة تُضمر الشر إلى زوجها: «تريد أن تذهب إلى الكلية. لكن أباها لا يسمح لها».

قال مدافعاً: «ماذا؟ هل عليّ أن أرسل ابنتي لتجلس في صفوف مع نساء يُظهرن شعرهنّ حتى يستطيع الفتيان العبث معها؟».

جاءت الثورة متأخرة جداً بالنسبة إلى الابنة الثانية. لقد جرى تسليمها إلى رجل أقل تصلّباً من زوج شقيقتها الكبرى، لكنه مع ذلك كان عنيداً في إصراره على أن ما من امرأة يتزوجها يمكن أن تتخلى عن المطبخ من أجل قاعة الدراسة. وتزامن تخرج الإبنة الأصغر من المدرسة الثانوية تماماً مع الثورة الإسلامية. وحصل الأب لنفسه بعد الثورة على وظيفة حكومية مجزية، حيث كان التباهي بالتقوى في تلك الأيام يكفي ليملأ ملخّص سيرة شخصية. وبعد أن أصبح الآن مسؤولاً رسمياً في الجمهورية الإسلامية، وهي دولة دينية قامت بفصل الذكور عن الإناث في قاعات الدراسة للحفاظ على الأخلاقيات في الجامعات، لم يعد الأب قادراً على التشبّث بحججه الزائفة عن الطبيعة الفاسدة للتعليم. وقد التحقت الابنة الصغرى بكلية الطب وتزوجت واحداً من زملائها في الصف، وهو رجل من اختيارها.

وطوال عقد التسعينيات كان عدد النساء اللواتي يحملن شهادات جامعية يرتفع بثبات. وأخيراً، بدأ عدد النساء يزيد على عدد الرجال في الجامعات بهامش ضئيل. لم يكن هذا إنجازاً صغيراً لبلد يقع في الشرق الأوسط وذي ثقافة ما زالت أبوية حتى النخاع. في أفغانستان المجاورة حظر الطالبان على النساء القراءة، وعبر مياه الخليج في السعودية تُمنع النساء من قيادة السيارات. بيد أن ما حققته الجمهورية الإسلامية ألقى الرعب في قلوب مؤسسيها. لقد سعى رجال الدين التقليديون من دون نجاح إلى الانقلاب على هذا المنحى

الخطر من خلال جعل الانتساب إلى الجامعات يخضع لنظام حصص حسب الجنس.

على أن المساواة في التعليم لم تُترجم، ويا للأسف، إلى مساواة في الحقوق أو في الفرص المهنية. لقد أرغمت الحرب المديدة الحكومة، في النهاية، على حشد النساء، وتم تجنيدهن للعمل في المغاسل والمطابخ الكبرى التي كانت تعمل لمصلحة جبهات الحرب. لكن في ذلك الوقت، سمح التقليديون للنساء بالعودة إلى المجال العام في النواحي التي تخدمهم فقط. أما المواقع الإدارية التي يجري فيها صنع القرار، إلى جانب مؤسسات برمّتها كالقضاء، فقد ظلت في منأى إلى حد بعيد عن النساء. والنساء اللواتي يشبهن ابنة جيراننا واللواتي توسّع عالمهن بالانضمام إلى الجامعة وجدن أنه يتقلص مع خروجهن منها. فلم تستطع الجمهورية الإسلامية، ببساطة، أن تُنتج ما يكفي من الوظائف لاستيعاب قوتها العاملة المتنامية، والوظائف المتاحة كانت تُخصص في الغالب للرجال. وعلى الرغم من أن عدد النساء المتعلمات فاق عدد الرجال المتعلمين فإن نسبة البطالة بين النساء أعلى بثلاث مرات. لم يقلّص الحق في التعليم التمييزَ على أساس الجنس الراسخَ في ثقافتنا كما في مؤسساتنا. بيد أنه غرس شيئاً في النساء الإيرانيات سيؤدي على المدى الطويل، على ما أعتقد، إلى تغيير إيران: إنه الوعي العميق بالاضطهاد الذي يتعرضن إليه.

أولئك النساء المتعلمات اللواتي يتخرجن في الجامعات الإيرانية لن يكنّ جميعهن راضيات بالانزلاق مجدداً إلى أدوارهن التقليدية، وبوضع شهاداتهن الجامعية على الرفوف والادعاء أن توقعاتهن مما ستقدمه الحياة لم تتغير. هذا الوعي الجديد وخيبات الأمل تلك جرّاء عدم تحقق التوقعات - وهي لم تتحقق لأن آباءهن وأزواجهن لم يمروا بتحوّل مشابه للذي مرت النساء به- أسفرت عن صدامات مؤلمة وأحياناً مأساوية مع العائلة. أذكر أني قرأت في الصحيفة ذات يوم، بعد سنوات، عن إحراق ابنة أحد خطباء صلاة الجمعة في مقاطعة

أذربيجان لنفسها. لقد سعت المرأة التعيسة في زواجها إلى أن تطلق زوجها، ورفض أبوها وهو رجل دين متشدد، بحسب ما ورد في النبأ. وفي مواجهة حياة ستمضيها رهينة زواج فظيع سكبت المرأة الوقود على نفسها وأضرمت النار فيها. فكّرت في أن هذه المرأة لو كبرت أثناء حكم الشاه لورثت ربما الإذعان المحافظ ذاته السائد في تلك الخلفية الاجتماعية، ولبقيت أسيرة ذاك الزواج الرديء، عوض أن تختفي في محرقة صنعتها بنفسها، ولفكرتْ ربما أن العالم هو هكذا فقط، وهذا هو المكان المحدد فيه للنساء.

لقد ناصرت الجمهورية الإسلامية من دون قصد النساء التقليديات، لكنها تركتهن أيضاً بقسوة بالغة في وضع شديد الهشاشة، فقد أُعطين وعياً جديداً بحقوقهن لكن أدوات تحقيقها ودفعها قُدماً كانت غاية في البدائية. يعتقد البعض أن عيشهن في تلك الظروف، والإبقاء عليهن في العتمة جاهلات بقدراتهن، نعمة بالنسبة إليهن. إن ابنة خطيب الجمعة ليست حالة فردية. فقد ارتفع معدّل الانتحار، الذي يأخذ عادة شكل إحراق النفس بين النساء بعد الثورة الإسلامية. وإنني على قناعة بأن هذا العرض المأساوي هو أسلوب النساء في إرغام مجتمعهن على مواجهة اضطهادهن الوحشي. وإلا، أليس من الأسهل تناول جرعة زائدة من الحبوب ببساطة في غرفة مظلمة؟

* * *

غيّرت الجمهورية الإسلامية مسارها بهدوء بعد حوالى العامين من فترة ما بعد الحرب. حتى الايديولوجي الملتحي الأكثر تزمّتاً أمكنه أن يرى إلى أين أوصلت البلاد سياسات الثورة - تهميش النساء وجدول الأعمال المؤيد للإكثار من المواليد عبر حظر أساليب منع الحمل. وبات واضحاً بما يكفي في ذلك الوقت أن الاقتصاد الإيراني لا يمكنه إسناد السكان المتزايدة أعدادهم بسرعة، والذين قفز معدّل نموّهم ليصبح الأعلى في العالم. وقد استخلص قادة النظام أن إيران تحتاج إلى التكامل مع الاقتصاد العالمي أو تجازف بالتحول إلى دولة فقيرة من دول العالم الثالث حقاً. وبدت الخصخصة والتركيز مجدداً على

التصنيع بدلاً من الزراعة وجذب الاستثمارات الأجنبية أولويات جديدة بالنسبة إلى الدولة. وكان ثمة عقدة واحدة: ليس لدى إيران المعرفة ولا قاعدة الموارد البشرية لتلبية طموحات كهذه. لقد غلّفت الجمهورية الإسلامية النساء بالأغطية وألصقتهن بالمطابخ. وهي في حاجة الآن إلى إعادة بناء نفسها في أعقاب حرب مدمّرة، وتحتاج إلى استعادتهن.

وكجزء من هذه البراغماتية الاضطرارية، لانت المؤسسة القضائية وسمحت للنساء بالبدء بممارسة القانون. وقد وفّرت لي جمعية المحامين الإيرانيين إجازة عمل، وأنشأت مكتباً في شقة تقع تحت سلالم المبنى الذي نقيم فيه، وباشرت لقاء الموكلين. وشغلت أيامي القضايا التجارية، وأحياناً كنت أقبل قضية تتعلق بالشأن العام وهو عادة أمر حساس سياسياً على نحو ما. وسرعان ما رأيت، بعد توجهي إلى المحكمة مع موكليّ والتقاضي في عدد من القضايا، أنني أمام نظام قضائي اسميّ فقط. وتصوّرت أنه في القضايا التجارية على الأقل لا يمكن أن تتسرب سياسة وإيديولوجية الجمهورية الإسلامية إلى التشريع. لكن عوضاً عن ذلك انتصر الفساد. وكمحامية كانت مهمتي أن أدفع قضية موكلي قُدماً - لأستعيد ماله أو ملكيته أو للدفاع عنه في وجه اتهامات ظالمة. وحضر إلى مكتبي غير مرة موكّل باسم الوجه راجياً الإبلاغ أن جهة الادعاء وافقت على تسوية مقابل رشوة بعيدة عن الأنظار. ما الهدف إذاً من التعرّف إلى القانون الخاص بالدعوة وإعداد دفاع؟ بل ما الهدف من الذهاب إلى قاعة المحكمة والزعم أنني أعمل وفق عملية قانونية، في حين أن الجميع يتوصلون إلى صفقات تجري في غرف المحكمة الجانبية؟ وفي مناسبتين، وعندما لم يعد لدى القاضي ما يقول، كان يعلن أن خصلات من شعري تبرز ويؤجل المحكمة على أساس «الحجاب الرديء» الذي أضعه.

فكرت أننا قد تدبّرنا أمرنا طوال أعوام من دون مدخولَين، وأننا نستطيع أن نفعل ذلك مجدّداً. لم أكن أعمل لمجرد الأجر ولكن لأشعر بأنني أنجز شيئاً ما على المستوى الشخصي، ولكي أطبّق معرفتي وأقدّم مساهمة إلى بلدي الذي

اخترت أن أبقى فيه. وبقبولي القضايا التجارية، وُضعت في موقف إما أن أتخلى فيه عن مبادئي أو أتسبب بالفشل لزبائني. ولم يكن أي من الخيارين مقبولاً بالنسبة إليّ. وكانت هذه هي النقطة التي اخترت عندها التخلي عن القانون كعمل يجلب لي مدخولاً وأن أتولى حصرياً القضايا المتعلقة بالشأن العام، حيث يمكنني على الأقل أن أبيّن ظلم قوانين الجمهورية الإسلامية. كان ذلك نظاماً تحتاج قوانينه إلى المحاكمة قبل أن يمكن تغييرها.

أدركت أن عليّ اختيار القضايا التي توضح ارتداد التمييز القانوني للحكم الديني ضد النساء. وفي وسعي أن أتلو فيضاً من القوانين الجديدة بالاعتراض عليها - حياة المرأة تساوي نصف حياة الرجل، حضانة الطفل بعد فترة الطفولة المبكرة تؤول آلياً إلى الأب - إلى أن يتوقف نَفَسي. بيد أن قصة شخصية تبقى أقوى من أي إيجاز للسبب الذي يبرر المطالبة بتغيير قانون ما. ولجذب اهتمام الناس، ولالتماس تعاطفهم ولإقناعهم أن هذه القوانين ليست ظالمة فقط وإنما هي غير طبيعية أيضاً، كان عليّ أن أروي القصص. والثقافة الإيرانية، مع كل انشغالها بالشرف والعار، ومع كل القوانين الأبوية التي أسفرت عنها، تنطوي على حساسية بالغة حيال الظلم. ففي نهاية المطاف قدّمت الثورة ضد الشاه نفسها إلى روح الجماعة على أنها قتال ضد الظلم والاضطهاد؛ كانت ثورة قامت باسم المستضعفين والمحرومين. وينبغي أن يرى الشعب الآن كيف أصبح المحرومون هم الذين يَحرمون.

الفصل السابع

من غرفة المعيشة إلى قاعة المحكمة

اختفت ليلى فتحي في يوم مشمس من العام ١٩٩٦ عندما كانت تجمع الزهور البرّية على التلال الواقعة خلف قريتها، قرب مدينة سنندج الكردية الشمالية الغربية. كان أهلها، على غرار الكثيرين من سكان المنطقة، يكافحون لتأمين معيشتهم، وليلى البالغة من العمر أحد عشر عاماً، كانت تجمع النباتات والزهور البرّية التي تقوم العائلة بعد ذلك بتجفيفها وبيعها في السوق المحلي. وقد خرجت مع ابن عمها يحملان سلتين من القش في الساعات الأخيرة من الصباح وتوقفا عن جمع النباتات ليلعبا بين الأعشاب الطويلة. وبما أنهما نشآ قرب سنندج حيث يقوم الناس بالنزهات الجماعية في الخارج، ويعقدون حفلات الزفاف تحت السماء المفتوحة، ويرقصون قرب ضفاف الأنهار، فقد ركضا كما لو كانت التلال امتداداً لغرفة معيشتهما الضيقة، في غياب أي يقظة فطرية مثل التي يمتلكها أطفال المدن. ولم تلاحظ ليلى، فيما هي منحنية لملء سلتها بتويجات الزهور، الرجال الثلاثة المقتربين. لقد ظهروا من وراء التلة وتحركوا بهدوء إلى أن أصبحوا فوقها تقريباً، ثم أطبقوا عليها بسرعة. لوى الأول ذراعيها الرقيقتين وراء ظهرها فيما حاول الثاني أن يضم ساقيها معاً. وتمكن ابن غمها من الفرار، واختبأ وراء شجرة يراقب الرجال يجرّون ليلى التي راحت تقاتل وترفس نحو منحدر. وراقبهم ينزعون تنّورتها الفلاحية ويغتصبونها، ثم يوجهون ضربة قاتلة إلى رأسها قبل أن يقذفوا جسدها المسحوق إلى جُرف عميق من الجانب الحاد للتلة.

اعتقلت الشرطة المحلية الرجال الثلاثة، لكن بعد اعتراف المشتبه فيه الرئيسي بارتكاب الجريمة شنق نفسه بطريقة غامضة في السجن. وفي سجن لا يُسمح فيه للنزلاء حتى بوضع ساعة، بدا ذلك غريباً للغاية خصوصاً أنه وجد بسهولة متراً من الحبل المجدول، أي الطول اللازم تماماً للشنق. وأنكر المشتبه فيهما الآخران التورط في الجريمة، لكن المحكمة وجدت أنهما مذنبان بالاغتصاب وحكمت عليهما بالإعدام.

أشرت سابقاً إلى أنه في ظل قانون العقوبات الإسلامي الذي وضِع قيد التطبيق في أعقاب الثورة تعادل حياة الرجل مرتين حياة المرأة. وتحدد القوانين في أكثرية البلدان الإسلامية تنفيذ التعويض المحدد، في الحالات المالية فقط. أما الجمهورية الإسلامية فهي تطبّق التعويض، أو اتفاقيات الدية أو «مال الدم»، في الحالات الجنائية. وفي القانون الإسلامي يحق لأسرة ضحية جريمة قتل، أو قتل من دون قصد، أن تختار بين العقوبة القانونية والتعويض المالي، الذي يشار إليه بمال الدم. ويتمسك العديد من الفقهاء المسلمين بأن مال الدم يجب أن يكون في معزل عن جنس الضحية، لكن إيران تمارس تفسيراً تمييزياً. ووفق القانون الإيراني تساوي حياة المرأة نصف حياة الرجل، وهي نقطة غالباً ما تقود إلى أحكام قانونية غاية في الغرابة، تؤدي عملياً إلى معاقبة الضحية. وفي الحالة المذكورة حكم القاضي بأن مال الدم الذي سيدفعه الرجلان يساوي أكثر من حياة الطفلة القتيل البالغة من العمر أحد عشر عاماً، وطلب من أهل الفتاة أن يأتوا بآلاف الدولارات لتمويل تنفيذ الحكم.

باع والد ليلى القليل الذي يملكه من المقتنيات في هذا العالم، بما فيه الكوخ الطيني الصغير الذي تنام العائلة فيه وأصبحوا بلا مأوى، لكنهم كانوا مقتنعين أنهم سيستعيدون شرفهم على الأقل، وقدّموا المال إلى المحكمة. لم يكن المال كافياً. وتوجهت العائلة إلى مقام آية الله الخميني الشاسع على طريق قُمّ، حيث راحت تنام هناك وتحاول أن تجمع بقية المبلغ. تطوع والد ليلى أولاً لبيع كليته لكن عضوه رفِض بسبب ماضيه كمدمن مخدرات. ثم تقدم

شقيقها لكن الطبيب رفض لأنه معاق لإصابته بشلل الأطفال. سأل الطبيب: «لماذا تصرّان هكذا على بيع كليتيكما؟». فرويا القصة. شرحا له أنهما لم يكونا قادرين على العودة إلى قريتهما، وهما ملطخان بالعار الناجم عن اغتصاب ليلى. إذ يكمن شرف الأسرة في فضيلة المرأة، وما من شيء أقل من إعدام الجناة يمكن أن يمحو عار العائلة.

ذُعِر الطبيب من هذه القصة العجيبة وكتب إلى رئيس الهيئة القضائية مهدداً بعرض هذه القضية على منظمة «أطباء بلا حدود» الدولية إذا لم تؤمن الدولة المبلغ اللازم لتغطية الفرق الضروري لتنفيذ الإعدام. وافق رئيس الهيئة القضائية، ولكن في انعطافة إضافية لا تُصدّق، هرب واحد من المدانين من السجن قبل أيام من الموعد المقرر للإعدام، وفي غضون ذلك نصبت عائلة ليلى مفطورة الفؤاد خيمة متداعية من القماش في ممر المشاة خارج مقر المحكمة. صُدمت الأسرة عندما علمت أن المحكمة قررت إعادة النظر في القضية. وربما بسبب الغموض المتأصل في النظام القضائي الإيراني تبقى حتى القضايا المغلقة معرّضة للمزيد من النظر. وربما، كما ادّعت عائلة ليلى، لأن أحد المتهمين استخدم صِلة قرابته بعضو محافظ في البرلمان للتأثير في النتيجة. لقد حُلّت القضية.

سمعتُ بالقضية عندما وصلتُ إلى هذه النقطة وقررت أن ألقي نظرة على الملف. في البدء كنت متشككة. كانت العدالة الجنائية في النظام القضائي لما بعد الثورة تشوبها الثغرات، وكانت تحرم ضحايا العنف من النساء من التعويضات المساوية لتعويضات الضحايا الرجال. بيد أن قضية عائلة ليلى أشارت إلى أن العدالة الجنائية في حالة مَرَضيّة، ولا تتورع عن تدمير أسباب المعيشة لأولئك الذين يقصدونها طلباً للعدالة لأحبائهم من الضحايا. وقد قمت بزيارة الأسرة في خيمتها خارج مقر المحكمة، وبعدما استمعت إلى روايتهم لقصتهم الطويلة والمهينة، وافقت على تمثيلهم.

كانت الخطوط العامة للقضية في غاية الوضوح، وبنيت دفاعاً بسيطاً

ومتناسقاً: من الظلم أن تُقتل الفتاة وأن تغتصب، ومن الظلم أن تفقد أسرتها كل ممتلكاتها وتصبح مشرّدة بسبب العملية القضائية التي أعقبت الجريمة؛ من الظلم أن تجري التضحية الآن بالضحايا بواسطة القانون. وفي المحكمة حذرني القاضي بغضب: «لا تنتقدي القانون الإسلامي». أجبت بحزم: «إني أسأل فقط ما إذا كانت العدالة قد طُبّقت».

وبينما كانت الجلسة تقترب من نهايتها همس أحدهم في أذني أن شقيقَي ليلى يخفيان سكاكين مطبخ تحت ثيابهما ويخططان لقتل المتهم الباقي أثناء مغادرته المحكمة. طلبت استراحة ودعوت الفتيان إلى البهو.

قلت: «أرجوكما. أرجوكما أعطياني فرصة لرؤية ماذا أستطيع أن أفعل في المحكمة أولاً».

جلسا على المقعد الخشبي وراحا ينتحبان. صرخ أحدهما: «لو دفعنا لقاتل محترف نصف ما دفعناه في المحكمة لكانت العدالة قد أخذت مجراها. نحن الآن مشردون في حين أن أحد الجناة حر والآخر يستعد للخروج».

همست: «أعلم. أعلم. لكن فلنحاول».

وأثناء مسار العملية القضائية، برّأت المحكمة المتهمين ونقضت الأحكام السابقة وأعادت إطلاق التحقيق. وانحدر حزن العائلة رويداً رويداً إلى ضرب من الجنون. راحت أم ليلى تجلس خارج مقر المحكمة مرتدية كفناً أبيض، وتحمل لافتة تشرح فيها ما تعرّضت له ابنتها من انتهاك. وهددت أثناء إحدى جلسات المحكمة بأن تُضرم النار في نفسها، وبدأت تطلق صرخات تجديفية في القاعة. وكأن المحاكمة كلها لم تكن مأساوية بما يكفي، أمر القاضي باحتجازها لتحقيرها المحكمة ووجه اتهامات قانونية ضدها أخذ منا التوسط من أجل تسويتها أسابيع عدة.

سينفد صبركم إذا فصّلت الإجراءات القانونية أكثر من ذلك، لكن يفي بالغرض القول إن القضية لم تُحلّ وما زالت مفتوحة حتى يومنا هذا. لم أنجح

في جعل النظام القضائي يلامس أي شيء قريب من العدالة، بيد أنني أعتقد أننا حققنا أمراً آخر: لقد صنعنا حالة تصلح للنظر على المستوى الوطني حول الثغرات التي تعتور القانون الإيراني بشأن حقوق النساء والأطفال. لقد تحوّلت القضية بسرعة إلى مسألة عامة، إلى درجة جعلت المرشحين في مقاطعة ليلى يقدّمون برامجهم الانتخابية التي تتضمّن مواقف من قضيتها. وجعلت الصحافة الإيرانية من قصة ليلى مثالاً فظيعاً على المشكلات الاجتماعية في الجمهورية الإسلامية.

ظلت أصداء المحاكمة تتردد طويلاً بعد انتهاء الجلسة الختامية في المحكمة. لقد جرى تداولها في الصحف وفي قاعات المحاكم على السواء وثبّتت سُمعتي كمحامية تركّز في عملها على حقوق الأطفال والنساء. وتعلّمت بسرعة بالغة أن واحدة من أقوى الأدوات الموضوعة في تصرّف الطرف المفتقر إلى القدرة القانونية هي الإعلام. وجعلتني شهرتي أشد تأثيراً في الدفاع عن موكليّ، لأن القاضي كان يعلم أنه هو والهيئة القضائية سيضطران إلى تبرير قراراتهما أمام محكمة الرأي العام. وفي مرات عديدة لم يكن القضاة يبالون، لكنني في تلك المرات ذكّرت نفسي بأن رفع درجة إدراك الشعب لحقوقه هو مساهمة بحد ذاتها.

في سياق الأشهر المعتمة التي راقبت فيها عائلة ليلى تنهار وتنحدر إلى اليأس، في حين كانت القضية تجذب المزيد من الاهتمام، صدمت بسبب قلة عدد النساء اللواتي يعلمن، مجرّد علم، أن النظام القضائي يفرض تمييزاً قاسياً ضدهن. لدى أكثر النساء بعض الإدراك للقوانين التي تحكم حضانة الأطفال والطلاق، لأن إنهاء الزواج أمر يحصل نوعاً ما للكثيرين. لكن على الأغلب الأعم، لا يمس القتل والموت الناجم عن الحوادث حياة أكثرية النساء؛ وليست لديهن الفرصة لسماع أو تعلّم أي مصير قد أُعِد لهن، وأي نوع من الأشراك القانونية ينتظرهن، فيما لو كنّ تعيسات الحظ ليقع لهن حادث على غرار ذاك الذي وقع لعائلة ليلى.

قررت أن أكتب مقالاً إلى مجلة «إيراني فردا»[١] بلغة في متناول القارئ العادي، بدلاً من أن تكون اللغة موجهة إلى المثقفين أو مكتوبة بأسلوب قانوني، يحدد بعبارات صارمة الوضعية الدونية في القانون الجزائي. وينص الجزء المخصص لمال الدم، الدية، على أنه إذا تعرّض رجل لجرح ألحق الضرر بخُصيتيه يمكنه الحصول على تعويض يعادل التعويض عن حياة امرأة. وصغت المسألة في مقالي على النحو الآتي: إذا تعرّضت امرأة مهنية وتحمل شهادة الدكتوراه لحادث في الشارع وقتلت، وإذا أصيبت خُصية رجل أمّي من الرعاع بجرح أثناء شجار ما، فإن قيمة حياتها وخُصيته متساويتان. وثمة عبارة سوقية باللغة الفارسية تُستخدم لإشهار الاحتقار العميق حيال شخص ما: «أنت لا تساوي حتى واحدة من خصيتيّ». أشرت إلى هذه العبارة بتهذيب في مقالي لأشرح، بأسلوب لا يمكن أن يخفى على أي إيراني، كم هي شائنة تلك القوانين التي كانت تعامل النساء على أنهن لسن من البشر وفي الختام طرحت سؤالاً: هل هكذا حقاً تنظر الجمهورية الإسلامية إلى النساء؟

وخز المقال طهران المثقفة وكهربها. لقد نشره المحرر بحماسة، مدركاً أن المقال، على غرار الكثير من مضمون المجلة، سيؤدي إلى استفزاز الهيئة القضائية المتشددة. ونفد العدد فوراً، وحضر الناس إلى مكاتب المجلة يرجون الحصول ولو على نسخة مصورة من المقال. دُهشت. توقّعت أن ينتشر المقال انتشاراً واسعاً، لكنني لم أعتقد قط أنه سيثير هذا الدوي في المدينة بأسرها. وهددني أحد أعضاء البرلمان المحافظين علناً بقوله للصحافيين: « فليسكِت أحد ما هذه المرأة وإلا أخرسناها بأنفسنا». عندما سمعت ذلك، أيقنت للمرة الأولى أن النظام ربما يخاف مني ومن صدى الرنين العام الذي صنعته.

سمح النظام الإسلامي في العام ١٩٩٦، أي في السنة التي عُرضت فيها قضية ليلى أمام المحكمة، بتوجيه بعض النقد إلى أساليبه القمعية. ورقّ بعض

---

(١) «إيران الغد» وقد مُنعت من الصدور في أواخر التسعينيات.م

الشيء اضطهاد المعارضة السياسية مقارنة بالأيام المبكرة والوحشية للثورة، عندما كانت الصحف تعج بصور وأسماء الذين أعدموا على وجه السرعة، لكن النظام ظل يعاقب بقسوة أي تحد ظاهر لسلطته. لقد تعايشنا مع أمثلة يومية عن تعرّض حتى البارزين من آيات الله العظمى للتجريد من المناصب (وهو أمر لا سابق له في الإسلام الشيعي) أو الإقامة الجبرية لتحدثهم ضد الإعدامات والأشكال الفظة من العقوبة الجنائية، كبتر الأيدي. وإذا كان النظام لا يمانع في إذلال، وفي واقع الأمر في سجن كبار الفقهاء المميزين الذين شاركوا بنشاط في الثورة، فلماذا يتردد للحظة في إنزال العقاب بي، وأنا لست ثورية ولست من رجال الدين إضافة إلى أنني امرأة ولست بأحد؟

كنت متوترة الأعصاب. وفيما أنا أناقش قضية ليلى، راح القاضي يكرر اتهامي بالتحدث ضد الإسلام وقوانينه المقدسة. وبحسب الرؤية السياسية - الدينية إلى العالم عند التقليديين مثل هذا القاضي من السهولة بمكان اعتبار الشخص الذي يتحدى الإسلام كافراً. والقدرة على التفسير - أي القدرة على توضيح الفارق بين النقد المحترم للقانون الدنيوي (الوضعي) والهجوم على عقيدة مقدسة- كانت بين أيديهم. كنت أقاتل في ساحة معركتهم. ولا يمكنني أن أسحب ببساطة نسخة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وألوّح به في وجه رجال الدين الذين رأوا في الممارسة القانونية من القرن السابع ما يكفي من التوجيه. وللمنافحة في أن عائلة ليلى لا يجب أن تدفع تكاليف إعدام قاتلها، أو في أن حياة المرأة يجب أن تساوي حياة الرجل أمام القانون، كان عليّ أنا أيضاً أن أستخرج المبادئ الإسلامية والسوابق في القانون الإسلامي.

* * *

باتت ابنتاي في عمر كانتا تعودان فيه من المدرسة بوابل من الأسئلة. في لحظة، ترميان حقيبتَي الظهر في مدخل البيت. وفي لحظة ثانية، تركضان عبر القاعة وأصابعهما ملوّثة بطعام سريع تناولتاه في طريقهما إلى البيت. لقد أصبح التجوال في الجمهورية الإسلامية بالنسبة إلى المرأة مسألة تحتاج إلى حيلة

واسعة، كذلك الأمر بالنسبة إلى الأمومة. ماما هل حقاً من الخطأ أن أظهر أمام ابن عمي من دون حجاب؟ ماما، هل حقاً أميركا هي مصدر كل ما هو ضار في العالم؟ ماما، هل كان مصدّق رجلاً سيئاً حقاً؟ كان ذلك توازناً دقيقاً أحاول أن أعلّم فيه ابنتيّ القِيَم التقدمية والخواء وراء العقيدة الثورية الجامدة التي يتغذون بها في المدرسة، في حين أضمن أنهما تعلّمتا وأطاعتا سطحياً كل تلك العقيدة الجامدة، حتى يمكنهما عبور النظام التربوي. كنت أقول عادة: «الكثير من هذا الكلام هو ببساطة خطأ، لكن عليكما أن تدرسا في جميع الأحوال لتتمكنا من النجاح في امتحاناتكما والالتحاق بالكلية».

كان زوجي جواد، كالعادة، يترك لي هذه الدروس الحساسة. تماماً كما ترك لي الطبخ والتسوق والتنظيف وموازنة دفتر المصاريف، والرحلات المكوكية من صفّي البنتين وإليهما. وبالنظر إلى عدد القضايا التي كنت أتولاها، فإن الحفاظ على التوازن بين الاهتمام الذي تحتاج الفتاتان إليه في البيت وعملي قد ازداد صعوبة. والفتاتان لا تحتاجان الآن إلى المزيد من قصص وقت النوم. إنهما تحتاجان إلى توجيهنا في التعامل مع المراهقة في طهران، بكل ما فيها من إغواء وفوضى. كان جواد يقول: «قولي لي إن كنت تحتاجين إلى أي عون». وهذا ما كان يجعلني أشعر بالصدمة باعتباره الأكثر ظلماً من بين كل الأمور، لأنني بالتأكيد ما كنت لأنتظره حتى يطلب: «عزيزتي شيرين، هل ستطهين العشاء اليوم إذا سمحت؟». إنني أطهو العشاء كل ليلة لأنه كان واضحاً لي أن الطهو مسؤوليتي. أراد أن أقول له ماذا يفعل، واعتقدت أنه تصوّر ذلك من دون أن يُطلب منه.

بين ممارستي مهنتي في الصباح وعملي على المواد القانونية في المساء، بدأت بتأليف كتابي الجديد وهو دراسة في أوضاع اللاجئين. قبل أن أبدأ ممارسة عملي القانوني، كان تأليف الكتب يبقي ذهني حاضراً، لكن الآن حيث أضيف تأليف الكتب إلى تمثيلي لموكّلي فقد أسفر ذلك عن حجم كاسح من العمل. تدبّرت إبقاء الإشراف على المنزل سائراً بيسر من خلال التخطيط

الدقيق المسبق. ما من عُرف يسمح باقتطاع الأعمال المنزلية، وتوقعات الزوجة الإيرانية يجب أن تشمل الطبخ. ثم إن ترك المجلى ممتلئاً بالأطباق المتسخة أو السلّة معبأة بالغسيل ليس خياراً مطروحاً ببساطة. ولو تعيّن علي أن أسافر أو أن أقوم برحلة قصيرة من أجل العمل لكان عليّ أن أحضّر كل الوجبات التي ستتناولها العائلة مسبقاً. وسيعلمون أن عليهم البحث على أعلى رفّ في البرّاد للعثور على شريحة اللحم التي سيتناولونها ذلك المساء، ومن ثم ينظرون في حجرة التجميد (في الثلاجة) من أجل الوجبات المخصصة للأيام المقبلة من الأسبوع. بل حتى أنني كنت أهيّئ الكمية اللازمة من السَلَطة وأضعها في الثلاجة أيضاً. لا أقصد القول إنني كنت زوجة لامعة أو طباخة باهرة؛ أثق تماماً في أنني وفق المعايير الإيرانية قد ارتكبت جملة من الأخطاء بشأن عدد من التفاصيل الصغيرة والأمور التي أهملتها. لكنني منذ البداية كنت أشرف على بيت أكثر حميمية من عيادة طبية تخلو من أي لطخة، وقد اعتادت العائلة هذا النوع من عدم التمسك بالشكليات الرسمية. المقاربة العادية التي أستمر بها إلى اليوم الحاضر تحتوي على شيء من نزعة القدرية. لكن منذ إعدام فؤاد، شقيق زوجي، عندما مسّتني للمرة الأولى جسامة الموت وجدت أن الاهتمام بدقائق الحياة اليومية خال من المعنى. فلو متنا كلنا في نهاية الأمر، وتحوّلنا إلى غبار على الأرض، هل يجب أن ننزعج حقاً لو أن الأرضية لم تُمسح أخيراً بعناية كاملة؟ لا يُفهم من هذا أنني لم أكن معنية بتفاصيل حياة طفلتيّ؛ بل المقصود أنني أميّز بحرص بين التفاصيل ذات الشأن.

للتغلب على قلقي بشأن قضاء الكثير من الوقت بعيداً من المنزل، تعمّدت أن أجلب معي عملي إلى البيت في المساء وأن أدع الفتاتين تنخرطان في ما أفكر فيه أو أكتب عنه كل يوم. وتصوّرت أن من الأفضل أن تنجذبا إلى مجال اهتماماتي من أن تتساءلا عن سبب انشغالي الكلي في ما يتجاوزهما. وأفترض أنني في أعماقي أملت أن ترثا ما أؤمن به وحساسيتي حيال الظلم ودافعي الداخلي الذي يحضّني على توسيع الحدود.

في الليلة التي أعلنت فيها نتائج الانتخابات البرلمانية في العام ١٩٩٦، جمعت ابنتيّ قربي على الأريكة ورحت أحدثهما. حاولت أحياناً أن أخبرهما عن عملي، وجعل المفاهيم المجردة مثل حقوق النساء تصبح حية عبر الشخصيات التي تمر في حياتهما. كانتا تعلمان، على سبيل المثال، أن صديقتي شهلا شركات بدأت قبل أربعة أعوام بإصدار منشور نسائي باسم «زنان» («نساء»). كانت شهلا هي من اتصل بي أولاً لإبلاغي بقضية ليلى وسألتني إذا كنت قادرة على تقديم الاستشارة القانونية لعائلتها. وبطريقة ما، في وسع ابنتيّ تتّبع آثار تطور دور النساء من خلال حياتي وحياة اللواتي تعرفانهن كصديقات مقرّبات من العائلة. قبل العام ١٩٩٢، لم أتمكن حتى من الحصول على إذن بمزاولة مهنة المحاماة. وكانت شهلا تدير مجلة أسبوعية تصدرها الحكومة وموجهة إلى النساء المحافظات والمتديّنات. وفي العام ذاته الذي حصلت فيه على رخصة وباشرت تولي القضايا، بدأت شهلا إصدار «زنان» التي حاولت في البدء تلمّس المسائل التي تواجه القسم الأكبر من النساء في إيران كل يوم، قبل أن تمسك بهذه المسائل بقوة لاحقاً. وكانت أحياناً تحوّل بعض القضايا إليّ، وأحياناً كنت أكتب بعض المقالات لمجلتها.

نشأ عملنا المشترك في الشأن العام على أساس عدد من الحقائق الأساسية: نحن نعيش في ظل جمهورية إسلامية لن ترحل إلى أي مكان ولا تعتزم تغيير مضمونها الحاكم، لتصبح علمانية؛ والنظام القانوني مبني على أساس الشريعة الإسلامية؛ وكل جانب من جوانب وجود المرأة في المجتمع - من القدرة على تنظيم الإنجاب إلى حقوق الطلاق إلى الحجاب الإلزامي- محدد وفق تفسيرات للقرآن.

إذا أردنا أن نحقق فرقاً ملموساً في حياة النساء من حولنا وفي حياة أشخاص مثل ليلى وعائلتها، فليس من خيار أمامنا سوى المطالبة بمساواة المرأة بالرجل في الإطار الإسلامي. وعليه تغدو حساسياتنا الشخصية ووجهات نظرنا السياسية خارج السياق تماماً. وهكذا بت أؤمن بالفصل العلماني بين

الدين والدولة لأن الإسلام، في الأساس، يخضع للتأويل على غرار أي دين آخر، يمكن أن يجري تأويله لاضطهاد النساء أو لتحريرهن. في عالم مثالي، كنت لأختار عدم التعرض لهشاشة التأويلات نظراً إلى أن التباس الجدالات يلتف لولبياً وصولاً إلى القرن السابع؛ ولن يكون ثمة قرار نهائي حول طبيعة التأويل الإسلامي وروحه؛ وهو جدال سينمو ويتطور بمرور الأجيال لكنه لن ينتهي أبداً. أنا محامية بالمهنة، وأعلم تمام العلم القيود الدائمة على أي محاولة للحفاظ بحرص شديد على الحقوق غير القابلة للتحويل، في مصادر تفتقر إلى التعريفات والشروط الثابتة. لكنني أيضاً مواطنة في الجمهورية الإسلامية، وأعلم عُقم مقاربة المسألة من أي زاوية أخرى. وليس هدفي ترويج حساسياتي السياسية بل الدفع في اتجاه ظهور قانون يحمي عائلة مثل عائلة ليلى من أن تصبح مشرّدة في مسعاها لتمويل إعدام قتلة ابنتها المُدانين. ولو أُجبرت على البحث الدؤوب في كتب الفقه الإسلامي العتيقة والاعتماد على مصادر تشدد على القِيَم الأخلاقية للمساواة في الإسلام فلا مانع لديّ. هل هذه الطريقة أصعب؟ طبعاً. ولكن هل من بديل في ساحة المعركة؟ إذا نحينا الأمنيات اليائسة جانباً فإنني لا أرى بديلاً.

***

في صباح أحد الأيام الصيفية من العام ١٩٩٧، وفيما كنت أقلّب صحيفة في مكتبي، قرأت صدفة قصة عن طفلة تعرّضت للضرب المبرّح وتوفيت في مستشفى محلّي بعد إصابتها بضربات متكررة على رأسها. وقد أظهرت الصورة المرفقة بالخبر فتاة محنية وتغطي ساقيها حروق ناجمة عن السجائر. كانت الصورة مؤلمة إلى حدّ يفوق القدرة على النظر إليها لذلك طويتها بسرعة ورحت أقرأ. الفتاة الصغيرة تُدعى أريان غولشاني. بعد طلاق والديها، نقلت المحكمة حق حضانة أريان إلى أبيها، وهو رجل عنيف وله سجل لدى الشرطة في قضايا تزوير وإدمان مخدّرات. ووفقاً لإفادات الجيران، أبقى الأب أريان

في ظروف شبيهة بظروف الزنازين. وكان وزن الصغيرة البالغة من العمر تسعة أعوام لا يزيد على ستة عشر كيلوغراماً وذراعاها مصابتين بكسور متعددة ومعالجتين بجبيرة مصنوعة ارتجالياً في البيت. وبعدما اتصلت معلمتها في المدرسة بأبيها لسؤاله عن علامات الحروق بالسجائر التي تغطي كل جسدها، أُبقيت في المنزل ولم يُسمح لها بالتوجه إلى المدرسة طوال أشهر. وقد قصدت أم أريان المحكمة وتوسّلت للحصول على الحضانة؛ وشرحت أن زوجها السابق مذنب في اعتداءات مرعبة. لكن المحكمة امتنعت ببلادة عن منح الأم حق الحضانة.

ظلت صورة هذه الطفلة التي تغطي الجراح جسدها محفورة في ذهني. يجب أن أقوم بشيء ما، هكذا شعرت، لكن ما هو؟ بعد بضع ساعات رن الهاتف. كانت تلك مصوّرة صديقة رأت الصورة أيضاً. قالت «شيرين، علينا أن نفعل شيئاً». أجبتها: «أعلم. دعينا نفكر». بعد ظهر ذلك اليوم عقدنا اجتماعاً مع عدد من الأصدقاء من جمعية حقوق الأطفال وتشاورنا حول فناجين القهوة التركية الصغيرة. وفي النهاية استنبطنا خطة سرّية: سننظم مراسم غير حقيقية مخصصة للتعزية بوفاة الطفلة، لكننا سنستخدم المراسم أيضاً كمناسبة للتوكيد على القانون المدني الذي هو مضمون القضية هذه. ثم حجزنا مكاناً واسعاً في مسجد كبير في وسط طهران، مسجد الغدير، ونشرنا إعلانات في الصحف عن وفاة أريان غولشاني ومراسم العزاء تكريماً لها. وطلبت من عم جواد، وهو رجل دين، التحدث عن الاعتداء على الأطفال وتلاوة قصة حياتها القصيرة والعنيفة.

جعلت الثورة الإسلامية العائلة المسلمة مركز إيديولوجيتها عن الأمة. ورأى الثوريون في الأم المسلمة المدجّنة، القابعة في المنزل والمهتمة برعاية صغارها المتكاثرين، عنصراً رئيساً في إعادة إرساء القيم الأصيلة والتقليدية. ولم يبد لهم على أي وجه من الوجوه وجود تناقض حينذاك في إقرار قانون ينتزع الأطفال من أمهاتهم آلياً في حالة الطلاق، أو في جعل تعدد الزوجات

أمراً متاحاً كعملية رهن ثانية[٢]. وأرخت مسألة حضانة الأطفال بثقلها طوال أعوام على تفكيري، بسبب اضطرار شقيقتي الكبرى إلى الالتزام مدة طويلة بزواج فاشل على أساس خشية جزئية من خسارة أطفالها. وتعدّ هذه المسألة من بين أكثر القوانين الاجتماعية تدميراً. وقد راح صوت المقالات والاستياء العام حيال قانون الحضانة يرتفعان بمرور الأعوام.

في يوم المراسم، في خريف العام ١٩٩٧، اصطففنا في القاعة التي يقام العزاء فيها حاملين الزهور ووضعنا عند المدخل منضدة صغيرة عليها حبات تمر مكتنزة. وقبل بداية المراسم بقليل دخل عدد من النساء عبر المسجد وعلى وجوههن تعابير الدهشة، وشرعن في البكاء. كانت هذه أم أريان وخالاتها. قالت أمها بصوت مختنق وهي تتفحص وجهي بارتباك: «لم أكن أعلم أن لابنتي هذا العدد الكبير من الأصدقاء. لكن لو كان الأمر كذلك، لماذا ماتت وحيدة؟». ابتلعت مشاعري بصعوبة وقدتها بلطف لتجلس في الصف الأمامي.

كان عم جواد خطيباً موهوباً، وهز خطابه عواطف الحضور منذ البداية، وعندما وصل إلى وسطه نهض رجل يدعى علوي وسار إليه ممسكاً بيد طفل صغير وقال: «هذا أريان أخرى» ثم أخبر قصة الطفل الذي نال أبوه حق الحضانة في حين أن الصبي يتمنى بيأس العيش مع أمه. ورفع السيد علوي الطفل عالياً في الهواء وخاطب الحضور: «أيها الناس افعلوا شيئاً من أجل هؤلاء الأطفال».

فجأة انقلب الجو وأصبح شديد الاحتقان، وشرع الجميع في البكاء. مشيت بخطوات واسعة صوب الميكروفون في قسم النساء وقلت: «نحن هنا اليوم للدفاع عن حقوق الأطفال أمثال أريان. علينا إصلاح القانون الذي أفضى إلى موتها». وبدأ الناس في الصياح بشعارات، وطلبنا منهم نثر الزهور في

(١) المقصود أن بعد تسديد قيمة الرهن الأول يصبح من السهل الحصول على رهن ثان للملكية ذاتها. م

الشوارع أثناء خروجهم. وتحركت القاعة برمّتها دفعة واحدة صوب الأبواب مرددة: «القانون يجب أن يتغير!» وكل يقطف عند خروجه تويجات زهرة عن ساقها.

في غضون نصف ساعة، كانت التويجات البيضاء قد انتشرت في الشوارع المزدحمة حول المسجد، وراح سائقو سيارات الأجرة الزاحفة وسط زحمة السير والمارة يتوقفون لمشاهدة المسجد. وقد غطت الصحف القصة، وبدأت الجامعات عقد مؤتمرات عن الاعتداء على الأطفال. فجأة، أصبحت حقوق الأمهات في الحضانة في مركز حملة خلقت ذاتها، من الاهتمام العام. وأصبح هاتف مكتبي الذي كان يقرع بوتيرة أعلى منذ قضية ليلى يقرع الآن تقريباً من دون توقف، وليس من قبل موكلين محتملين فقط بل أيضاً من قِبل صحافيين ومراقبين دوليين لحقوق الإنسان الذين يحتاجون إلى محاور إيراني على الأرض ليشرح لهم كيفية عمل النظام وكيف تعمل النساء - اللواتي لم يكنّ قد نظمنَ أنفسهنّ بعد في تلك الأيام- لتغيير أساليب النظام.

عندما بدأت المحاكمة، مثلت أم أريان واتهمت والد الطفة وأخاه غير الشقيق بالتعذيب والقتل على التوالي. وازدحم الصحافيون بمن فيهم مراسلو وسائل الإعلام المرئية والمسموعة في قاعة المحكمة. وما إن بدأت المحاكمة حتى رفع الجالسون في الصف الثاني لافتة كتب عليها «ثمن موت أريان هو تغيير القوانين لمصلحة الأطفال الإيرانيين». ولأن القضية أصبحت حساسة للغاية فقد ترأس المحكمة الفرعية رجل دين.

لم تتطلب مطالعتي الافتتاحية الكثير من الزخرف؛ فالمأساة في قضية أريان تتحدث عن نفسها. وأبلغت المحكمة كيف كبرت هزيلة وسيئة التغذية ومشتتة بعد أسابيع من التعذيب، وكيف بدأت بتلمس نفسها، وعندما وجدها أخ والدها ويداها بين ساقيها، رفسها بعنف مطيحاً بجسدها الضئيل عبر أرضية الغرفة. ووصفت كيف تحطم رأسها عند الحائط لتصاب بالارتجاج الدماغي الذي سيقتلها بعد ساعات. وتناولتُ القوانين ذاتها بالتفصيل، وليس حالة أريان فقط.

ورحت أخطو جيئة وذهاباً، وكعبا حذائي المنخفضان يطقطقان في قاعة المحكمة، واضعة القانون -بدلاً من هذين المتهمين المحددين- قيد المحاكمة.

عندما انتهيت، أخذ رئيس فرع المحكمة الميكروفون مني. وبدأ كلامه بتثاقل: «الإسلام هو دين المساواة، لكن القرآن يقضي بأن ترث المرأة نصف ما يرث الرجل».

يا له من خروج عن الموضوع. لم نكن نناقش الإرث. وكان هذا مجرّد ذريعة لاتهامي بالإساءة إلى الدين.

طلبت من القاضي الإذن بالكلام. وأعلنت بوضوح تام: «إنني لا أنتقد الإسلام. فليقطع لسان كل من ينتقد الإسلام. إنني أنتقد القانون الذي أقره البرلمان الإيراني». وتساءلت متوجهة إلى المحكمة: «هل من الإنصاف بالنسبة إلى طفلة تعرّضت للاعتداء من قبل أبيها بهذه الوحشية، وبالنسبة إلى المحكمة أن يجري إنكار حق الأم في الحضانة؟ هل من الإنصاف توقّع أن تدفع أم قُتلت طفلتها تكاليف إعدام القتلة إلى العدالة؟».

قال القاضي: «لا تقلقي»، مؤكداً أن مال الدم (الدية) سيدفع من المال العام.

قلت بسخط: «لكننا لا نريد أن تذهب أموال ضرائبنا إلى القتلة!».

حكم القاضي على الأخ غير الشقيق لوالد الضحية بالموت، وعلى الأب وزوجته بالسجن لسنة واحدة. وفي نهاية الأمر قبلت أم أريان وقف إعدام أخ زوجها. وقد أعجبتُ بها لتعاطفها كون الأخ غير الشقيق ابناً من زواج ثان وكان هو نفسه قد أُخذ من أمه بعد طلاق أبويه. كان الاعتداء الذي ارتكبه وحشياً، لكنه كان أيضاً ضحية النظام ذاته.

جذبت نهاية المحاكمة اهتماماً عالمياً. وأجرت مراسلة شبكة «سي إن إن» كريستين أمانبور مقابلة معي ومع والدة أريان، وبينما كنت أشاهد وجهها الذاهل وأنا في البيت أمام التلفاز شعرت بعزيمة قوية للحظة: على الرغم من أن موت أريان كان عبثياً، لكن ميراثها على الأقل خدم هدفاً كبيراً جداً. ربما

قاومت الجمهورية الإسلامية التعرّض للمساءلة من قِبل مواطنيها، لكنها تتمنى بمرور كل عام أن تُخفي وضعها كدولة منبوذة في المجموعة الدولية. صارت تدرك ببطء أن دولة ليست على قدم المساواة مع الغرب لا يمكنها أن تدوس حقوق مواطنيها.

عندما شاهدت ذلك التقرير التلفزيوني، وأنا أعلم أنه يبث حول العالم، علمت أنني أصبحت أنا أيضاً ما يمكن تعريفه بـ«الشهيرة». ينمو البروز تدريجاً. تعملون وتتحدثون وتكتبون المقالات والمحاضرات وتلتقون الموكلين وتدافعون عنهم، يوماً بعد يوم، وليلة في إثر ليلة، ثم تستيقظون وتلاحظون أن هناك آثاراً طويلة وراءكم باتت تشكل سُمعة. على أي حال، هكذا جرى الأمر معي. كان ذلك عديم الأهمية بالنسبة إلي، لكنه أصبح مفيداً للغاية بالنسبة إلى عملي. كان يعني أن الصحافيين سيصغون إليّ إذا طرحت أمامهم قضية وسيساعد ذلك على تعميم العلم بها داخل البلاد وفي الخارج. وكان يعني أن مراقبي حقوق الإنسان حول العالم يعرفونني ويثقون بي، وسيطلقون نداءات سريعة في شأن القضايا العاجلة التي أطلب انتباههم إليها. وكان يعني أن ثمة اسماً ووجهاً الآن مرتبطان بعبارة «حقوق الإنسان» المجردة في إيران، وأن ملايين النساء اللواتي كن غير قادرات على صوغ إحباطهن ورغباتهن وجدن أخيراً من يتحدث عن مصلحتهن. لم أفترض قط أنني سأؤدي هذا الدور بنفسي. لكن لدينا مشكلة تمثيل في الجمهورية الإسلامية. إن دبلوماسيينا في العالم هم بطبيعة الحال مخلصون للنظام، ومصداقية النظام ليست من النوع الذي يعكس آراء الشعب الحقيقية. وتقع المسؤولية إذاً على السفراء غير الرسميين لنقل تطلعات الإيرانيين وآمالهم إلى العالم.

بين سُمعتي المتعاظمة وفضول العالم بشأن أحوال النساء في مجتمع مثل المجتمع الإيراني، بدا من المعقول جعل النظام يدفع في العالم ثمن رفضه إصلاح قوانينه في الوطن.

الفصل الثامن

الإرهاب والجمهورية

عندما تخلّى سائق الحافلة عن العربة المتحركة للمرة الثانية، عندها فقط أدركت فيريشته ساري أنه يحاول قتلهم. كانوا حوالى عشرين روائياً وشاعراً إيرانياً يسافرون إلى أرمينيا للمشاركة في مؤتمر أدبي، واستأجروا حافلة للركاب لتقلّهم عبر الجبال التي تعصف فيها الريح في شمال إيران، حيث تنتشر أشجار السنديان والإجّاص البري والجوز، إلى المقاطعة الغربية في البلاد. وكانت صديقتي فيريشته مرّت بي في المنزل لارتشاف الشاي قبل يوم من سفرها، تحدثت عن الرحلة كفرصة منتظرة بشدة لمشاهدة الشوارع الأثرية المرصوفة بالحجارة في العاصمة الأرمينية وللانخراط في نقاشات مسائية طويلة مع زملائها الكتاب.

عند الساعة الثانية صباحاً تقريباً وفيما كان أكثر الكتاب يغالبون النعاس في مقاعدهم، أوقف السائق الحافلة عند جانب الطريق وقفز خارجاً. ولاحظ أحد الكتاب الجالسين في المقدمة أن قبضة المكابح غير مسحوبة فصاح منادياً السائق، مفترضاً أنه أصيب بالنعاس ويحتاج إلى استراحة سريعة. صعد السائق إلى متن الحافلة وأعاد تشغيلها وتوجه بها إلى الطريق سالكاً المسارين اللذين يتعرجان بين القمم الشاهقة، وليس له من مرشد سوى ضوء القمر. وراح الركاب يهتزون بقوة بفعل تسارع حاد للحافلة واستيقظوا ليلاحظوا مرعوبين اندفاع الحافلة صوب حافة منحدر. ومع اقتراب الحافلة من شفير الوادي فتح السائق بابه وقفز خارجاً. واندفع كاتب في المقدمة إلى مقعد السائق وشد

المكابح جاعلاً الحافلة تتوقف بصرير شديد. حدّق الجميع في الهاوية القابعة وراء حافة الجبل بينما كانت الحافلة غير ثابتة بهم. كان أحد الإطارات قد أصبح خارج الطريق وتأرجحت مقدمة الحافلة فوق الحافة. ونزل الكتاب واحداً بعد الآخر.

تجمعوا وقد تملكتهم الصدمة على التراب إلى جانب ممر حيران وراحوا يحدّقون في وجوه بعضهم البعض صامتين. وبعد فترة وجيزة وصل ضابط شرطة وقادهم إلى بلدة صغيرة تقع في السهل الأخضر الخصب قرب بحر قزوين للاستجواب. هنالك حذرهم المحقق من مغبة مناقشة المسألة مع أي كان، قبل أن يسمح لهم بالعودة إلى طهران. أخبرتني فيريشته القصة في غرفة المعيشة لديّ يوم عادت. وقد شعرت برعشة في معدتي بسبب الخوف. في أوائل التسعينيات وأواسطها، طارد النظام معارضيه في أرجاء أوروبا، مرسلاً قتلة للقضاء على مسؤولين كبار السن من عهد الشاه وناشطين سياسيين. وفي إحدى الحالات قتلوا مغنياً شعبياً يحمل وجهة نظر نقدية. كنا في شهر آب/ أغسطس، ولم يكن في وسعنا الزعم أن حملة الإرهاب تضرب في الخارج فقط. قبل يومين من مغادرة فيريشته متوجهة إلى أرمينيا قالت لي صديقة أخرى، الشاعرة سيمين بهباهاني، إن مداهمة استهدفت عشاء كانت تشارك فيه في بيت دبلوماسي ألماني وأنها وكاتبين آخرين أوقفوا طوال الليل. وفي الخريف السابق قُتل مترجم في أصفهان وتُرك جسده ممدداً في الشارع. ومات كاتب آخر، هو غفار حسيني، بسبب نوبة قلبية مريبة في بيته بعد شهرين.

ينتمي العديد من الكتاب إلى «جمعية كتاب إيران» التي تضم مجموعة من الروائيين والمترجمين والشعراء والمثقفين الذين يلتقون كل شهر لمناقشة الأدب والرقابة وكيفية الدفاع عن حرية التعبير في البلاد. وقد انضممت إلى هذه الجمعية أنا أيضاً، وبعد رحلة الحافلة إلى أرمينيا وحالات الاختفاء الغامضة بتنا واثقين بأن موجة خفية وقاتمة من الإرهاب قد أُطلقت ضدنا. كان ذلك زمناً معذِّباً. وتصوّرنا جميعنا أن هواتفنا مراقبة وتحركاتنا ملاحقة. وقد وقع الكثير

من الصدف الغريبة - تعرّضت الاجتماعات لمداهمات في اللحظات المناسبة تماماً، وظهرت وجوه غير مألوفة في المجموعة - ما أشار إلى أننا مراقبون على مدار الساعة.

في كل مرة كان عليّ أن أحضر واحداً من اجتماعاتنا، كنت أتبع إجراءات حيطة جديدة اعتبرنا جميعاً أنها ضرورية. كنا نلتقي في أنحاء مختلفة من طهران، أولاً قرب متجر كتب كبير في ساحة فلسطين، وبعد ذلك في مقهى نادري، وهو مقهى متداع في وسط المدينة له سقف معقود على قناطر، ويطل على حديقة شهيرة بأنها نقطة اجتماع للكتاب والمثقفين في وقت سابق من القرن العشرين. كنت أبدّل سيارات الأجرة مرات عدة في طريقي. وهذه السيارات تعمل في إيران كالحافلات الصغيرة وتسير على خطوط محددة، لذا كنت أستقل سيارة أجرة مارة وأبدّلها عند تقاطع رئيسي بسيارة خاصة، ثم أترجل بعد بضعة شوارع وأقفز إلى واحدة ثالثة. لم تكن هوياتنا سراً. لقد وقعنا بأسمائنا على رسائل احتجاج في الماضي، لكي نوضح للحكومة أن عملنا كمثقفين لم يكن سياسياً. وفي العام ١٩٩٤، وهو العام الذي توفي فيه ناقد أدبي بارز في ظروف غريبة أثناء وجوده في نظارة الحكومة، وقّع ١٣٤ كاتباً رسالة مفتوحة إلى النظام محتجين على الرقابة ومطالبين بحرية التعبير عن الرأي وبحرية التجمع، وقد وقّعت تلك الرسالة أيضاً، وبعد نشرها اختفى أو قُتل عدد من الموقعين. ويبدو الآن أن فرقة الموت التي لا وجه لها عادت تلاحقنا. تلتقطنا واحداً بعد الآخر.

* * *

في الأيام المظلمة التي أعقبت ذلك كان من المستحيل مقارنة الاضطهاد الذي نواجهه بذاك الذي كان الناشطون يتحملونه في ظل نظام الشاه، وفي سجونه وعلى أيدي شرطته السرية «السافاك». لكن حملة الترهيب هذه كانت مختلفة تماماً عن الكيفية التي تعامل الشاه بها مع خصومه. كانت «السافاك»

تعمل كذراع أمنية تقليدية لحكم فردي؛ وكانت تركز اهتمامها على أهداف محددة للغاية، على الناشطين السياسيين الذين يعارضون علناً نظام الشاه، وتحاول تحطيمهم باستخدام الأدوات التقليدية للتعذيب الجسدي: الصدمات الكهربائية وانتزاع الأظفار.

نأت التقنيات التي استخدمتها الجمهورية الإسلامية عن أسلوب «السافاك» في القمع، كما نأت عن موجة الرعب التي أطلقتها في الأعوام الأولى للثورة. لقد سجّلت مرحلة جديدة من تطور النظام السياسي، وهو تغيير يعكس اهتماماً أكثر عصرية بحساسيات المجتمع الدولي. أولاً وقبل كل شيء، تمدد جهاز استخبارات الجمهورية الإسلامية في كل الاتجاهات، ولم يتوقف عند حدود المنشقين؛ وشمل تفويضه استهداف المترجمين عن الأدب الفرنسي كما شمل الناشطين السياسيين المنظمين الذين يدعون إلى حكومة علمانية.

في أوائل التسعينيات، بعد الحرب، بدأ كُتّاب تقارير حقوق الإنسان ومجموعات المراقبة توثيق موجات الإعدامات والاعتداءات المفرطة التي كان النظام يرتكبها. لقد سودت الإعدامات الجماعية لمنظمة مجاهدي خلق، التي قتل فيها فؤاد إلى جانب آلاف الآخرين، سُمعة نظام كان يحاول العودة إلى التكامل في المجتمع الدولي ليتمكن من بناء نفسه بعد الحرب والانصراف إلى رعاية شعبه الذي يغلب عليه الشباب. وقد حصل التغيير الذي لاحظناه في أسلوب الإجراءات القمعية الصارمة في الوقت الذي وقع فيه حادث الحافلة.

لم يعد النظام يشعر بالارتياح حيال الإعلام الموجّه إلى العالم عبر الصحف التي تعج بصور الجثث المصابة بالرصاص «أننا نقتل معارضينا». ولتجنب الإدانة وصيحات الاحتجاج العالية، استنتج المسؤولون الرسميون أنه ينبغي التعامل مع المحاكمات والإعدامات على نحو مختلف. في السابق كانوا يجرون محاكمات يجمعون هم بأنفسهم الإثباتات اللازمة لها، ولا يكون فيها محامون، وتجري وراء الأبواب الموصدة - محاكمات سريعة، محاكمات

كُنْغر[1] سرّية تسفر عن أحكام بالموت - وفي نظام قضائي يتولى فيه مهمات المدعي العام والقاضي والمحقق شخص واحد فإن الأحكام السريعة تصبح سهلة الصدور. ومضى تفكير المسؤولين إلى اعتبار أن السجناء بما أنهم لا يوكّلون في العادة محامين، وبما أن المسؤولين يملكون هذا الكم الكبير من الإثباتات في جميع الأحوال، فما الذي يستدعي إجراء محاكمة أصلاً؟ لماذا لا نقدّم الملف إلى اثنين من رجال الدين للحصول على إذنهما بتنفيذ التفويض بالموت؟ على هذا النحو تكون قد استُجيبت الضرورات الفقهية، ويمكن لوزارة الاستخبارات أن ترسل فرق الموت التابعة لها لتنفيذ الحكم. وقد نوّع القتلة تقنياتهم - مات بعض ضحاياهم بحوادث سيارات، وآخرون أطلقت النار عليهم في عمليات سطو مزيفة، وبعضهم طُعن في الشارع أو أُطلقت النار عليه؛ وكان من الأساليب الشائعة حقن الهدف بمادة البوتاسيوم لافتعال ما يشبه نوبة قلبية طبيعية. وبغضّ النظر عمن أمر بتنفيذ عمليات القتل هذه فلا بد أنهم اعتقدوا أنها في غاية المهارة. وما من شك في أنهم اعتقدوا أن موت كاتب إيراني أو شخصية معارضة على قارعة الطريق كل بضعة أشهر، أو سقوطه بسبب نوبة قلبية قاتلة وغير متوقعة، لن يلفت انتباه المجتمع الدولي.

***

كان أكثر ما يثير الخوف في تلك الأزمنة هو النزوة التي اختارت الدولة فيها ضحاياها. ربما كانت هذه هي المهمة بالضبط: إلقاء الرعب في قلوب المثقفين والأوساط الأدبية في طهران إلى الحد الذي لا يجرؤ معه أحد على رفع صوته. إذا قُتل باحث في الأدب الفارسي النيوكلاسيكي في السجن فما هو المصير

(١) يعود تعبير «محكمة الكنغر» إلى مطالع القرن التاسع عشر عندما كان القضاة في أقصى الغرب الأميركي يتجولون بين المدن النائية ويتلقون أتعابهم من المتقاضين، ما يجعل القضاة «يقفزون» كالكنغر من بلدة إلى أخرى لإجراء المحاكمات التي غالباً ما تكون قراراتها وأحكامها استنسابية. م

الذي سيلاقيه أولئك الذين يتحدون علناً النظام في صميمه، أي حق آيات الله في الحكم؟ اجتمعنا مراراً في تلك الأيام، نحدّق في أوراق الشاي محاولين استخلاص سياق أو سبب لاختيار الأهداف.

ومع أن الجمهورية الإسلامية بذلت جهداً في تلميع سمعتها الدولية فقد وقفت نشاطاتها السابقة أمام جهودها، وغالباً ما كانت تتحوّل إلى الطريقة السوفياتية في السيطرة على الأضرار ما يؤدي فقط إلى ازدياد الوضع سوءاً على سوء. في العام ١٩٩٧، قضت محكمة ألمانية باعتقال وزير الاستخبارات علي فلاحيان لإصداره التوجيهات بقتل معارضين أكراد إيرانيين في برلين في العام ١٩٩٢. وقد أذل الحكم الجمهورية الإسلامية. ولطّخ تورّط وزير عامل في مجلس الوزراء في إطلاق نار بطريقة المافيا على معارضين جهودَ النظام لتعديل صورته. وفي الرد على ذلك زعمت الحكومة أن جواسيس ألماناً قد اخترقوا إيران. لكن من؟ أين؟ اختار المسؤولون الرسميون فرج سركوحي، وهو صحافي دمث وعضو في جمعية الكتّاب، ولسوء حظه لديه عائلة في ألمانيا. وكان فرج أيضاً في حفل العشاء الذي تعرّض للإغارة في بيت الدبلوماسي الألماني، وأثير لاحقاً توقيفه في ذلك المساء كإثبات على ضلوعه في التجسس.

توجه فرج بسيارته ذات مساء إلى مطار مهراباد ليستقل رحلة متوجهة إلى ألمانيا ولم يخرج البتة. أفادت زوجته أنه لم يصل على الرغم من أن سجلاّت المطار تُظهر أن جواز سفره قد ختم للخروج. ارتبكنا جميعاً، وأصبحنا متوترين جرّاء الخوف عليه. بعد شهر ظهر مجدداً في مهراباد، مع قصة عجيبة عن فراره إلى طاجكستان وجورجيا بعد شجار مع زوجته في ألمانيا. لم يقل شيئاً عن تعرّضه للاعتقال وبقينا مذهولين. وللبقاء في أجواء الفيلم البوليسي الدرامي (film noir) لتلك الأوقات، وُزّعت رسالة مستنسخة في متاجر الكتب في طهران، وفيها يشرح فرج بالتفصيل كيف خُطف في المطار ويروي مهزلة ظهوره مجدداً هناك. وتصف الرسالة كيف أرغمه المحققون في السجن على

«الاعتراف» أمام الكاميرا بالتجسس لحساب ألمانيا وبإقامة علاقات مع نساء. كتب «لقد أوقفت، ولم يكن لديّ شك في أنني سأقتل». وبالفعل، فقد تعرّض للاعتقال مجدداً بعد أسبوعين.

بعد ظهر أحد الأيام، جاءت والدة فرج لتزورني في مكتبي. جلست المرأة العجوز المترددة قبالتي على مقعد، وسألت ما إذا كنت أرغب في تولّي قضية فرج، ثم انفجرت سريعاً بالبكاء. وقالت كمن لا عزاء له، إن فرج أمضى وقتاً في سجون الشاه. أليس ذلك كافياً؟ وبين روايتين دامعتين لأيامه في السجن في ظل الشاه، بدا واضحاً أن المال ليس متوافراً لديها. أردت مساعدتها من دون جرح كرامتها. فقلت: «سيدة سركوحي، فرج ترك معي بعض المال. أتسمحين لي بإعطائه لك؟». هو بطبيعة الحال لم يفعل ذلك، لكنني اعتقدت أن كرامتها ربما تسمح لها بقبول المساعدة مني إذا ما عرضتها بهذه الطريقة. كانت شجاعة ولطيفة وكشفت حيلتي، ورفضت أخذ أي قدر من المال.

باشرت تحقيقي مسلحة بسلطتي كمحامية لكنني لم أعرف من أين أبدأ. ثم قررت أن أبدأ من اللجنة الإسلامية لحقوق الإنسان التي يفترض أن تكون منظمة غير حكومية، ويقع مقرّها في مبنى حكومي ويترأسها رئيس الهيئة القضائية. يا لها من منظمة غير حكومية. كانت مساهمتها الرئيسة في الدفاع عن حقوق فرج الإنسانية إبلاغي أنه كتب رسالة في السجن يرفض فيها توكيلي. أشرت إلى أن تاريخ الرسالة يعود إلى ما قبل طلب أمه مني تمثيله، لكن من دون جدوى. لم يسمحوا لي بتمثيل فرج، لذا نقلت قضيتي إلى الصحافة عندما صدر الحكم عليه. جادلت في أن الدستور يقضي بأن تكون محاكمات الجرائم السياسية مفتوحة، وبما أن فرج قد اتهم بنشر الأكاذيب بغية زعزعة الدولة، فإن محاكمته بناء على ذلك غير قانونية. في نهاية الأمر عينت المحكمة محامياً لفرج؛ وأمضى عاماً في العزل الانفرادي، ولحسن الحظ خرج حياً. أعتقد أن الرسالة المستنسخة قد أنقذت حياته.

* * *

عندما أطلق فرج من السجن، دعاني إلى العشاء في مطعم «سورنتو» الواقع في جادة «ولي عصر» المزدحمة التي تخترق طهران وتصطف على جانبيها أشجار الجمّيز. جلسنا في حجرة كستنائية من الفينيل، وأخبرني أنه يريد الرحيل عن البلاد إلا أنه يخشى توقيفه مجدداً إذا تقدّم للحصول على جواز سفر. طمأنته بالقول: «لا تقلق، سأذهب معك». في اليوم التالي، قصدنا مكتب جوازات السفر في وسط طهران الصاخب، وهو مبنى مؤلف من طبقتين دخله فرج والتوتر ظاهر من عينيه. وقد استلم جواز سفر وغادر إيران ولم يعد البتة.

علّمتنا قضية فرج الكثير عن الأسلوب الذي سيتبعه النظام في التعامل مع معارضته الواعية. الذين يتعرضون للاعتقال، سواء باتهامات تتعلق بالتجسس أو بالتآمر للإطاحة بالنظام، يواجهون في العادة أساليب متطورة من التعذيب والترهيب لا تترك علامات على أجسادهم تشي بما تعرّضوا له، لكنّ المعتقلين مع ذلك يُرغمون على تسجيل اعترافاتهم على شريط مصوّر يذاع لاحقاً عبر التلفزة الرسمية. الحرمان من النوم، الإعدامات المزيّفة، الفلق على الأقدام، الألعاب الذهنية التي تستخدم فيها صحف مزوّرة تتحدث عن اعتقالات جماعية أو عن انقلابات، الحجز الانفرادي في زنازين حجمها من حجوم جحور الثعالب - هذه الأساليب حلت مكان التعذيب الجسدي الأشد قسوة الذي كانت «السافاك» تلجأ إليه. لقد تم التخلي عن انتزاع الأظفار والكي بالصفائح الساخنة والنخس بالأدوات الكهربائية المخصصة للبهائم، ويحمل الشخص الخارج أخيراً من السجن علامات قليلة أو لا يحمل أي علامات تثبت طبيعة الاستجواب. وعلى الرغم من أن كل واحد من السجناء يكون قد خسر حوالى الخمسة عشر كيلوغراماً من وزنه، ويعجز عن النوم في الليل وتطل النظرة المروّعة الثابتة من عينيه، فقد كان النظام يستعرض المعتقلين أمام العالم مدعياً أنه لم يعد إلى التعذيب الجسدي.

* * *

كانت هذه قصص رعب همجية مع أشرار مظلمين ومثيرين للقشعريرة وحكاية غامضة يكملها محققون غير بارعين. وراح صحافي محقق ينسج فصول مؤامرة ويغمز من قناة أصحابها مستخدماً أسماء رمزية كـ«صاحب النيافة الرمادية»[٢] وأماكن مثل «بيت الأشباح المظلم». وأسفر ذلك عن شقاق جدّي في النظام بين حكومة الرئيس الإصلاحي محمد خاتمي وسلفه الذي ما زال يتمتع بالسلطة أكبر هاشمي رفسنجاني.

في مساء الثاني والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٩٨، توقفت نشرة أخبار محطة الإذاعة باللغة الفارسية لبث نبأ عاجل. لقد قُتل داريوش وبارفانه فوروهار المثقفان المنشقان في بيتهما في طهران. طعن القتلة الثنائي العجوز تكراراً ثم فروا تحت جنح الليل. كنت في زيارة قصيرة إلى الولايات المتحدة في ذلك الوقت وفكرت في إرجاء عودتي إلى طهران. في النهاية، عدت حيث كانت جريمتا القتل فريدتين في وحشيتهما إلى الحد الذي لم أتصور معه أنه يمكن حصول المزيد.

بعد ثلاث ليال حملت الأنباء خبر العثور على جثة ماجد شريف، وهو مترجم غادر منزله للتريّض في الأسبوع السابق ولم يعد، في مكتب الطبيب الشرعي لطهران. بعد ذلك بعشرة أيام اختفى الكاتب محمد مختاري أثناء شرائه مصابيح كهربائية في جادّة الأردن شمال طهران. وبعد بضعة أيام ظهرت جثته المخنوقة في جنوب المدينة. وفي مساء اليوم ذاته اختفى محمد جعفر بوياندة؛ وظهرت جثته في مكتب الطبيب الشرعي في ١٣ كانون الأول/ ديسمبر من العام ١٩٩٨.

عبّر مرشد الجمهورية آية الله علي خامنئي عن صدمته من جرائم القتل أثناء صلاة الجمعة من ذلك الأسبوع. ووصف الرئيس خاتمي الجرائم بـ«الأعمال

---

(٢) هو اللقب الذي أطلق على الأسقف الكبوشي فرانسوا دو ترامبلي (١٥٧٧-١٦٣٨) الذي كان مساعداً للكاردينال روشيليو أثناء حكم الملك لويس الثالث عشر. م

المقززة» التي تهدف إلى إسقاط النظام الإسلامي، وأمر لجنة بالتحقيق في الجرائم المتسلسلة. وقد شعرت بارتياح حذر لسماع إعلان الرئيس، لكن بما أن الدولة امتنعت طوال أعوام عن تحمّل المساءلة عن أعمال العنف التي ترتكبها خارج الإطار القانوني، فقد تحفظتُ في الحكم.

في السادس من كانون الأول/ ديسمبر من العام ١٩٩٩، اتصل صديق بي وقال لي: «لن تصدّقي ما حدث». في ذلك اليوم أصدرت وزارة الاستخبارات بياناً قالت فيه: «لسوء الحظ ارتكب عدد من زملائنا غير المسؤولين والمضللين والجاحدين... هذه الأعمال الإجرامية». كانت هذه المرة الأولى في تاريخ الجمهورية الإسلامية التي تقبل فيها الحكومة مسؤوليتها عن مقتل أي من منتقديها. وبعد شهر تقريباً، استقال وزير الاستخبارات قربان علي دري نجف أبادي. لكن القصة كانت في طريقها إلى التضخم.

بعد شهرين، جاءت إليّ باراستو فوروهار، ابنة الثنائي القتيل، وسألت ما إذا كنت أستطيع تمثيل عائلتها قانونياً. وافقت. وأمضينا ساعات طويلة معاً نجمع المعلومات من الشرطة ومن الجيران ومن خادم البيت محاولتين أن نتصوّر بالضبط ما رشح من تلك الليلة المصيرية في مقتل والديها.

* * *

في الأيام التي سبقت مقتلهما، عاش داريوش وبارفانه فوروهار في خوف دائم من الموت. كان كلاهما ذا باع طويل في انتقاد النظام بصراحة، وخصوصاً داريوش. كان يتزعم حزب الأمة الإيرانية (حزبي ملتي ايران)، الذي يعود بأصوله إلى حزب رئيس الوزراء المخلوع محمد مصدّق، وأمضى سنوات في السجن أثناء حكم نظام الشاه بسبب نشاطه السياسي. وقد أيد الثورة وأصبح أول وزير للعمل في الجمهورية الإسلامية لكنه، مثل الكثيرين من القوميين العلمانيين الذين عارضوا التشدد الإسلامي الذي نما أثناء الثورة، تنحّى عن منصبه وعاد إلى دوره المألوف كمعارض. وعلى الرغم من أن عائلة فوروهار زادت مع الوقت من علنية معارضتها للنظام الإسلامي، منتقدة دستور

الجمهورية والاستحواذ الفردي على السلطة من قبل مرشد الجمهورية، فإن منظمتهما لم تشكل تهديداً حقيقياً للحكومة. وقد ضمّت مثقفين وباحثين متقدمين في السن وحفنة من طلاب الجامعة الشبان.

وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا أخطر على الجمهورية الإسلامية من عاصفة من الريش فإن وزارة الاستخبارات كانت تتحرش بعائلة فوروهار يوماً بعد يوم وعلى مدى أعوام. لقد خضع ابناهما للاستجواب مرات عديدة ما دفع بهما في نهاية الأمر إلى الانتقال إلى ألمانيا. وكانت كل محادثاتهم تُسجّل. ووضعت العائلة قضباناً حديدية، واحتفظ داريوش بكيس جاهز دائماً يحتوي على أدوات الحمّام في حال اقتيد إلى السجن.

وفي وقت ما بعد الحادية عشرة ليلاً في ذلك المساء البارد من تشرين الثاني/نوفمبر، وبينما كان داريوش يرفّه عن أصدقائه بواحدة من دراساته، قفز إليه أحد الضيوف وربطه بالمقعد. وطعنه القتلة إحدى عشرة طعنة، ووجهوا جسده صوب مكة، وتركوا دمه يتجمع في بركة حوله. كانت بارفانه في الأعلى تستعد للخلود إلى النوم فطعنت أربعاً وعشرين طعنة. وجرى بعد ذلك تقطيع جثتيهما. وقد عثر أصدقاؤهما عليهما في اليوم التالي عندما جاءوا ورأوا الباب الأمامي مفتوحاً وكلبهما مخدّراً.

التصق الدم الجاف بالسجاد والمفروشات وأغطية الأسرّة. وبعدما مشط المحققون البيت تبيّن أن عدة أغراض مفقودة: دفتر تكتب بارفانه عليه أشعارها، ودفتر يوميات داريوش حيث دون أفكاره عن مفهوم ولاية الفقيه، أي نظرية آية الله الخميني للحكم المطلق لرجال الدين؛ والمراسلات الثمينة بين داريوش وبطله رئيس الوزراء مصدّق.

وتداعت القضية قبل أن تنتقل إلى المحكمة حتى. وبدا أن جناحاً في الدولة مصمّم على تغطية الفضيحة حتى لا يتمكن الرئيس من نبشها. وعلى الرغم من أن الرئيس خاتمي ذو عقلية ديموقراطية في الصميم، وقد وعد الإيرانيين بجعل بلادهم أكثر انصياعاً للقانون، فسرعان ما وجد أن الذراع

التنفيذية في الجمهورية الإسلامية تحظى بالقليل من السلطات. وسُمّي سعيد أمامي نائب وزير الاستخبارات الذي تربطه صِلات وثيقة بكبار المسؤولين، كمشتبه فيه رئيسي. وبعد مرور فترة ليست بالطويلة على تورّطه في القضية وسجنه على ذمّتها زُعم أنه انتحر في السجن بابتلاعه زجاجة من مرهم لإزالة الشعر. وبموت أمامي، ماتت كذلك أي فرصة حقيقية لملاحقة كبار المسؤولين في النظام لدورهم في إصدار الأوامر بالقتل. وكان جلياً أن أمامي وهو موظف متوسط الرتبة له علاقات بجهاز الأمن، كان أكثر بكثير من مجرد رئيس خلية تُنفّذ عمليات القتل. وأفاد أصدقاؤه أنه ينتمي إلى جماعة سيئة السمعة من غُلاة المتطرفين الذين يعتقدون بواجب قتل أعداء الإسلام. وتناقلت الأفواه في طهران أخباراً مبهمة عن الجماعة هذه وعن نشاطاتها. وفي حال وجدت مجموعة تآمرية مغلقة في داخل جهاز الدولة تضع أمامها مهمة تصفية المعارضين وخلق مناخ من الرعب يحبط المعارضة، فإن قلة كانت تعتقد أن سعيد أمامي هو زعيمها.

عندما قرأتُ قصص انتحاره في الصحف زاد فضولي. وأصدرت تعليمات إلى فريق العمل لديّ: «أيتها السيدات، توجهن لشراء كل أنواع مزيلات الشعر المتوافرة». وكانت زجاجات هذه المزيلات كلها تحمل على ظهرها عبارة «لا يحتوي على الزرنيخ». وبدا من المحال ارتكاب الانتحار بواسطة أي مزيل للشعر يمكن شراؤه من المتاجر من دون وصفة طبية في السوق الإيرانية. تساءلت ما إذا كانت قصة الانتحار زائفة، وما إذا كان أمامي ما زال حياً في الواقع. كان السبيل الوحيد للتحقق من ذلك هو المشاركة في مراسم إحياء ذكرى وفاته، لرؤية ما إذا كانت دموع أقاربه حقيقية أم مزيّفة.

بعد ظهر يوم دافئ من حزيران/ يونيو من العام ١٩٩٩، جررت شقيقتي معي إلى المراسم في مسجد في طهران. كانت الحرارة في الداخل مرتفعة إلى حد أنني شربت على الفور كوبين من «شربات» البرتقال. وهمست لشقيقتي: «الآن وقد مات، على الأقل يكون المشروب على حسابه». وضحكنا خلف

الشادورين الأسودين اللذين نرتديهما. وبعد أن تمعنت في الغرفة، كان عليّ أن أتغلب مجدداً على ابتسامة. كان الحشد يعج بالوجوه المألوفة، فقد تدفق عدد من الصحافيين والناشطين المرتابين في الموضوع مثلي تماماً لرؤية ما إذا كان الانتحاب حقيقياً أم مزوّراً. وقلّة من الذين تابعوا المسائل المشابهة بدقة وجدوا أن الانتحار الملائم في السجن للمشتبه فيه الرئيسي في القضية مقنع على نحو كاف. كانت زوجة سعيد أمامي وشقيقته تصيحان بصوت مرتفع في الصف الأول، وراحت امرأة سمينة تبدو كشرطية متنكرة تسكتهما باستمرار وتطلب منهما الهدوء. كانت أخته في حالة قريبة من الهستيريا وتظل تصرخ قائلة: «حاج سعيد، يا ليتني أستطيع قول كل شيء». بعد انتهاء المراسم شدت شقيقتي ذراعي لنرحل، لكنني تقدمت نحو السيدة أمامي وقدمت تعازيَّ. نظرت إلى عينيها المحمرّتين وشعرت بيدها المرتجفة في يدي، وعلمت أن زوجها قد مات.

وفي الوقت ذاته تقريباً، نُشرت سلسلة من التحقيقات الصحافية في الصحيفة الشعبية «صبح أمروز» فسّرت لغز الفضيحة للجمهور. اعتمد الكاتب وهو محقق صحافي يدعى أكبر غانجي على مصادر من داخل جهاز الاستخبارات الإيراني ليرسم الخطوط العريضة للخطة السرّية التي أجازت الدولة تنفيذها للتخلص من منتقديها. سحرت مقالات غانجي الإيرانيين الذين صاروا يقفون في الصف كل صباح أمام أكشاك بيع الصحف، متشوقين إلى متابعة آخر الانعطافات في السرد. وعلى الرغم من أن غانجي استخدم أسماء رمزية لوصف كبار رجال الدين الذين أصدروا الفتاوى التي استخدمت كأحكام بالإعدام، فقد علم الجميع إلى من كان يشير.

في صيف العام ١٩٩٩، وبينما كان غانجي يتابع دفع موجته من العمل الصحافي الهجومي، قررت الهيئة القضائية أخيراً التنازل أمام طلباتنا بالحصول على إذن بالوصول إلى الملفات. وفي الوقت ذاته سعى النظام إلى زعزعة تحقيقاتنا. وقد أمر رئيس الهيئة القضائية بإجراء محاكمة وراء أبواب موصدة في

وجه المحامين ليمنعهم بذلك من التحدث إلى الصحافة. وأعلن عدد من المسؤولين الرسميين ذوي المناصب رفيعة المستوى أن المشتبه فيهم، ومن ضمنهم سعيد أمامي الذي كان قد توفي، قد تصرفوا بناء على أوامر من «الأعداء الأجانب» للجمهورية الإسلامية بهدف تلطيخ سُمعة النظام الدولية.

وتسرّب إلى وسائل الإعلام شريط فيديو تظهر فيه أرملة سعيد أمامي تعترف بذلك (وهي تقنية أطلق عليها غانجي تسمية «المقابلة الموجهة ضد الذات»). وقد تعرّضت الأرملة أثناء احتجازها لتعذيب كان من الشدة بحيث أدّى إلى توقف إحدى كليتيها.

وفي الأيام العشرة التي سُمح فيها لي ولمحامي عائلات الضحايا بقراءة الملفات لم يسمح لنا باستنساخ أي وثيقة، مع أن كل مجلد كان يتألف من آلاف الصفحات. كانت عدة تواريخ مفقودة، إضافة إلى غياب فاضح لمعلومات أساسية من نوع محاضر استجواب المتّهم الرئيسي. وعلى الرغم من أن الكثير مما يتعلق تعلقاً مباشراً بالتحقيق كان مفقوداً فقد عثرنا على العديد من التفاصيل اللافتة للاهتمام التي أضاءت لنا تاريخ عمليات القتل التي جرت خارج السياق القضائي. وأثناء قراءة تلك الملفات صادفت اسمي للمرة الأولى، واكتشفت أن فريق الموت ذاته كان يعتزم قتلي.

ولفترة طويلة لم أُشر إلى ذلك مباشرة لأي شخص في الحكومة. وبعد عامين مرّ مسؤول حكومي بمكتبي وطلب أن أتحدث أمام مؤتمر تنظمه الحكومة في أوروبا حول النشاطات الإرهابية لمجاهدي خلق. قلت له: «إذا كنتم تريدون أن آتي للتحدث عن إرهاب منظمة مجاهدي خلق، سأكون مضطرة كذلك إلى الحديث عن كيف حاولتم جميعاً، في الحكومة، قتلي. هل توافقون على هذا؟». لم يقل شيئاً. وخلصت إلى القول: «افترض أنكم لن تعتبروني متحدثاً مؤثراً جداً». في بعض الأحيان، تثير نفسية النظام الإسلامي الحيرة لديّ، كيف يمكنه السعي بيد إلى الحصول على مساعدة إنسان ويحاول قتله باليد الثانية.

في صيف العام ١٩٩٩، تلاشت المحاكمة عند نقطة مخيبة للآمال. حُكم على اثنين من المشتبه فيهم بالسجن مدى الحياة، وحُكم على القتلة الفعليين للضحايا بالموت، ونال جميع الآخرين أحكاماً قصيرة بالسجن. ولاحقاً نقضت المحكمة العليا بعض الأحكام. لكن محامي العائلات لم يعلموا قط بالقرار النهائي، بما أن إجراءات المحاكمة ظلّت سرية، بناء على اعتبارات الأمن الوطني. ولم يواجه أي مسؤول رفيع المستوى المحاكمة على الإطلاق، وجرت ترقية وزير الاستخبارات أثناء فترة جرائم القتل إلى منصب في غاية الأهمية في الهيئة القضائية. وترشح المسؤول المباشر عن سعيد أمامي في وزارة الاستخبارات لاحقاً إلى منصب رئيس الجمهورية. ويمكنكم الاعتقاد أنه بسبب عدم تنفيذ أي حكم بالإعدام، وبسبب متابعة كبار المسؤولين المتورطين في القضية لحياتهم المهنية السياسية، فإن عمليات القتل المتسلسلة لم تترك سوى أثر سرعان ما يزول في الجمهورية الإسلامية.

لكن بعد انتهاء المحاكمة، بدأ أقارب وأرامل معارضين آخرين تعرّضوا للقتل بالوصول إلى مكتبي بانتظام. لقد تحطم قانون الصمت الذي أسسته الخشية من الوزارة إلى جانب الاعتقاد بحصانتها. وتعلمت الجمهورية الإسلامية أن الجرائم قد قسمت البيت: لقد ساهم الشقاق في النظام في إنتاج الفضيحة؛ وأدّت الفضيحة بدورها إلى توسيع الهوّة بين النظام والشعب. وكفت منذ ذلك الصيف وزارة الاستخبارات عن إصدار الأوامر بقتل المنشقين والمثقفين.

من العسير تقييم تجربتي الشخصية في هذه القضية. كانت هذه المرّة الأولى في حياتي التي أواجه فيها مباشرة إمكان مقتلي، وتحوّل بعدها قلقي المجرد إلى خوف حقيقي. عندما أخطط للإجازات أجد نفسي أنظر إلى الخريطة وأفكر: حسناً هل سيكون من الأسهل اغتيالي هنا أم هناك؟ لقد تلقيت توصية بعدم الاستسلام، حتى قبل أن أكتشف أنني هدف أيضاً. لكن منذ ذلك الحين اتخذت القضية أبعاداً أكبر مني، بل أكبر من جرائم القتل ذاتها، وأكبر مما أمكن لأي منا أن يتخيّله.

لم تكن واحدة من أنجح المحاكمات في حياتي، كما أنها لم تؤد قط إلى تغيير في القانون، أو إلى إدانة مستحقة حتى. لكنها رفعت الستار عما وصفه غانجي بـ«بيت الأشباح المظلم»، بلد تسوده الظلال ويقضي فيه القتلة على ضحاياهم تحت جنح الليل ثم ينسلون خلسة من دون أي مساءلة. لقد جعلت المحاكمة القتل أكثر كلفة وأقل سهولة. وأرغمت الجمهورية الإسلامية على مراقبة تجاوزاتها، وأن تنبذ عمليات القتل خارج الإطار القضائي، كما كانت قد تخلت عن الإعدامات الجماعية قبل عقد من الزمن. وإذا لم تعلق الكلمات في حلقي أود أن أسمّي تلك النتائج تطوراً.

الفصل التاسع

تجربة في الأمل

في الثالث والعشرين من أيار/مايو من العام ١٩٩٧، أدلى اثنان وعشرون مليون إيراني بأصواتهم لمصلحة منح الجمهورية الإسلامية فرصة ثانية. وتحت سماء ربيعية بهيجة تكاد تخلو من الغيوم اصطفوا في شوارع طهران، وغيرها من المدن في أنحاء البلاد، للإدلاء بأصواتهم لمصلحة رجل غير معروف تقريباً هو محمد خاتمي الذي ربما رَمَز في تلك اللحظة إلى نقيض ما يعلم الإيرانيون أنهم لا يريدونه أكثر مما يعرفون أنهم يريدون. كانت تلك هي المرّة الأولى في الذاكرة الحية التي يتحدى فيها مرشح لا يمكن المراهنة عليه سياسياً من صلب المؤسسة الحاكمة، وتنهض المنافسة بآمال الشعب في أن يحسّن انتخاب خاتمي حياتهم تحسيناً ملموساً.

وخلافاً للمرشح المفضّل، فإن خاتمي لا ينتمي إلى النخبة الثورية السياسية، كما أن خطابته كانت تفتقر إلى الإشارات دائمة الحضور إلى العدو والشهيد، وإلى «الشيطان الأكبر» و«العدو الصهيوني». لقد وعد بتحويل إيران إلى ديموقراطية إسلامية، وإلى بلد يحكمه القانون، وبتحسين العلاقات مع جيرانه ومع العالم. ولم تكن هذه الانتخابات، على غرار العديد من سابقاتها، ممارسة نقية للديموقراطية، ولم يسمح للكثير من المرشحين - الذين وسِموا بأنهم «دخلاء»، من القوميين الدينيين إلى العلمانيين- بخوضها. بيد أن «المطلعين على بواطن الأمور» كانوا مختلفين بما يكفي لجعل السباق تنافسياً،

وظل الناس يشعرون أنهم بإدلائهم بأصواتهم يمكنهم أن يؤدوا دوراً في تحديد الوجهة التي ستسير الدولة فيها. وصادف يوم الانتخاب، الثاني من خرداد وفق التقويم الإيراني، يوم جمعة وامتدت الصفوف حول المدارس والمساجد حيث كان يقترع الناخبون على طول مربّعات المباني في المدينة.

كانت هذه أول انتخابات رئاسية تشارك فيها نيغار، ابنتي الكبرى، كما انتعلت الصغيرة حذاءها أيضاً للمجيء ومشاهدتنا نقترع. سرنا إلى مركز اقتراعنا المحلي، الواقع في مدرسة قريبة، وانضممنا إلى الشبان والشيوخ الواقفين في الصف نتحادث بألفة الأقارب. لم أر امرأة واحدة ترتدي الشادور، وذكرني الدفء والروح المعنوية المرتفعة للناس في الصف، باللحظات المبكرة للثورة، حيث كان الجميع أثناء أيام ولّت سريعاً ينادون بعضهم بـ«الأخ» و«الأخت»، ويحملون أكياس البقالة بعضهم لبعض ويتصرفون عموماً كعائلة واحدة مجتمعة. كان ذلك قبل أن تستقر ثقافة المرتزقة في أعوام الثورة التالية ويباشر الناس التصرف بغرابة مستخدمين الأفكار المسبقة عن دوافع بعضهم البعض، والكذب الاستباقي والخداع خشية أن يتعرضوا للخداع، مغلقين الأبواب بعنف في وجوه العجائز. أتذكر أن امرأة في الصف قالت «خاتمي ليس مثلهم. يريد مساعدتنا حقاً».

عندما وصلنا إلى منزل والدتي من أجل تناول غداء يوم الجمعة خرجت من المطبخ واضعة يديها على خصرها. سألتنا: «لماذا لم تصطحبوني معكم؟». قلت: «بسبب الازدحام، ما كنت لتستطيعي الوقوف في الصف ساعة كاملة». تنهدت وقالت: «طيب، لكن عليكم اصطحابي بعد الظهر». حوالى الساعة السادسة وقبل توجه ناخبي المساء إلى صناديق الاقتراع زرافات عثرنا على مركز انتخابي يقف أمامه صف قصير. هذه هي المرة الأولى منذ الثورة في العام ١٩٧٩ التي تقترع فيها أمي البالغة من العمر ثمانين عاماً. رأى طاقم المركز أمي منتظرة وظلوا يحومون حولها إلى أن وافقت على الجلوس على كرسي قابل للطي، في حين أخذتُ أنا مكانها في الصف. وتجمع عدد من

النساء المسنّات الأخريات اللواتي انتهين من الإدلاء بأصواتهن وسُمع من حلقتهن أجزاء من حوار:

- لقد أصبحت الأمور في غاية الفظاعة.

- إن شاء الله أن يتمكن خاتمي من فعل شيء ما من أجلنا.

اندفعت هذه الكلمات نحوي. وعندما جاء دور أمي استدعيتها وبدأت بتعبئة الورقة التي ستصوّت بها. لكنها أمسكت بمعصمي قائلة: «أرجوكِ، عزيزتي شيرين، عليّ أن أفعل ذلك بنفسي». وأثناء ابتعادنا قالت لي: «أتمنى لو أن أباك ما زال على قيد الحياة». كانت نادراً جداً ما تقول هذه العبارة. وكان ذلك أسلوبها في القول: «أنا سعيدة الآن».

لم تكن لتترك البيت كثيراً في تلك الأيام، لذا تصوّرت أن عليّ الاستفادة من خروجها والتوقف لتناول المثلجات. قالت: «شيرين، لا تطلبي لي سندويشاً من المثلجات، سيرشح قطرات عليّ». لقد أصبحت وهي في الثمانين من عمرها صعبة الإرضاء في مسائل الذوق أكثر من أي وقت مضى. أحضرت لها مغرفة صغيرة من المثلجات بالفانيليا في كوب، وأحضرت لنفسي سندويشاً من البسكويت الهش والمثلجات. رشحت من مثلجاتي قطرات على ثيابي، بطبيعة الحال، واكتفت هي بهز رأسها. عاد جواد في وقت متأخر للعشاء في تلك الليلة، وأخبرني أنه توجه إلى بستاننا الصغير في ضواحي طهران في ذلك اليوم، وانتهى به الأمر بنقل العمال جيئة وذهاباً إلى مركز الاقتراع التابع للقرية.

اكتسح فرح محموم وعفوي - أرجوكم تذكروا أنه من نوع لم يظهر في شوارع طهران طوال أكثر من عقدين- نواحي المدينة عندما بدأت الإذاعة بالإعلان عن تقدم خاتمي. كنت في الشارع والناس يندفعون بعنف متجاوزين المكان الذي أقف فيه من كل الجهات، يعانقون بعضهم بعضاً ويثرثرون بين جلجلة التهاني. وخارج متجر للمعجنات وقف الخبّاز المتمرّن في الشارع يقدّم الحلويات إلى المارة.

* * *

فاجأ انتصار محمد خاتمي الجميع، من سكان حيّنا إلى أعلى سلّم المؤسسة الدينية، مفاجأة كاملة. كان وزير ثقافة سابقاً مع سُمعة تفيد أنه مولع بالكتب، ما يجعله يفتقر إلى كل المؤهلات المعتادة التي يصعد بواسطتها رجال الدين إلى السلطة في الجمهورية الإسلامية: سجلّ ثوري وصِلات قوية بآيات الله الذين يعملون كوسطاء للسلطة. كان يبدو من جميع الأوجه تقريباً - باستثناء عمامة رجل الدين التي يعتمرها، وولائه للثورة بطبيعة الحال- في منأى عن كل ما اعتدناه عند قادتنا بعد العام ١٩٧٩. ابتسامة أصيلة ومضيئة مرسومة دائماً على شفتيه، على خلاف التكشيرة المسطحة المعتادة. وكان يرتدي بأناقة أثواباً ممتازة الحياكة بدرجات ألوان الشوكولا والإجّاص بدلاً من الأثواب المتغضّنة بلون الوحل المنتشرة بين رجال الدين. وينتعل حذاء من دون رباط من الجلد اللامع، عوضاً عن الصنادل الجلدية أو أسوأ حتى، الخف البلاستيكي الذي أصبح النعل المعياري بعد الثورة. طوال أعوام، كانت صورة قادتنا التي تنقل إلى غرف معيشتنا تظهرهم وهم يعقدون الاجتماعات جالسين القرفصاء على الأرض مرتدين أثواباً مهملة ومطلقين لحاهم الشعثاء. والجاذبية التي حملها صفاء خاتمي ورقته لم تعن أن الإيرانيين لم يعودوا يبالون بالشعبوية، أو أن جزءاً كبيراً من السكان قد أصبح أقل فقراً. بل عنى أنهم في الفترة التي امتدت عشرين عاماً باتوا يزدرون نفاق رجال الدين.

كانوا يعلمون علم اليقين أن الثوريين الذين خلعوا المقرّبين من الشاه من مقاعد السلطة ومن الفيلات الخشبية في شمال طهران قد تسللوا إلى أماكن من خلعوهم. ووفّرت احتياطات النفط الضخمة التي كان الشاه يستمد ثروته منها للقريبين من النظام الجديد فرصاً مشابهة للإثراء الشخصي. وظهرت خلال عقدين نخبة جديدة من الثوريين الأثرياء من بين الشعبويين الجذريين في العام ١٩٧٩، هؤلاء الذين زعموا في تلك السنة أن الإسلام سيحل جميع مشكلات إيران الاقتصادية؛ وطبعاً، لم تتحقّق وعودهم الباذخة للإيرانيين بتوزيع السيارات المجانية والطعام المجاني. فقد انخفض المدخول الحقيقي للفرد بعد

الثورة، وبات يتعين على أكثرية الإيرانيين أن تعمل في وظيفتين أو ثلاث من أجل تأمين الضروريات فقط. في غضون ذلك استقر رجال الدين الذين يتولون السلطة هم وأفراد عائلاتهم في منازل فخمة في المناطق التي تتمتع بهواء منعش في الأطراف العليا من شمال طهران. كانوا يقودون، أو الأحرى يقود سائقوهم، سيارات أجنبية باهظة الثمن تصرخ لدى مرورها «سياسي ثوري نافذ» وسط بحر من السيارات الإيرانية المتهالكة والمطقطقة من طراز «بيكان» التي تملأ طرقات المدينة.

أدى الفساد المتفشي إلى اغتراب الأكثرية الساحقة من الإيرانيين الذين كانوا لا يستطيعون إجراء أبسط المعاملات وأكثرها أساسية في حياتهم من دون دفع الرشى أو التمتع بالصلات اللازمة. ولم يكن رجال الدين والمقرّبون منهم يسافرون إلى أوروبا لتناول الغداء على غرار ما كان يفعل وزراء الشاه، لكن إغاراتهم على خزائن الدولة كانت موضع ملاحظة من الجميع. وعلى سبيل المثال تحوّل مساعد البائع في سوق طهران الذي قاد سيارة آية الله الخميني لدى عودته من المنفى إلى واحد من أوسع الناس ثراء في كل إيران. وأصبح السياسيون المعروفون محاطين بسمعة سيئة لاستخدام صِلاتهم داخل النظام لتأمين احتكارات مجزية في التصدير والاستيراد.

بيد أن النظام تشبّث بإيديولوجيته الثورية في مواجهة دوّامة الفساد المتسعة هذه وراح يراقب شرعيته تتأكل بثبات. كانت اللوحات والجداريات التي تصوّر الوجوه العابسة لشهداء الحرب والرسوم الشخصية لرجال الدين المؤسسين ترتفع في أرجاء المدينة، وجرت تسمية كثير من الشوارع بأسماء الشهداء. وكانت الجداريات تصرخ «الموت لأميركا» وتعتنق عبادة الشهادة التي نمت بعد الحرب العراقية -الإيرانية، ويحيي الكثير منها دعم إيران للمجموعات المناضلة في أماكن نائية مثل لبنان وفلسطين. وغالباً ما كان العمل الفني يأخذ منحى جمالياً مرعباً أو مبتذلاً، كوضع جمجمة مكان رأس تمثال الحرية أو رسم لوحة لأم تحتضن طفلاً يرتدي زي المفجرين الانتحاريين. وانتشرت الرسالة العقيدية

لهذه الصور في المجال العام في إيران وغذّت سخط الإيرانيين العاديين الذين شعروا بأن رجال الدين يزدادون ثراء كل يوم، فيما يعظون ويدعون إلى التضحية والنضال والإسلام الثوري من المنابر أثناء صلوات الجمعة.

دخل خاتمي إلى المسرح على خلفية هذا المشهد وسَحَر الأمة. لقد تخلّى عن الخطابة البالية عن الأعداء والمؤامرات الأجنبية، وتطرّق عوضاً عن ذلك في خطاباته إلى حكم القانون والديموقراطية. ومع اطلاعه على أعمال الفلاسفة من أفلاطون إلى ألكسيس دوتوكفيل استحوذ على تأييد الشبان والنساء خصوصاً اللواتي سيطرت عليهن إشارته المحترمة والنابعة من القلب لأهميتهن في المجتمع الإيراني. وما جعل خاتمي مختلفاً هو بالضبط ما جعله مفيداً. كانت الجمهورية الإسلامية في حاجة ماسّة إلى استعادة مصداقيتها في عيون الجيل الشاب الذي تحرر من الأوهام. وكان خاتمي، بجاذبيته للشباب وبإخلاصه العميق للنظام الإسلامي، يمثل الأسلوب المثالي الذي يخفف القيد على إيران من دون أن يضعف النظام.

ارتقى انتصاره الكاسح، بحصوله على نسبة مذهلة هي ٧٠ في المئة من الأصوات، إلى مصاف التفويض الشعبي الذي لا لبس فيه، بالتغيير. لكن التوقعات الحالمة في الصف حولي يوم الانتخاب أقلقتني. لم يبدُ أن الشعب أراد الإصلاح بقوة من أجل إيران جديدة تماماً، وإذا كانت الفترة الرئاسية لأربعة أعوام فليس هذا بالوقت الكافي من أجل الإصلاح. أراد الشعب أن تمحى من الكتب كل القوانين التمييزية بحق النساء، وأراد القضاء على الفساد المالي. لقد تخيلوا أن النظام القضائي يمكن أن يصبح مستقلاً بين ليلة وضحاها. وظنوا أن أولئك الذين أعدموا أقاربهم في العقدين الماضيين، وأولئك الذين أصدروا الأوامر لفرق الإعدام بإطلاق النار، سيمثلون أخيراً أمام المحكمة. كان الشوق والتوقع يضربان جذورهما عميقاً إلى الحد الذي شعرت معه بالخوف صراحةً.

فكرت أن تلهّف الناس غلب واقعيتهم. ألا يعلمون أية سلطات محدودة

يوفّر الدستور للرئيس؟ أليسوا متنبهين إلى الإطار القانوني الإشكالي الذي يمكن عبره لمجموعة قليلة العدد من رجال الدين غير المنتخبين أن تحل أو تقرر سياسة ما، بطريقة يصبح الرئيس معها غير ذي صفة؟ لم يكن ثمة من أسلوب يلبّي خاتمي به كل هذه التوقعات. لسوء الحظ، فإن الإيرانيين في صميمهم عبدة أبطال. أين هو رستم بطل قصيدتنا الملحمية القديمة الشاهنامة («كتاب الملوك»)، أو الإمام الحسين، الشهيد القدّيس في التشيّع، اللذان أُلصقت بهما صفات الشخصية الشامخة التي تستطيع متابعة الاندفاع طوال حياتها، لتقتل أعداءها، وتغير العالم من حولها. ربما تؤمن الثقافات الأخرى بالأبطال، لكنّ الإيرانيين يؤمنون بهم بتفان فريد. إنهم لا يقعون أسرى حب الأبطال فحسب، بل يحبون حبهم لهم أيضاً. وبتصويتهم لمصلحة خاتمي اعتقدوا أنهم أدّوا قسطهم، وانكفأوا إلى هيامهم المشوّش به، ينتظرون منه أن يحوّل إيران إلى الجنة التي صنعها خيالهم.

* * *

عرفت إيران في العامين ١٩٩٨ و١٩٩٩ لفترات محدودة ازدهار النقاش المفتوح وحرية الصحافة التي أطلقت عليها بعض الأنفس المتفائلة اسم ربيع طهران. ربما لم يكن التفاؤل بلا أساس مطلقاً، بالنسبة إلى ممارسة الرقابة التي تمتد على طول التاريخ الإيراني، وحتى إلى الفترة التي حاول الشاه فيها تحديث البلاد. لقد سيطرت الجمهورية الإسلامية على الإعلام سيطرة شاملة إلى الحد الذي لم يكن معه معظم أصدقائي يكلّفون أنفسهم عناء شراء الصحف، وتحوّلوا بدلاً من ذلك إلى الاستماع إلى هيئة الإذاعة البريطانية «بي بي سي» باللغة الفارسية وإلى «صوت أميركا» من أجل الأخبار. بيد أن خاتمي غيّر كل هذا، مانحاً وزارة الثقافة في عهده الحرية في إعطاء أذونات الإصدار الصحافي لمنشورات جديدة، وعملت وسائل الإعلام لفترة وجيزة في مناخ من الحرية والاستقلال النسبيّين.

زيّنت الصحف عاداتنا الصباحية بزينة مبهجة. كنت أشتري خمس صحف

أو ستاً بانتظام، وأجلس وإلى جواري كوب من الشاي الساخن أتذوق الطقس الجديد؛ كان في غاية التحضر أن نحظى أخيراً بمناقشة على المستوى الوطني بشأن الوجهة التي تسير إليها البلاد. وضخّت الصحف الحياة كذلك إلى الفضاءات العامة. وبات الناس يتحدثون عن عناوين الصحف في الصفوف المنتظرة أمام الأكشاك، وفي المقاعد الخلفية لسيارات الأجرة، وعلى متن الحافلات. وتراجع تدريجاً الشعور الخانق بأننا لا نستطيع التحدث بحرية سوى في غرف معيشتنا، وأن الشوارع محظورة على أفكارنا الحقيقية وآرائنا المنعكسة. وأمل أكثر الإيرانيين، وخصوصاً الشباب، أن تكون حرية الصحافة إشارة إلى تعاظم الحريات في المجتمع الإيراني وتوسّعها، أو على الأقل إلى إمكان توسعها. وإذا كان المستقبل قد أصبح برّاقاً فجأة فلأن آفاقه كانت على الصفحات الأولى.

لم يستمر تحمّل المؤسسة الحاكمة لحرية الصحافة طويلاً. فقد أتاحت الصحافة المتحررة المجال للمعارضة السياسية، وخشي رجال الدين المتشددون أن يكون الانتقاد بداية خرابهم، وتحركوا لإسكات منتقديهم وهم مصممون على الاحتفاظ بنفوذهم. وفي صباح السابع من تموز/ يوليو من العام ١٩٩٩، أمرت الهيئة القضائية المتشددة بإقفال صحيفة «سلام» المستقلة الشعبية، واتهمت الصحيفة ومحرّريها بانتهاك الأمن القومي، وهو رمز إلى تجاوز الصحيفة للخطوط الحمر للنظام. كانت الصحيفة قد نشرت مقالات تربط بين مسؤولين رسميين رفيعي المستوى وجرائم قتل العشرات من المعارضين، وتدعو في واقع الأمر إلى محاسبة الدولة لممارستها القتل السري لخصومها، ولأولئك الذين اعتبرتهم ببساطة مزعجين. وعندما سمع الطلاب في مختلف أرجاء المدينة بالنبأ تجمعوا في حرم جامعة طهران للاحتجاج على إغلاق الصحيفة.

في ذلك المساء، دخل حوالى أربع مئة عنصر من القوات شبه العسكرية بثياب مدنية إلى مهاجع الطلاب، وهم يهمسون في أجهزة الاتصال اللاسلكي

على الموجة القصيرة ويعالجون الوضع بهراواتهم خضراء اللون. ووفقاً لروايات الطلاب، وقف رجال الشرطة الذين كانوا ببزاتهم الرسمية بلا حراك. وقد حطم عناصر القوات شبه العسكرية الأبواب بأقدامهم واقتحموها متقدمين إلى القاعات وأمسكوا الطالبات من شعورهن وأضرموا النار في الغرف. وشقوا طريقهم ضاربين الطلاب بالهراوات وقذفوا بعدد من الطلاب من شرفات الطابق الثالث. وتكسرت أضلاع عدد من الطلاب عند ارتطامهم بأرض الممرات المرصوفة بالحجارة في الأسفل وسحقت عظامهم، وأصيب أحدهم بالشلل. وأُطلقت النار على الأرجح، لأن الطلاب نقلوا إلى المستشفيات مصابين بجروح سببتها طلقات نارية. وأفاد شهود أن طالباً واحداً على الأقل قتل، وأصيب ثلاث مئة بجروح، واحتجز ألف في الأيام التالية.

كنت وعائلتي خارج المدينة في عطلة نهاية الأسبوع تلك، وعدنا إلى المدينة عند منتصف الليل تقريباً. وأثناء مرورنا بتقاطع رئيسي قرب الجامعة نظرنا حولنا بارتباك. كانت أعداد كبيرة من شاحنات الشرطة تهدر متقاطرةً وهي تمر بنا متوجهة إلى حاجز يحيط بكل الحرم الجامعي نصبته قوات الأمن. وذكرت الأنباء أن مناوشات وقعت في الجامعة، لكن المنطقة كانت مطوّقة بكثافة من قبل الشرطة إلى درجة لم نجرؤ معها على الاقتراب. وفي جوّ أثقله التوتّر كان عناصر الشرطة يشيرون إلينا بالتقدم كما لو كانوا يطلبون الابتعاد عن مسرح كارثة.

بدأت الاضطرابات تصبح جدية في اليوم التالي وتنتقل إلى المدن في المحافظات. وما زالت الأسباب الحقيقية لما حدث لاحقاً موضع خلاف في إيران. لقد كان الآتي واضحاً: جعلت خمسة أيام من الاضطرابات من طهران ساحة معركة، في أسوأ تعكير جماهيري للاستقرار، بلا نزاع، يراه النظام منذ قيامه قبل عشرين عاماً. وبدا بعض المشاهد مأخوذاً مباشرة من الاحتجاجات الحاشدة التي أسفرت عن ثورة العام ١٩٧٩. بعد اليوم الثاني، صار لأعمال الشغب حياتها الخاصة، وحدث هيجان مدمّر وعنيف خلّف وراءه وسط طهران

وقد بُقرت أحشاؤه، فيما أُحرقت الحافلات وهشمت واجهات المحال. ووقعت معارك جوالة عبر جادات المدينة وساحاتها حيث كان الطلاب يرشقون قوات الأمن بالحجارة ويضرمون النار في صور القائد الأعلى. وراحت الصدامات تُسقط المزيد من الضحايا كل يوم؛ رجال الأمن بالثياب المدنية يطلقون النار في الهواء لتفريق الطلاب، والشرطة تلقي قنابل الغاز المسيل للدموع على الحشود فيما الشاحنات تنتظر لنقل الطلاب بالمئات إلى الاحتجاز. وحامت مروحيات الشرطة فوق وسط طهران داعية بمكبرات الصوت الطلاب إلى التفرق. وتبدو طهران في صور تلك الأيام كمسرح لحرب أهلية، تخاض من شارع إلى شارع. ووقفت صفوف وراء صفوف من رجال الشرطة المزوّدين بمعدات مكافحة الشغب يواجهون حشداً من الشبان يرفعون القبضات ويحيلون كل ما حولهم أنقاضاً ودخاناً.

بدا الوقت بطيئاً للغاية في تلك الأيام. ولم يعرف أحد ما الذي سيحصل لاحقاً: هل تنزل الدبابات إلى شوارع طهران؟ هل تتضخم الاحتجاجات لتشمل الملايين؟ بدا الأمر وكأن مصير البلاد معلّق في الميزان.

رأيت أنها الفرصة المثالية لأصطحب ابنتيّ الاثنتين بجولة في اضطراب إيراني. وعلى غرار الشبان في كل مكان، يمكن إغواء الشبان الإيرانيين بسهولة بأغنية الاحتجاج السياسي التي تغنيها حورية. عندما تكون شاباً لا تفكر في كل ما قد يحدث، وفي كل ما ينطوي عليه احتجاج واسع النطاق. لا تكون قد نضجت كفاية بعد لتتساءل ما إذا كان الشاب الواقف إلى جانبك يهتف بشجاعة مطالباً بتنحي مرشد الجمهورية عميلاً مدفوع الأجر أُرسل إلى الحشد ليحرض الآخرين. أنت ترى فقط الوجوه المشعة المتحمسة للذين يحيطون بك، وتشعر بأجسادهم تضغط على جسدك فيما يندفع الاحتجاج إلى الأمام، وتشعر بالحبور بفضل الإحساس المبهج بقوتك. لم تعد مجرد مراهق إيراني آخر يتملكه الحزن والتجهم البليدان جرّاء افتقاره إلى الحريات الاجتماعية؛ لقد صرت مواطناً، ممثلاً، قادراً على جعل عاصمتك ساحة حرب.

وعلى غرار أكثرية الأهل الإيرانيين، كنت قلقة من أن تتعرض ابنتاي لإغواء السير بتهور في غبار الاحتجاجات وفوضاها. ومنذ الآن تقف أمهات منتحبات قلقات في الصف عند الحاجز الحجري خارج سجن إيفين، منتظرات لفترات طويلة أنباء عن أبنائهن المفقودين. لا أتمنى الانضمام إليهن. كانت خشيتي الكبرى هي استخدام ابنتيّ لسحقي. لو اعتقلتا لذريعة أو لأخرى- تضعان دهاناً على الأظفار أو تمران بالقرب من احتجاج- وجرى اكتشاف أنهما ابنتاي لتعرّضتا من دون شك لمعاملة أقسى بكثير.

بعد الغداء، طلبت من نيغار ونرجس ارتداء «الروبوش»، أو المعطف الملائم لتعاليم الزي الإسلامي، وهبطنا نحو جامعة طهران. كانت الشوارع المحيطة صامتة صمتاً مخيفاً، ومتاجر الكتب مغلقة ورجال الشرطة عند كل الزوايا. وفي الحرم الجامعي، تجمع الناس في ظل الأشجار وعلى درجات قاعات المحاضرات يتجادلون بانفعال. وبين الحين والآخر يمر ناشط حاملاً بمشقة أكياساً من الطعام والمشروبات الغازية للطلاب. وبينما كنا نمر قرب الواجهة المبنية على الطراز الحديث لقاعة محاضرات انطلقت هتافات صِدامية صاخبة من إحدى أكبر المجموعات.

قلت وأنا ألتفت إلى الفتاتين: «أرجوكما اسمعا هذا»، وقدتهما ببطء لنعود نحو المجموعة. «ليس مهماً ما إذا كان مضمون الهتاف صحيحاً أم غير صحيح، ما إذا كنتما تؤمنان به أو لا. قراركما بالهتاف معه (مطلق الهتاف) ليس مقياساً لالتزامكما بالعدالة أو الحرية أو أي من المبادئ النبيلة التي يدعيها. أحياناً تكون الشعارات الجذرية بمثابة الفخ. يهتف بها المندسّون حتى يمكن لصق تهمة السعي إلى الإطاحة بالنظام بمجموعة من الطلاب الذين يحتجون على الحملة على الصحافة. في أحيان أخرى، لا تكون فخاخاً على الإطلاق بل موقفاً يائساً يعبر عنه شخص شجاع. لكن كيف يمكنكما أن تعرفا؟ هدفكما هو تجنب التحول إلى بيادق، وتجنب أن تُجرا إلى المشكلات بسبب فضولكما، أو لاعتقادكما أنكما تريان التاريخ يصنع أمامكما».

هزتا رأسيهما بالموافقة.

بعد هذا كله، ما الذي فعلته نيغار في اليوم التالي؟ توجهت مباشرة إلى الحرم الجامعي مع أصدقائها للتسكع في تلك الأنحاء. واندلع القتال بعد فترة وجيزة.

كنت في البيت عندما اتصلتْ هاتفياً. سألتني وهي ترتجف عندما رفعت السماعة: «ماما، هل تسمعينني؟»

انفجرت صائحة: «أين أنت؟ نيغار، هل ما أسمع هو طلقات نارية؟»

هربت هي وأصدقاؤها من الحرم الجامعي والتجأوا إلى بيت في الشارع المقابل.

أعطتني رقم الهاتف. بعد نصف ساعة، عندما حاولت الاتصال مجدداً، كان الهاتف يرنّ ويرنّ. تشنّجت معدتي. أردت أن أتوجه على الفور بالسيارة لاصطحابها، لكن الشوارع كانت في حالة من الفوضى الشديدة. وكان شقيقي يقطن في مكان قريب فطلبت منه السير إلى البيت الذي تأوي إليه والعثور عليها.

أبلغني متهكماً: «إنها بخير. إنهم على السطح ليروا الصدامات رؤية أفضل».

وأخيراً، عند الساعة الحادية عشرة تقريباً، عندما هدأت الشوارع، قدت السيارة نحو وسط المدينة المتشح بالسواد، مروراً بمراكز الشرطة المحروقة والمتاجر التي تحطمت واجهاتها، لاصطحاب نيغار. وحزمت أمري بالتزام الهدوء عندما قفزتْ إلى السيارة. لم أوبخها وأبقيت صوتي منضبطاً.

قلت: «عزيزتي نيغار، لقد أخذتك بنفسي إلى الجامعة أمس بالضبط للحيلولة دون حصول هذا. أود لو أسألك بضعة أسئلة».

نظرت إليّ وعيناها تطرفان ببراءة.

«ماذا كنت لتفعلي لو كان في هذا البيت رجال واعتدوا عليك؟ ماذا كنت لتفعلي لو اعتقلت وكنت الآن جالسة في السجن بدلاً من هذه السيارة؟ أين

كنت الآن لو أطلقت النار عليك؟ لا تنسي أبداً: إذا تعرّضت للاعتقال ستعاملين معاملة أسوأ بكثير من الآخرين لأنك ابنتي. لا يستطيعون المساس بي، لكنهم يستطيعون المساس بك. ومن خلالك سيحاولون إرهابي. يمكن المضي بهذا من دون التذكير بضرورة الانتباه دائماً. لكن أرجوكِ، أبقي النقطة الأخيرة هذه في ذهنك».

عدنا إلى البيت صامتتين، ووصلت لأجد جواد وقد عاد توّاً من الصالة الرياضية، وشعره ما زال مبتلاً. عندما نظرت إليه يرتاح من تعب السباحة، صدمني الفارق الحقيقي بين الأُم والأب. لا أقصد القول إنه كان غير مبال بأي طريقة كانت. لكنني كأم أعيش حالة متابعة دقيقة بدقيقة لطفلتيّ. أعرف كيف هو مزاجهما من ساعة إلى ساعة، وماذا تخططان لتفعلا يوم غد وفي الأسبوع المقبل وفي الصيف المقبل. ما من لحظة أو من زاوية في حياتيهما لست مرتبطة بها ارتباطاً حميماً. لكن هناك العديد من اللحظات في بناء الطفل كان هو غائباً عنها. وهذا ليس حكراً على جواد. كان يعشق ابنتينا. ومهما يكن الأمر فالأم في إيران هي عماد الأسرة، وعليها دائماً أن تتوقع الحاجات والمخاطر التي قد تحيط بالروابط الأسرية. لا أعتقد أنني قابلت في حياتي أكثر من حفنة ضئيلة العدد من الرجال الإيرانيين الذين لا يلقون بأعباء المسؤولية عن البيت والأولاد على كاهل زوجاتهم. وإلى كل ما يتعين عليّ القيام به، كان عليّ أن أعلّم ابنتي النقاط المهمة في السياسة، وكيف تتصرفان في مجتمع غير مستقر.

* * *

يمسك القائد الديني الأعلى بالمرجعية الأساسية في إيران، وفقاً لنظرية الحق الإلهي لرجال الدين في الحكم، أو ولاية الفقيه، التي ابتكرها وأسسها آية الله الخميني. ويمسك خليفته، مرشد الجمهورية آية الله علي خامنئي، بالسلطة الحقيقية في إيران. إنه يقود القوات المسلحة ويعيّن المسؤولين الرسميين في هيئات الدولة المؤثرة، من الهيئة القضائية إلى وسائل إعلام

الدولة، والأهم في مجلس الأوصياء، وهو هيئة تدقق في القوانين الجديدة وفي الانتخابات. وفي ظل نظام كهذا فإن أذرع الحكومة، كالمجلس التشريعي والجناح التنفيذي، تعمل كالملحقات. والمؤسسات هذه تعج بالمسؤولين الرسميين الذين تُكمل سياساتهم سياسات مرشد الجمهورية، ما يسمح لهم بتمرير القوانين وتحقيق جداول أعمالهم. وإذا، انتخب الشعب رئيساً أو أعضاء في البرلمان لا تتوافق سياساتهم مع سياسات مرشد الجمهورية (غير المنتخب) فإنهم ينحون جانباً عملياً. وتدخل إصلاحاتهم وقوانينهم في متاهة مؤسسات الجمهورية الإسلامية.

انقلب الرئيس خاتمي في اليوم السادس من أعمال الشغب ضد المحتجين. واتهمهم بـ«مهاجمة أسس النظام والعمل على إثارة التوترات والاضطرابات» محذراً من أنهم «سيقمعون بقوة وحزم». وقد أذهلت ردة فعل خاتمي الناشطين من الطلاب الذين اعتقدوا أن الرئيس المعتدل سيقف إلى جانبهم. وحتى بين الطلاب، كان كثيرون يعتقدون أن المتشددين في النظام دسّوا عناصر استفزازية بين الحشود لإطلاق الهتافات المثيرة للقلاقل. وما إن بدأت الحشود تهتف «الموت لمرشد الجمهورية»، حتى تدخلت قوى الأمن بشدة وتحوّل الاحتجاج إلى أعمال عنف. وكان الإصلاحيون مقتنعين أيضاً بأن التحول من الاحتجاج إلى أعمال الشغب كان مفتعلاً. وإذا كان قد نُظر إلى احتجاجات الطلاب كنذير لأعمال عنف واسعة النطاق في الشارع ولانهيار النظام الاجتماعي، فإن الحركة الإصلاحية ستمتنع عن استخدام واحدة من أكثر أدواتها السياسية أهمية: القدرة على إنزال الشبان إلى الشارع.

قال الرئيس خاتمي لاحقاً إن الكارثة برمّتها - من الهجوم على مهاجع الطلاب إلى الاضطرابات التي راحت تتصاعد على نحو غامض وخطر - كانت الثمن الذي دفعه لجعله الدولة خاضعة للمساءلة في جرائم القتل المتسلسلة. بعد ذلك الصيف، شعرت أن الرئيس بات شديد الحساسية وحذراً على الدوام من أن يؤدي دفع الحدود إلى استفزاز آخر وحملة أخرى يشنهما المتشددون.

وفي نهاية المطاف كان الرئيس خاتمي أمين مكتبة ووزير ثقافة. والصيف الذي شهد فيه الطلاب يقتلون تحت ناظريه أدى إلى تغيير نهائي في تركيزه، من العمل على تغيير إيران إلى منع حصول أمر كهذا مجدداً.

بالنسبة إليّ وإلى جميع أولئك الذين شعروا أن التحقيقات في عمليات القتل المتسلسلة يمكن أن تعلن بداية حقبة جديدة من مساءلة الدولة، لم يقدم لنا ذاك الصيف سوى خيبة الأمل العميقة. بدا أن المشددين في الجمهورية الإسلامية المتمتعين بالسلطة والواقفين في الظل غير ميّالين إلى خوض معاركهم عبر العملية السياسية، بدوا كما كانوا دائماً غير مبالين بالرأي العام في إيران وفي العالم. وفجأة بدا المستقبل القريب أكثر ظلمة. كان هذا وقتاً للمحاسبة عند الإصلاحيين والرئيس الذين واجهوا القبضة الفولاذية لخصومهم المتشددين وأدركوا مدى الوحشية التي يمكن أن ينقلب إليها التحدي السياسي الحقيقي. ماذا عن الأحلام الأخرى؟ ماذا عن إجراء تغييرات طفيفة على الدستور وتعديل مواده لتعزيز يد الحكومة المنتخبة؟ كان هذا هو نوع االتغييرات الأساسية والبنيوية التي كان الإصلاحيون يفكرون فيها والتي شعروا بأنها ضرورية لجعل إيران أكثر ديموقراطية انطلاقاً من الداخل. ذاك الصيف كان نقطة تحول بالنسبة إلى التشكيلة متعددة الألوان من القوميين الدينيين والعلمانيين والموالين للنظام السابق والمثقفين، الذين يعرفون عموماً بالحركة الإصلاحية. وعلى جاري عادة تنظيم المجموعات السياسية الإيرانية منذ بدء الزمان انشقت الحركة، ثم انشقت الانشقاقات. ولم يعد في وسع أحد الاتفاق مع أحد على التكتيكات، ناهيك عن الاستراتيجية. لندعُ إلى استفتاء وطني! لنستهدف القيادة في الصحافة! ارفعوا أيديكم وناصروا العلمانية! أبطئوا! أسرعوا!

الفصل العاشر

سجينة ضمير

على امتداد التاريخ، يجري غالباً تذكّر الأحداث الكارثية أو الكبرى بصورة محددة واحدة؛ صورة الطالب الصيني الوحيد يواجه الدبابات في ساحة تيانانمين؛ بوريس يلتسين على ظهر دبابة روسية، في حالة الاضطرابات الطلابية في العام ١٩٩٩، كانت صورة أحمد باطبي البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، الشاب الوسيم بخصلات الشعر البنية الغامقة الطويلة والعصبة السوداء على الذراع يرفع عالياً قميصاً مضرجاً بدماء صديقه. حُكم على باطبي وعلى الصديق الذي كان يحمل قميصه بالموت - وقد مات هذا الصديق بالفعل. وهو واحد من بين القتلى الذين يدور نزاع حول عددهم ويُدعى عزت إبراهيم نجاد.

ذات صباح من أواخر صيف العام ١٩٩٩، بعد القضاء على الاضطرابات وعودة الحياة إلى ما يعرف بالوضع الطبيعي، قرأت في الصحيفة أن والد عزت يريد بيع بيته الصغير في إحدى المحافظات لدفع أتعاب محام يتولى ملاحقة قتلة ابنه. شعرت بالحزن الشديد عند قراءة ما أصاب هذا الرجل العجوز من يأس، فتتبعته وعرضت عليه خدماتي مجاناً. بعد أيام قليلة وصلت شقيقة عزت ملتفة بشادور أسود وانزلقت إلى مقعد وأخرجت زفير ارتياح عظيم. قالت: «إنني مسرورة للغاية لأنك امرأة. ما يعني أنني أستطيع مغادرة القرية لرؤيتك من دون أن تنطلق الأقاويل». وفسّرت لي أنها أرملة رجل قتل في الحرب،

وقد ثارت ضدها حملة من الشائعات عندما التحقت بالجامعة. كانت في غنى عن المزيد من المتاعب.

عادت بعد أسبوع برفقة والدها، وهو رجل عجوز اجتاحه الحزن وكان يحمل كتاباً من شعر عزت. قلت: «لم أكن أعلم أن عزت شاعر». أجابني طاوياً الصفحات بأصابعه الخشنة «بلى، اقرئي هذه». كانت القصيدة جميلة وفي سطر منها يستنتج عزت أنه سيموت وهو في الحادية والعشرين من العمر. وصف عزت وموته المأساوي كانا ثقيلي الوطأة عليّ. كان عزت موهوباً ومجدّاً وطموحاً، أي من صنف الشبان الذين تخسرهم إيران عادة لمصلحة الغرب في نزف الأدمغة المتعاظم عاماً بعد عام. لقد بقي وحافظ على نفسه على الرغم من كل الظروف التي تعمل ضد الشبان في هذا البلد. وجسّد عزت لي ما يجعلني أفخر بشباب إيران - وكيف اختاروا التكيف بدلاً من الانهيار الاجتماعي، والإبداع في مواجهة العقيدية الجامدة. وقد مات الآن، هذا الشاعر الشاب المميز ببيت شعره الكئيب وبصيرته المقلقة. لا أبكي كثيراً بوجه عام، لكن في ذلك اليوم عذرت نفسي، وبكيت في الحمّام إلى أن احترقت عيناي.

بعد عدة أيام، بدأت في المحكمة العسكرية محاكمة قائد شرطة طهران والضباط الذين كانوا في المكان والذين وجّهت إليهم اتهامات بالاعتداء على الطلاب. ظل قائد الشرطة الذي كان يرتدي ملابس مدنية كل وقته على المنصّة يتعرّق بغزارة، ويتبجح بسجلّه الحربي ويشكو من أن حالة طحاله تتدهور. وفي ختام محاكمة طويلة وتعرّضت للمماطلة بُرِّئت ساحة جميع المتهمين. وبقي ضابط واحد وجهت إليه الاتهامات في كل القضية. وعلامَ؟ على سرقة آلة حلاقة كهربائية من غرفة في المهجع. وأصبح الحكم نكتة سارية بين الطلاب، وذروة مبكية مضحكة لا يباريها سوى انتحار سعيد أمامي، قائد فريق الموت، بمزيل الشعر: إبطال مستهتر آخر للعدالة باسم إزالة الشعر.

* * *

تابعت في الأسابيع التي تلت قضية عزت، التي جرت لها محاكمة منفصلة. وكلما علمت بالمزيد من التفاصيل ولاحقت الأدلة الموجودة في الظلام ازداد ضيقي. جاء أقرباء عزت بعد ظهيرة أحد الأيام إلى مكتبي، وهم في حالة من الاضطراب الشديد بعدما زاروا قبره. بينما كانوا يضعون إكليلاً من الزهر قبل بضعة أيام، خرجت من بين شواهد القبور مجموعة من الأشخاص الذين راحوا يوجهون إليهم الشتائم ويقذفونهم بالحجارة. وسارع أقارب عزت إلى الابتعاد عن المكان مذعورين. ثم عادوا ليتلوا فقط صلواتهم له بسلام. ومجدداً ظهر من العدم المتلصصون على القبور يصرخون بكلام بذيء ويرشقون أقارب عزت بالحصى والتراب. وأفادت شقيقة عزت أنها مُنعت من الدخول إلى مكتبين حكوميين وأن شائعة انتشرت في قريتهم تقول إنهم معادين للثورة. شهقت وهي تقول: «على الرغم من أنني أرملة شهيد في الحرب».

تفاءلت لفترة قصيرة بعدما تبعني طالب وصحافية شابة إلى مكتبي. كان الشاب يقف بالقرب من عزت عندما أصيب، وساعد على حمله إلى المستشفى حيث توفي بعد ساعات قليلة. وشهدت المرأة أيضاً انهمار الرصاص على عزت. ارتحت أخيراً لإضفاء بعض الوزن على قضيتي، وأضفت سريعاً روايتهما إلى الملف. لكن بعد فترة وجيزة من إدلاء الاثنين بشهادتيهما رسمياً، غيّرت المحكمة فجأة مسارها. أعلنت المحكمة العسكرية أنها تفتقر إلى التشريع الملائم للقضية وحوّلتها إلى مكتب المدعي العام، الذي أعلن بدوره أنه غير ملائم من الناحية القانونية لتولي القضية. وتناقل النظام القضائي القضية جيئة وذهاباً إلى أن أحالها في نهاية الأمر على المحكمة العليا لتقرر أي جناح قضائي يمتلك الصلاحية القانونية للنظر في القضية.

أدركت أن قضية عزت ستخضع لطلبات إعادة نظر لا نهاية لها ما لم أتدبّر أمر العثور على إثبات عن أولئك الذين هاجموا الطلاب. ووفقاً لكل من الشرطة والشهود من بين الطلاب كان الجناة الغامضون أثناء كل الاحتجاجات

هم «لباس شخصيس» - أي حرفياً أشخاص يرتدون الملابس المدنية. وهذا تعبير مختصر للقوات شبه العسكرية في الملابس المدنية، وهم من التابعين الموثوقين الصامتين الذين تستخدمهم مراكز السلطة المتشددة في إيران للقضاء على الاضطرابات ونشر الرعب في المجالات العامة، وعموماً في تنفيذ المخططات الأكثر عنفاً التي تفضّل الشرطة العادية أو قوات الأمن تجنّبها. وعندما يُرسلون لشن غارة يمكن تمييزهم من بنيتهم الجسدية المتينة ومن مراقبتهم المزعجة للآخرين. ومن غير الواضح بدقة من يأمرهم ومن يموّل تكتيكات المرتزقة التي يتبعونها. إنهم أشبه ما يكونون بنوع من المافيا المحلية التي ترهب الجوار، وتهمس بالتهديدات في آذان أصحاب المتاجر، وتفتعل ضربات عنيفة مصمّمة لتكريس الخوف والشعور الدائم بانعدام الأمان. وتماماً مثلما يمكن رصد رجل المافيا في الأفلام عن بعد ثلاثة مربعات سكنية يمكن لأي كان التعرف على «اللباس شخصي» فوراً، لكن ما من أحد يعرف على وجه الدقة من هم. كيف يمكن ملاحقة العناصر شبه العسكرية الذين يذوبون في الأزقة المعتمة للمدينة بعدما يطلقون العنان لمحرّكات دراجاتهم النارية ويلوّحون بهراواتهم فوق رؤوسهم؟ إنهم يعملون بموافقة ضمنية من النظام الذي يمتنع عن إلجامهم. لكن كيف يمكن إخضاعهم للمساءلة في حين أنهم لا يوجدون تقنياً؟ كان الأمر بمثابة محاولة محاكمة الغول.

ظَهَرَ ذات صباح من شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٠ في مكتبي شاب يدعى أمير فرشاد إبراهيمي وزعم أنه يعمل من الداخل على فضح العناصر شبه العسكرية «اللباس شخصي». قال إن لديه معلومات مباشرة من مصادرها عن رفاقه الذين هاجموا مهاجع الطلاب. وأفاد أنه ينتمي إلى واحدة من أكثر المجموعات شبه العسكرية عنفاً، «أنصار حزب الله» (التي لا صلة لها بالمجموعة اللبنانية الملتزمة التي تحمل الاسم ذاته)[١]، وأن زعيم المجموعة

---

(١) التوضيح في الأصل. م

ألقى به في السجن لمحاولته الاستقالة من وحدته. أليس ذلك أفضل من أن يكون حقيقياً؟ قلت بحذر، لننتقل إلى التفاصيل، أرجوك.

ما إن بدأ أمير فرشاد حتى امتنع عن التوقف. قال إنه هو من تدبّر المال والتجهيزات التي استخدمت في الهجوم، ولديه الإثبات على متورّطين آخرين. وأثناء الفترة التي أمضاها ناشطاً في المجموعة اشترك أيضاً في هجومين على وزيرين إصلاحيين. إذا كان ما يقوله أمير فرشاد صحيحاً، فهو شاهد جوهرة، ليس فقط في قضية عزت ولكن أيضاً كصلة أبعد بالعديد من الهجمات التي تحيط بها الظلال والتي بقيت في حاجة إلى إثباتات. قال: «أريد الخروج الآن، إنهم يحاولون تلفيق تهمة ضدي». وأوضح أن الأمر أشبه بالانتماء إلى عصابة؛ لا يمكنك الخروج ببساطة، ويشكل ما تعرفه ديناً عليك. وأخبرني أنهم سجنوه سبعة شهور وعذّبوه. وقد أقفلوا عليه مرة في خزانة ضيقة بحجم التابوت وتركوه هكذا أربعاً وعشرين ساعة.

قلت: «أمير فرشاد، يجب أن تعلن ما تعرفه على الملأ. هكذا أكثر أمناً لك. أسرارك خطيرة عليك ما دامت أسراراً، لكن ما إن تخرج إلى المجال العام، حتى تنتهي». وافق، وقمنا بترتيب لتصوير شهادته على شريط فيديو. وتأكدت شخصياً من كل التفاصيل، خصوصاً أنني أعلم أن هاتفي مراقب. وطلبت من شخصين أن ينضما إلينا كشاهدين، في حال قيل لاحقاً إنني أغويت بطريقة ما أو أرغمت أمير فرشاد على كشف ما عنده. في يوم موعدنا، فتحت الباب لأمير فرشاد ولشقيقته وحدّقت فيها بحيرة ودهشة. ربما يعمل أمير فرشاد على فضح جماعته من الداخل، لكنه كان مؤمناً بما يكفي للانضمام إلى مجموعة شبه عسكرية تشبه حركة طالبان لناحية تفسيرها الجذري للإسلام. ومن الطبيعي أن ترتدي شقيقته الشادور الأسود، أو على الأقل أن ترتدي ثياباً محافظة. وبدلاً من ذلك كانت متبرّجة ومدّت لي بأناقة يدها التي طليت أظفارها بلون أحمر يميل إلى الأرجواني، الفوشيا. غريب، هكذا فكرت.

انتقلنا إلى الغرفة التي كان الشاهدان ينتظران فيها، وبعد أن نزعنا لافتة

وغيرها من العلامات التي كانت من شأنها أن تشير إلى مكان التصوير وهو مكتبي، باشرت في تصوير شهادته. وعندما انتهينا استدعتني واحدة من الشاهدين وهي باحثة في جماعة أميركية لحقوق الإنسان إلى الغرفة المجاورة وقالت لي بعجلة «شيرين إنه فخ. إذا كان أمير فرشاد يريد الإدلاء بشهادته فلماذا لم يقصد الحكومة؟ يسيطر الإصلاحيون الآن على الحكومة وسيكونون، في نهاية المطاف، متعاطفين معه. لماذا جاء إليك؟ يمكن أن تتعرضي للاعتقال بسبب شريط الفيديو هذا. يمكنهم اتهامك بتزوير معلومات ضد الجمهورية الإسلامية».

أجبت: «إنني لا أقوم بعمل غير قانوني. أنا محامية أجمع إثباتات لقضيتي».

بيد أن تحذيرها جعلني أفكر. وأقول بصراحة إنني شعرت بالقلق. وقررت أنني لا أريد إبقاء الشريط بين يدي. في اليوم التالي توجهت إلى مكتب نائب وزير الداخلية وتركت الشريط لديه. تصورت أنه في حال صح أن في الأمر فخاً فلن يعود شريط الفيديو في حوزتي على الأقل.

بعد بضعة أيام، بدأت تُنشر مقالات تتحدث عن شريط فيديو يجري تداوله في طهران وخارجها ويظهر فيه شاب يكشف نشاطات «أنصار حزب الله» سيئي السمعة. نبهتني المقالات، وخصوصاً عندما بدأت تُنشر في صحافة التيار المتشدد التي ألمحت إلى أن محامين متورطين في المسألة. وقد أجرت هذه الصحف مقابلة مع والدة أمير فرشاد التي زعمت فيها أن ابنها غير مستقر عاطفياً وأنه تعرّض لعملية غسل دماغ للإدلاء بهذه الأقوال. في غضون ذلك، اختفى أمير فرشاد. وقال والده إن منزلهم تعرّض لغارة وأن عملاء قد اعتقلوه. وهمس أمير فرشاد لأبيه وهو يُجذب إلى سيارة تقف بالانتظار: «لقد وقعت في الأيدي التي كنت أهرب منها».

كانت الأيام التالية شديدة التوتر ومثيرة للقلق. بدأ الوضع يسير في دوّامة تخرج عن السيطرة. وراحت صحف المتشددين تنشر في كل يوم هجومات

على الذين يلطخون الثورة بهذا الشريط المفبرك. ورُفِعت قضية أمام المحكمة واستُدعيت للاستجواب. وصار قلقي يزداد يوماً بعد يوم، واقتنعت أن الأمر برمّته كان فخاً، ومن المؤكد أن الأمر سينتهي بالزج بي في السجن.

جاء بعض الأصدقاء والأقارب في الليلة التي أعقبت استجوابي الثاني للاحتفال بعيد ميلادي. حافظت على ابتسامة مشدودة طوال الأمسية، وقدّمت الكعكة بالشوكولا وادّعيت أن ما من خطبٍ في أي شيء. لكنّ ذهني ظل شارداً بأفكار عن السجن، وبالأخص كيف ستعاني عائلتي. في تلك الليلة بعدما ارتديت البيجاما واستعددت للنوم، جلست إلى مكتبي وكتبت رسالة إلى عائلتي:

«أعزائي،

عندما تقرأون هذه سأكون في السجن. أريد أن أؤكد لكم أنني سأكون بخير. وسيطلق سراحي من دون أن أتعرض للأذى لأنني لم أرتكب أي خطأ. هل يمكنكم أن تفعلوا شيئاً من أجلي؟ أريد منكم أن تتخيلوا لبرهة أنني أُصبت بنوبة قلبية ونُقلت على وجه السرعة إلى المستشفى. ألن يكون ذلك رهيباً؟ سيكون أسوأ بكثير من توقيفي. لذا أرجوكم أن تضعوا كل هذا في اعتباركم.

مع حبي للجميع

شيرين»

سلّمت جواد الرسالة وكان يعرف القليل جداً عن الأحداث التي رشحت إليه. قرأها بسرعة ثم نظر إليّ ممازحاً «هم، شيرين العزيزة، هل في وسعك أن تشرحي لي ما الذي يجري؟» حاولت أن أخبره القصة من دون أن تبدو كئيبة. قلت: «ويمكنك أن تقرأ هذه بصوت مرتفع على سبيل المواساة».

* * *

أميل إلى أن أبدأ الكثير من جُملي بالمعادل الفارسي لعبارة «في السرّاء أو

في الضرّاء» وهو ما يشبه «لحسن الحظ أو لسوئه». ليس لأنني أعطي مقدمات مترددة، ولكن لأن الكثير مما تختبرونه في الجمهورية الإسلامية يترككم في حالة من النقص بحيث لا تستطيعون اتخاذ أي إجراءات موضوعية. إنه كما لو كنتم ترون الواقع باستمرار عبر مرايا مشوّهة كتلك الموجودة في بيوت التسالي، فما يبدو طويلاً أو عريضاً يصبح نسبياً جداً إلى الحد الذي تتخلون معه عن كل التصنيف الموضوعي: طويل أو عريض؟ لحسن الحظ أو لسوئه؟ من يدري.

فلحسن الحظ أو لسوئه، عندما تكونون على وشك الاعتقال في الجمهورية الإسلامية تحصلون على تحذير مسبق في صحافة التيار المتشدد. وكما تفتحون صفحة معيّنة لرؤية توقعات الطقس طوال الأسبوع أو تفتحون الصحيفة الشعبية «همشهري» من أجل الإعلانات المبوّبة، يمكنكم قراءة الصفحات الأولى من صحيفتين أو ثلاث صحف تابعة للتيار المتشدد كدليل إلى من سيتعرض للاعتقال قريباً. إذا كانت العناوين تقع أسفل الثنية (منتصف الصفحة) أو تظهر بتقطع، فإن الأصفاد تبعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. أما إذا كان التشهير بك يشق طريقه إلى الصفحة الأولى يومياً، وإذا كان الغضب الشديد قد بات ملموساً في العناوين الرئيسية، فإنك تعلم أن عليك توضيب كيس متعلقاتك الليلية.

لحسن الحظ أو لسوئه، يتمتع جهاز المتشددين بالفطنة في مجال وسائل الإعلام، فهو يرسل ما يعادل النشرة الصحافية في وقت مبكر، ليتأكد من أن وسائل الإعلام الغربية المقيّدة بمواعيد للنشر وباعتبارات فارق الوقت قد التقطت النبأ. وينسى الحظر على النشر إلى ساعة الاعتقال الحقيقي، وهذا ما حصل أثناء مكالمة هاتفية تلقيتها ذات صباح في أوائل شهر حزيران/ يونيو.

قلت: «آلو؟»

أجاب المتصل: «آلو؟ من المتكلم؟»

قلت: «هذه شيرين عبادي.»

«سيدة عبادي! أنا سعيد جداً لسماع صوتك! لقد تلقينا برقية في وقت سابق تقول إنك اعتقلت. .».

«حقاً؟ إنك لا تقصد. . . .».

لم يتوقف الهاتف في ذلك اليوم عن الرنين. وطوال ساعات، كررت للصحافيين مرّات ومرّات أنني حقاً لست في السجن، بعد، على الأقل. بل إن شقيقتي اتصلت، بعد أن سمعت النبأ على محطة إذاعة أوروبية باللغة الفارسية فأكدت لها أن «كل هذا خاطئ».

في الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو من العام ٢٠٠٠، جاء أخيراً الاتصال الذي كنت أنتظر. قال المتصل: «أرجو أن تتقدمي من الفرع ١٦ من محكمة طهران العامة». معنى ذلك أن الوقت قد أزف. يجب أن أذهب إلى إيفين.

أثناء إلقائي نظرة تفقد أخيرة على الشقة، والتأكّد من أنني أخذت دوائي للضغط وفرشاة أسنان احتياطية، أقنعت نفسي أنني سأعود قريباً. ناديت الفتاتين اللتين كانتا تشاهدان التلفاز في غرفة الجلوس: «أبوكما وأنا لدينا اجتماع هذا المساء. اطلبا بيتزا لكما للعشاء». قلقت لئلا يتأخر جواد كثيراً على الوزارة حيث طُلب مني التقدم أولاً، في حال بدأت الفتاتان تشعران بالقلق.

لم تستغرق الجلسة مع قاضي المحكمة أكثر من عشرين دقيقة. ووعد بأن يبلغ زوجي، الذي افترضت أنه ينتظر في الخارج، أنني قد نُقلت إلى السجن. قادني الحراس إلى ناحية من موقف السيارات لم أكن قد رأيتها قط في السابق، عبر الباب الخلفي. كان الوقت متأخراً جداً، بعد الساعة العاشرة، وكانت أضواء الشارع تغسل تلك الناحية من المرأب بوهج برتقالي غريب. بحلول تلك الساعة كان ازدحام السير قد خف، فلم يستغرق وقتاً طويلاً لنتجه عبر الطريق السريع، مروراً بالمئذنتين اللولبيتين التوأم في الأرض الجديدة المخصصة للصلاة وعبارة «يا حسين» المخطوطة بإتقان بواسطة الأضواء على

سفح تلة. توقف السائق قرب كشك واشترى لي مشروباً غازياً. لقد جف فمي.

أخيراً وصلنا إلى إيفين. إيفين الذي مرّ ببوابته المسيّجة بالشريط الشائك تقريباً كل سجين سياسي في نصف القرن الأخير. إيفين، حيث أمضى صهري فؤاد أعوام شبابه الأخيرة. عادت أفكاري إلى أزمنة سابقة، إلى الحضور الطاغي لإيفين في تاريخنا. لقد كنت غير مستعدة على الإطلاق للسؤال الأول الذي وجّه إليّ.

«هل أنت هنا بسبب جريمة أخلاقية؟»

عادة ما تكون النساء اللواتي يوقفن ويؤتى بهن إلى إيفين بعد حلول الظلام من المومسات. بعد الصدمة التي استغرقت ثانية واحدة، أدركت أن حارس السجن يفترض أنه ربما تكون هذه هي حالتي.

«لا! ما الذي تقوله؟ جريمتي سياسية!».

تذكرت نكتة كنا نقولها دائماً والعبارة الأخيرة منها هي «جريمتي سياسية». بدأت أضحك، وهو ما أغضب مسؤول السجن بلا حدود. سأل بانفعال: «لماذا تضحكين؟؟».

ظللت أكرر «جريمتي سياسية»، وضحكي يكاد يلامس حدود الهستيريا. انتظر حتى أتمالك نفسي، ثم نظر بعيداً باشمئزاز عندما رأى أنني لا أستطيع تمالك نفسي.

«اكتبي فقط أي شيء، وخذيها من هنا».

وقادتني حارسة أنثى إلى رواق طويل، إلى ما قالت إنه «أفضل زنازينها». صديقة محامية أوقفت قبل أسابيع وأخبرتني ممازحة أنها طلبت منهم الاحتفاظ بزنزانتها، وهي «الأفضل»، لها. وها أنا هناك. الزنزانة الأفضل مغطاة بالقذارة وليس في حوض الاغتسال مياه جارية. ويغطي الصدأ والغبار المرحاض المعدني في الزاوية. سألت بتردد: «هل توجد واحدة أفضل؟». جعلتني أنظر في ثلاث أخريات، وأدركت بأسى أن زنزانتي كانت فعلاً الأقل سوءاً. كنت

عاجزة عن استجماع شجاعتي للعودة إليها مجدداً فجلست منحنية في الرواق. مرت سجينات مقيمات في الساحة ذاتها في طريقهن إلى غسل أطباقهن. سألن: «لماذا أدخلت إلى هنا؟». كانت قضية أمير فرشاد قد باتت تعرف في الصحافة بـ«قضية صانعي الشريط»، لذا همست من دون أن أرفع رأسي «صانعو الشريط».

سألت إحداهن: «حقاً؟ ماذا كان يُسمّى؟». أرادت الأخريات أن يعرفن: «كم قبضت؟»، «هل كان المخرج لطيفاً؟».

يا إلهي، فكرت، إنهن يعتقدن أنني هنا لأنني صوّرت شريطاً إباحياً. أنزلت رأسي مجدداً وحاولت التخلص من أصواتهن القاسية.

بعد برهة، مر طبيب السجن بزنزانتي ليقيس ضغط دمي. عندما خرج، مغلقاً الباب وراءه بقوة، حدّقت في جدران الزنزانة المجدورة والملطخة وشعرت أن كل قلق الأسابيع الماضية ينحسر ببطء. أدركت أنه ليس لديّ من ملجأ سوى الله. وهمست: «لقد فعلت كل ما كان في وسعي فعله، والآن حان دورك». ثم صنعت مخدّة من كيسي، وسحبت شادوري عني وغرقت في النوم.

* * *

أيقظني صوت قرع الصينية المعدنية التي تحمل الفطور. قطعة من الخبز ومكعّب صغير من الجبنة المالحة وبعض الشاي. قرعت حارسة بابي واستدعتني من أجل تسجيل إجراءات دخولي تسجيلاً ملائماً. رمت إليّ بشادور السجن - أزرق اللون مع نموذج عن ميزان العدالة- وطلبت مني اللحاق بها. نزلنا إلى المكتب الإداري حيث أخذوا بصماتي وعلّقوا لوحة تحمل رقماً حول عنقي والتقطوا لي صورة. سألني واحد من الحراس: «إذاً، ماذا تعزفين؟». في إيران عندما يتم توقيف شخص ما، يتعرض بيته للمداهمة أيضاً بحثاً عن الإثباتات. وبما أن بعض آيات الله كانوا يعتبرون العزف على الآلات الموسيقية

غير أخلاقي، اعتقدت أنهم وجدوا بيانو الفتاتين أو السيتار[١] الذي يعزف زوجي عليه وأنهم يحاولون إضافة عزف الموسيقى إلى لائحة جرائمي. قلت بازدراء: «لا أعزف على أية آلة على الإطلاق».

رد الحارس بحدة: «كفّي عن المراوغة. لقد سئمنا من ألاعيبك منذ الليلة الماضية. أسألك الآن مجدداً: ماذا تعزفين؟»

قلت: «البيانو لابنتي. ليس للجميع ميول موسيقية كما تعرف».

التقطت الحارسة التي رافقتني إلى هنا خيط سوء الفهم، وشرحت بابتسامة خفيفة للحارس الأول أنني اعتقلت لصلتي بقضية أمير فرشاد.

مرة جديدة، بزغت عليّ شمس الحقيقة. لقد اعتقد أنني مدمنة مخدرات! يُستخدم الفعل الذي يعني تعاطي المخدرات في اللغة الفارسية تماماً كما يُستخدم الفعل الذي يشير إلى العزف على آلة موسيقية. «ماذا تعزف؟» يعني أيضاً «ماذا تتعاطى؟» -كما في المخدرات. لقد تصوّر أنني كنت في حالة نشوة من المخدرات ليلة أمس لأضحك بهستيرية. مومس، ممثلة أفلام إباحية، مدمنة مخدرات. أليس من أحد في هذا السجن يمكن أن يعتقد أن المرأة تستطيع أن تكون سجينة ضمير؟!

بعد إجراءات التسجيل جرى اقتيادي إلى زنزانة جديدة. لم تكن أفضل حالاً لكن على الأقل كان الحرّاس هناك ألطف، ولاحظت أنهم كانوا يعاملونني معاملة مميزة. كانوا يغرفون الطعام من أوعية ضخمة للسجينات الأخريات لكنهم كانوا يقدّمون لي صينية خاصة من الشيلو كباب. حدّقت لبضع ساعات في السقف، ثم حدّقت في الأرض، عندها شعرت أن عينيّ ستصابان بالحول من الملل. لذا بدأت أختلس النظر من خلال ثقب صغير في الباب. كانت إحدى السجينات تصطحب طفلتها التي تروح تلعب في القاعات وتسلّي الحراس.

---

(١) آلة موسيقية تشبه البزق. م

وتبيّن أن جميع الحراس يحملون شهادات جامعية، ويمتون بصلات إلى الشبيبة المطالبة بالإصلاح. كانوا يعرفون عن منظمة الدفاع عن حقوق الأطفال التي ساهمت في تأسيسها، وعندما اكتشفوا الصلة زاد احترامهم لي ولطفهم معي. كانوا يسمحون لي بالتسلل إلى مكتبة السجن لأتمكن من الحصول على بعض الكتب. (كانت المكتبة مخصصة تقنياً للسجناء الرجال؛ حتى هنا كنا من الدرجة الثانية). وجلبوا لي ثياباً نظيفة. لكنهم لم يستطيعوا حمايتي من وحشة الليل. كان العديد من السجناء في دائرة الزنزانات الانفرادية حيث كنت مسجونة من مدمني المخدرات، وقد جيء بهم إلى هنا لحملهم على التخلي عن الإدمان من دون مساعدة أي عقار لنزع السموم. كانوا يولولون ويصرخون ألماً، صرخات فظيعة يتردد صداها عبر الجدران، على نحو أسوأ من الذئاب الجريحة أو أي شيء أستطيع تخيله. بدأ الحراس يشعرون بالألفة تجاهي، وكانوا أحياناً يأتون ليجلسوا في زنزانتي ويشتكون من عملهم. تعاطفت معهم. كان عملاً قاسياً. لكن على الأقل تستطيع أن تعود إلى منزلك بعد ورديتك، هكذا فكرت لنفسي.

استغربت جداً كيف أصبح مألوفاً لديّ إيقاع الحياة في السجن. انحرافات الحراس الشخصية، الرطوبة الشديدة، رائحة الزنازين الشبيهة بالغبار، حتى عويل المدمنين، بدت لي كلها طبيعية بعد بضعة أيام. في اليوم الثالث، زارني شاب واتهمني بأنني أحاول إخراج رقم هاتف من السجن. قلت بتهذيب: «لم أفعل شيئاً كهذا». استشاط غضباً وفتش كيس أغراضي بحركات جلفة وخرقاء. صُعقت. بعد ذلك جاءت إلى زنزانتي حارسة السجن وهي امرأة رقيقة كنت أعرفها قليلاً في السابق.

سألتني والتأنيب يظهر من عينيها: «لماذا بحق الجحيم لم تدافعي عن نفسك؟ لماذا لم تقولي له إن الحراس هنا لم يبلّغوا عن أمر كهذا؟ ما الذي يتحدث عنه بحق الجحيم؟ أي كلية حقوق لعينة قصدتها؟ ما الفائدة من كل التعليم الحقوقي هذا إذا جلست هناك صامتة».

لم أقل شيئاً، أغمضت عيني فقط كما لو أنني متعبة. كنت منهكة إلى حد أكثر مما يسمح لي بمجادلتها. عزيمتي كانت أضعف من أن أشرح لها أن الدفاع القانوني يستخدم فقط في الأماكن التي تحترم فيها الإجراءات الضرورية. لمست كتفي، ونظرت إليّ برفق، وقالت لي أن أثق بالله، وتركتني وشأني.

في وقت لاحق من تلك الليلة نبّهني قرع حاد على الباب من سُبات نصف واعٍ. «استعدي، لقد أرسلتِ إلى سجن آخر» أبلغني صوت امرأة من الجانب الآخر من الباب. فجأة عاد لي كاملاً كل الخوف الذي تدبّرت أمر التغلب عليه منذ وصولي إلى إيفين. وفيما كنت أوضّب أغراضي في الكيس بأصابع مرتجفة، بدأت نتف من كل التقارير التي قرأتها عن التعذيب في السجن تلمع في ذهني.

اهدئي، قلت في نفسي لكن من دون فائدة. علمت أنهم ما كانوا ليجرؤوا على اغتصابي. لكنني كنت أعلم أنهم يمكن أن يجلدوني على قدميّ الحافيتين إلى أن «أعترف»، إلى أن أقول «نعم، إنني، أنا شيرين عبادي، زوّرت دعاية سياسية مناهضة للجمهورية الإسلامية».

سألت: «إلى أين تأخذونني». صمت. «أرجوكم هل تستطيعون فقط إبلاغي إلى أين نحن ذاهبون؟» ماذا لو كانوا يأخذونني إلى المكان المروّع الذي يحمل اسما مشؤوماً لكنه لا يثير الريبة أي «اللجنة المشتركة»؟ كان التعذيب هناك بلا أي ضوابط. إذا كنا متجهين إلى هناك، فقد علمت ماذا يخبّأ لي.

لم يجبني أحد. قالوا: «سيري فقط». وفي باحة مظلمة أمام مجمع السجن، وقفت حافلة منتظرة. ربط واحد من الحراس عصبة حول رأسي وساعدني على الصعود إلى الحافلة. انطلقت الحافلة هادرة وتلمست المقعد تحتي، وأنا أحدّق في سواد العصبة المصنوعة من القماش على عيني. بدا أننا نسير في حلقات. وعندما توقفنا نزلت متعثرة من الحافلة ويداي تطوفان أمامي. قال أحدهم: «من هنا». تعرّفت إلى الصوت. إنه علي، المحقق الذي استجوبني في المحكمة. قال: «نحن نعقد جلسة محكمة من أجلك».

ووضعت يدي على ما بدا كطرف عارضة خشبية مقطوعة. «اتبعيني» قال.

حاولت أن أتبعه، وأنا عمياء، ترشدني العارضة فقط، فيما تتدفق إلى ذهني بسرعة صور حية عن كل الأمور الشنيعة التي يمكن أن تقع. جفّ فمي ولم أستطع أن أبقى هادئة. صرخت بعلي بصوت مجلجل: «ستُسأل عن هذا يوم القيامة. أنت المتهاون! يفترض بك أن تكون من يحقق معي، المعين للتحقيق في هذا. لكن عوضاً عن تقفّي أثر من سرّب الشريط توجّه الاتهامات ببساطة إليّ». خرجت عن طوري، وأرخى الغضب والرعب كل كوابحي. وانطلق صوتي عالياً: «أريدك أن تعرف أنني لن أغفر لك أبداً يوم القيامة».

فجأة انتهت العارضة. قال علي: «انزعي العصبة». أغمضت وفتحت عينيّ لتتعودا الضوء الخافت في مدخل ضيق، يكاد لا يزيد كثيراً عن عرض منكبي رجل. ثمانية أبواب مفتوحة على رواق يفضي إلى زنازين السجن الانفرادي. قال: «الماء أنظف هنا (سببت مياه البئر الملوثة في الباحة السابقة باضطراب معدتي) والطعام أفضل، وما من أحد سيزعجك ليلاً». ووعدني: «ستكونين مرتاحة أكثر بكثير هنا». أجبت بتجهم: «أعتقد أنني سأكون مرتاحة أكثر في بيتي. لماذا أنا هنا في المقام الأول؟». دار على عقبيه من دون أن يجيبني، واجتاز الباحة بخطوات كبيرة وأقفل الباب وراءه.

باشرت استكشاف محيطي الجديد. لم يكن هناك حراس. أنعمت النظر في كل زنزانة، كانت جميعها من دون نوافذ، على أرضها قطع من نسيج رخيص بدا واضحاً أنه مستخدم وغير مغسول منذ أعوام. وقعت عيناي في إحدى الزنازين على علبة سجائر إيرانية رخيصة نصف فارغة. أردت حقاً أن أدخن. تركت ورقة نقد مجعدة على الطاولة ثمناً للسجائر، حيث كان يُسمح لنا بالاحتفاظ ببعض النقود لاستخدامها في كشك السجن الذي يبيع النثريات، ومضيت أطوف بحثاً عن أعواد ثقاب. طوال نصف ساعة، فتشت كل الزنازين، دققت في الزوايا وتحت السجاد، في كل مكان. التدخين مسموح في السجن، لكن لا يسمح للنزلاء بالاحتفاظ بأعواد الثقاب أو القدّاحات

معهم. عليك أن تقرع باب الزنزانة وتطلب من أحد الحراس أن يأتي ويشعل سيجارتك. أردت أن أدخن واحدة من تلك السجائر أكثر مما أردت أي شيء على الإطلاق. لكنني كنت قد عاهدت نفسي على ألا أطلب أي شيء في السجن. كانت هذه مسألة مبدأ. رفضت أن أظهر حاجتي إلى أي شيء كان في وسعهم إعطاؤه. وبعد بحث آخر غير مثمر، ألقيت العلبة على الطاولة، وتمددت على الأرض النتنة وغرقت في النوم.

* * *

كان المقصود من الرفسة على جانبي أن تؤلمني وأن توقظني أيضاً. سألتني امرأة ضخمة دهنية البشرة تقف فوقي: «ماذا تفعلين هنا؟».

قلت والنعاس يغلبني: «لا أعلم. أحضروني إلى هنا الليلة الماضية».

«حسناً، هذه غرفة الحراس، لذا عليك أن تنتقلي إلى مكان آخر».

قلت: «جيد» ورحت أجمع أغراضي.

سألت بخشونة: «لمَ أنت هنا في جميع الأحوال؟».

أردت أن أجيب بقسوة: «ليس من شأنك». لكنني نبهت نفسي: أنت عالقة هنا، ستحتاجين إلى التغلب بطريقة ما على هؤلاء الأشخاص الكريهين. شرحت لها الأمر بهدوء.

قالت وهي تعبث مفتشة في أغراضي: «أنت تكذبين». أخذت ثيابي وألقت نحوي بشادور ملطخ وتفوح منه رائحة كريهة.

«لكن... لكن... أرجوك أعيدي لي ثيابي».

قالت بحدة: «هذا كل ما ستحصلين عليه».

جاء في وقت لاحق طبيب ليفحص ضغط دمي، فسألته أن يعمل على إعادة ثيابي. لعلّة ما، كان الجلوس في تلك الزنزانة بثوبي النظيف، بدلاً من ذلك الثوب الفضفاض المتسخ الذي ارتدته أكثر من مئة امرأة محطمة، يخلق فرقاً هائلاً بالنسبة إليّ.

لم أستطع أن أقرر ما إذا كنت أفضّل الباحة القديمة أو الجديدة. هنا

تحسنت لائحة الطعام. كباب الدجاج، قطع من اللحم المفروم، يخنات مغذية، وكل عشرة أيام، تفاحة! لكن الحارسات كن في مزاج سيّئ على الدوام ولئيمات وحقيرات، كنّ أربعاً يحرسنني وحدي، وقد كرهن هذه الحقيقة أشد الكراهية. وكان يسرّهن القول «نحن سجيناتك». كان من العسير التكهن في أي وقت من اليوم نحن، حيث إن المصباح العاري المعلق في غرفتي مضاء دائماً، ولم يكن ثمة نوافذ يمكن من خلالها التحقق من الغروب أو الفجر. ولم يُسمح لي بالحصول على الصحف أو على مذياع. وفي بعض الأحيان كنت أستيقظ من غفوة وأتساءل ما إذا كانت عشر دقائق قد مرّت أو عشر ساعات. كان ذلك يشعرني بفقدان الاتجاه وهو ما أفترض أنه كان مطلوباً.

بعد اليوم الأول في الباحة الجديدة، بدأت أفقد صوابي من الوحدة والصمت. افتقدت صراخ جيراني السابقين وشتائمهم، وعويلهم في منتصف الليل طالبين «فقط القليل من الهيرويين»، وقرعهم على الباب الحديدي طلباً للحصول على نار للسيجارة. بعد يوم، انتهى رهاب الأماكن المغلقة والاضطراب اللذان أصاباني. وفكرت أن إيفين ربما لم يكن سيئاً إلى هذا الحد في نهاية المطاف. على الأقل ليس عليّ أن أفكر في مسح الأرضيات وإخراج النفايات. ولا حاجة بي إلى القلق بشأن المقال الذي وعدت بكتابته أو بشأن المحاكمة التي ينبغي أن أستعد لها. لم يكن هناك طلاب يسألون ما إذا كنت قد قرأت أطروحاتهم. وما من عشاء يجب أن يطهى، ولا رهن يجب تسديد أقساطه.

كانت جلسات استجوابي تجري عادة في غرفة صغيرة تحتلها كلها تقريباً طاولة خشبية مستهلكة. وتدوم الجلسة ساعات عدة، وتتكرر الأسئلة غير المباشرة، ويبدأ القاضي كل جولة من الاستجواب بتلاوة رنانة لآيات من القرآن. وكان المسؤول عن استجوابي، عليّ، حاضراً أيضاً، وبشكل عام، كان كلاهما لائقاً كفاية. لم تكن الاستجوابات هي أكثر ما أثار انفعالي، بل مرور الوقت مروراً بطيئاً. انقلبت الساعات أياماً، والأيام أسابيع في الرتابة

الحانقة لزنزانتي. صليت خمس مرات في اليوم. وكنت أتمدد وأحاول القيام بحركات رياضية.

ذات صباح، وكأنما من العدم، قدّمت الحارسة لي الفطور وقالت لي إن عليّ ارتداء ملابسي من أجل محاكمتي في ذلك اليوم. لقد أبهجتني فكرة الخروج من حدود مجمع الزنزانات إلى أي مكان على الإطلاق، حتى إلى ما سيكون محاكمتي التي ستشوبها النواقص. صعدت إلى حافلة صغيرة لأجد على متنها أمير فرشاد ذاته إلى جانب اثنين مشتركين في القضية وهم يرتدون ثياب السجن والأخفاف. في اللحظة التي دخلنا فيها إلى مبنى المحكمة غمرني شعور كثيف بالحماسة الشديدة. بعدما كنت وحيدة أو مع الحراس أو مع محقق، طوال مئات من الساعات، كان ازدحام الناس - الذين جاءوا للتعبير عن تمنياتهم الطيبة، والصحافيون الذين يدفعون رجال الشرطة للتكلم معنا- قد فاض على مشاعري بالأصوات والألوان.

فجأة، سمعت الصوت المألوف لزوجي يحاول جذب انتباهي. شق طريقه قُدماً، إلى جانب المحامي الذي سيتولّى تمثيلي. تبيّن أنها الجلسة التمهيدية. وضِع أمير فرشاد على المنصّة وظلّ أميناً، بشجاعة، لروايته الأصلية. ثم تلت المحكمة شكاوى المدعين، الذين كانوا مجموعة مختارة من اليمينيين المتطرفين وعناصر المجموعات شبه العسكرية والصحافة المتشددة. وفي لحظة أثناء إدلاء أمير فرشاد بشهادته استدعى القاضي المحقق علي.

قال القاضي: «شهادته لا تطابق محضر استجوابه».

أجاب علي: «دعني أحاول تذكيره».

كانت هذه المحادثة على مدى السمع. وفيما كنا نُقاد إلى خارج قاعة المحكمة، لمحت شقيقتي والدموع تنحدر من عينيها تشق طريقها صوب المقدمة. لم تنجح في التقدم وسط الجموع، لكنّ أعيننا التقت.

* * *

عشرة أيام إضافية في السجن. عشرة أيام إضافية من قعقعة صينيات الفطور، ومن الحارسات النكدات اللواتي يدخنّ ويحتقرنني لأنني وحيدة ويفترض بهنّ هنّ الأربع مراقبتي. عشرة أيام إضافية من محاولة تخيّل المنحدرات اللطيفة الصخرية لجبال ألبورز وراء إيفين حيث كنا نتنزه كل أسبوع أنا وصديقتي الشاعرة سيمين بهباهاني، لنتحدث بتكاسل ونحن نتسلق الجبل فيما يمر بنا مراهقون مسرعون يحملون مسجّلاتهم ومناديلهم الكبيرة المزركشة. كنا نتسلّق في العادة قمة معينة ونتوقف لشرب الشاي في مقهى جبلي، متذوقتين هواء المرتفعات المنعش ومشهد الممر الجبلي الأخضر. كانت روحي وروح سيمين متقاربتين، والكثير من مواضيع شعرها - معاناة النساء، الاحتفاء بحقوقهن ووجودهن- ألهم أعمالي. حاولت أن أمضي ساعات أكثر أتذكر أبياتاً من قصائدها الغزلية. كانت الصور تأتي لوحوش ترتفع في السماء في خطوط من الدخان ولحوريات مسلوبات.

في تلك الأيام الاخيرة، بدأت أُهلوِس. تحركت فجأة كل آلامي الجسدية الصغيرة. آلام الورك، وضغطي المرتفع، وخفقات القلب السريعة. احتقرت ضعفي وحاولت ألا أشتكي. ضغطت بأسناني على أسناني وثنيت أصابعي حتى ازرقّ لون الأظفار، وابتلعت تأوهاتي. جربت أن أتذكر من قال «نحن لم نولد لنعاني». فلم أستطع، وجعلني عجزي عن التذكر غاضبة غضباً رهيباً. التقطت ملعقة معدنية وحاولت أن أنقش على الحائط الإسمنتي: «ولدنا لنعاني لأننا ولدنا في العالم الثالث. المكان والزمان مفروضان علينا. ما من شيء يمكن فعله سوى التحلي بالصبر».

سعيت ألا أصبح حالمة جداً لكي أبقى في حالة صفاء ذهني حاد أثناء الاستجوابات. لم أكن غريبة عن أساليب قاضي التحقيق في الخداع والدفع نحو الزاوية لتوريط شخص آخر، عبر القول إن هذا الشخص قد ورّطك أولاً. هذه خدعة غير بارعة وكلاسيكية من خُدع التحقيق وقد تدبّرت أمر تجنّب كل محاولة من هذا النوع. لكن أحدهم ورّطني في نهاية المطاف. سعيت إلى إقناع

نفسي بألا أحكم عليه بسبب ذلك. فبعد كل شيء يواجه الناس الاستجواب والتعذيب بأشكال مختلفة. يختلف الناس في نواحي البنى النفسية والمزاج والحساسيات؛ وقد أمضى بعضهم حياتهم كلها يتوقعون اليوم الذي سيجري فيه تقييدهم إلى طاولة وجلدهم على أقدامهم بحبال قاسية، والطلب إليهم بين الضربة والأخرى أن يقولوا أسماء وأن يُفشوا كل الأسرار التي يعرفونها. لكنْ حتى الناشطون السياسيون الأشد صلابة الذين عوّدوا أنفسهم على الترهيب الجسدي والنفسي لن يعلموا إلى أي مدى يمكنهم الوصول ولا كم من الوقت يستطيعون الصمود.

أفكر أحياناً أنها واحدة من أكثر الحقائق جلباً للحزن في أن يكون المرء ناشطاً أو مثقفاً في مكان كإيران. عندما يخرج المعارضون أو المثقفون العاديون المتقدمون في العمر من السجن، غالباً ما لا يجري الاحتفاء بهم لأنهم ببساطة أبدوا شجاعة أو تمكنوا من النجاة، لكن سلوكهم في السجن يتعرض لتفحّص شبِق. هل خضعوا ووافقوا على تصوير شريط فيديو باعترافاتهم؟ هل وقعوا رسائل؟ هل كتبوا لوائح بأسماء رفاقهم؟ ومن خلال إصدار حكم على ما يفترض أن يكون أخلاقياً في منأى عن الحكم - استجابة فرد معيّن لشكل من أشكال التعذيب - نكون قد عززنا تكتيكات المحقق. وشرّعنا سُقم مؤسسة كاملة، كما لو أننا عندما نُدفع دفعاً نحو وضعية محطمة من التعذيب المتواصل أو بعد الانهيار، يكون ثمة شيء يُسمّى الاستجابة الصحيحة.

جرت الجلسة الثانية من المحاكمة كالجلسة الأولى تقريباً. على الأقل سمحت المحكمة هذه المرة لزوجي بالتحدث إليّ لبضع دقائق في مدخل المحكمة. قلت: «لا تدع أمي أو الفتاتين يزرنني في السجن في ظل أي ظرف من الظروف». كنت أستيقظ كل صباح أفكر فيهن، لكنني لم أرِد أن يروني في ثياب السجن ووراء القضبان. لم أرِد لهن أن يعشن مع هذه الذكرى. أسرعت شقيقتي فيما كان الحراس يأخذونني وتبعتنا وهي تهمس في أذني: «هل أنت بخير؟ هل أنت بخير؟». في اليوم التالي سُمح لجواد بأن يأتي لزيارتي في

السجن. تحدثنا برهة وجيزة جداً، وقبل أن يغادر مرّر لي رواية تركتها إلى جانب السرير قبل إنهائها «شجرة تين الأديرة».

***

مساء يوم خميس متكاسل، أثناء استلقائي على السجادة القذرة في زنزانتي، وأنا أشعر بنعاس يمنعني من القراءة ولكنني أشعر أيضاً بالقلق الذي يمنعني من النوم، قرعت الحارسة بابي لتبلغني أن ثمة اتصالاً هاتفياً لي. كان هذا القاضي الذي يتولى قضيتي، يتصل ليعلمني أنه قد مضى خمسة وعشرون يوماً منذ أن عبرت لأول مرة البوابات الحديدية لسجن إيفين، لذلك يمكن الإفراج عني بكفالة قدرها عشرون مليون تومان (حوالى ٢٥ ألف دولار). وسط سعادتي القصوى، اتصلت برقم هاتف بيتي وطلبت من زوجي أن يذهب إلى مقر المحكمة صباح السبت باكراً وأن يأخذ معه سند ملكية بيتنا.

في اليوم التالي، زحفت الساعات ببطء معذب، لكنّ أنباء إطلاق سراحي هدأتني، ووجدت نفسي قادرة على التركيز على الرواية للمرة الأولى. عندما هبط الليل، وشعرت بالكتاب ثقيلاً بين يدي، استلقيت على ظهري وتركت ذهني يجول. فكرت في رؤية ابنتيّ مجدداً، وكم كان مريحاً لي أنني جنّبتهما رؤيتي في شادور السجن القذر. فكرت في نزهاتي الطويلة الأسبوعية التي سأستأنفها مع صديقتي الشاعرة، نخرج مع ضوء النهار الأول ونتوقف لشرب الشاي قرب الوادي الضيق الذي ينفض الثلج عنه، وتلوح طهران في البعيد. فكرت في ما أخبرني مرّةً واحد من زبائني، أكبر غانجي، عن ضرورة السجن. في إيران، ما لم تتعرض للعقاب العلني، سيعتقد الجميع أنك متعاون مع النظام.

عندما استيقظت صباح السبت، أمعنت النظر في أرجاء الزنزانة التي طُبعت زواياها في ذاكرتي، وتساءلت كم سيطول الزمن قبل نسيان أشكال اللطخات والرسوم المنقوشة على الجدران. وبحلول الساعة التاسعة صباحاً كنت قد

حزمت الأغراض الخمسة أو الستة التي تشكل مقتنياتي الشخصية، وجلست مستعدة على السرير النقال، أنتظر بلهفة قرع الحارسة على الباب. أخيراً، جاءت عند الساعة الخامسة. الحارسة الضخمة الجسم التي اشتكت من أنها سجينتي، فتحت باب الزنزانة على اتساعه وطلبت مني أن أتبعها. كانت تسير في الرواق بجهد وأرغمت نفسي على السير وفق سرعة خطوها، على الرغم من أنني شعرت بأن قدميّ خفيفتان إلى درجة أنني فكرت في أنهما ستتركانني في أي لحظة.

كانت تقف في باحة السجن سيارة إسعاف ذات نوافذ مطلية، في الانتظار. قال لي مسؤول في السجن إن سيارة الإسعاف ستنقلني إلى محطة توقف لسيارات الأجرة. لكن لماذا سيارة إسعاف؟ ازدحام السير في طهران لا تحرّكه العربات المخصصة للحالات الطارئة، لذا من المؤكد أن المقصود لم يكن نقلي بسرعة. فكرت أنه من الأفضل عدم طرح الأسئلة في هذه المرحلة، والصعود ببساطة إلى متن سيارة الإسعاف. وفيما كنا نتقدم نحو الطريق السريع المزدحم، حدّقت بتأثر في صفوف السيارات المتشابكة - السائقون الضجرون يتفحصون السائقين المحيطين بهم، شاحنات يعلوها الغبار محملة بالفاكهة وقد كتبت على جوانبها تعليقات عابثة - وفكرت للمرة الأولى على الإطلاق أن ازدحام الساعة السادسة في طهران لا يخلو من سحر.

بعد فترة وجيزة، وصلنا إلى المفترق الواسع في شمال طهران الذي تتعرج فوقه الجسور المعلقة ويُعرف بتقاطع «باركواي». أثناء توقفنا عند إشارة مرور حمراء نادى «سائق سيارة الإسعاف» سائق سيارة أجرة متوقفة بجانبنا وسأله إذا كان في وسعه نقلي إلى البيت. هز السائق الذي فوجئ رأسه موافقاً، فأمسكت بكيسي وقفزت من سيارة الإسعاف.

سألني السائق وهو يحدّق في مرآته الخلفية: «هل أنت مريضة يا خانوم؟»

قلت: «لا، لقد أُطلق سراحي من السجن الآن!». نظر إليّ جفلاً، فسارعت إلى طمأنته لئلا يقلق: «لست لصة أو مجرمة. كنت سجينة سياسية».

تفرّس في وجهي عن قرب، ثم هتف «هاي! ألست أنت الخانوم عبادي؟» عندما قلت نعم، ابتسم ابتسامة مشرقة وهنأني بإطلاق سراحي. بعد دقيقتين من الصمت المهذب، انطلق يروي قصته مع الويلات. كان يحمل شهادة دراسات عليا في الهندسة ويحاول زيادة دخله الهزيل باستئجار سيارة أجرة بعد الظهر من صديق. واشتكى من الفساد والرشى والتضخم والبطالة. وبعد برهة، توقف ليرى ما إذا كنت أصغي. بدا حزيناً حتى أكثر مني.

كنت متلهفة للوصول إلى البيت، لكنني لم أتمكن من مقاومة الرغبة في التوقف أمام أحد الأكشاك الخشبية على الطريق لشراء الصحف، وفق الطقس اليومي الذي افتقدته أكثر ما افتقدت بين الطقوس. تفحصت الرزم - المكوّمة على الرصيف بحيث جَعَلَته كاللحاف ذي المربعات، وكانت كثيرة جداً - بعينين شرهتين. اشتريت سبع أو ثمان صحف، لففتها معاً، وضممتها بقوة إلى صدري. وعندما بدأ التاكسي يهبط إلى شارعي المنحدر تمكنت من رؤية أقاربي وقد تجمعوا خارج البيت، ومعهم حَمَل جاهز ليضحّوا به. أسرع السائق ملتفاً حول السيارة ليفتح الباب ورفض أن يأخذ مالاً مني.

وما إن دخلت من الباب حتى ألقت ابنتاي بنفسيهما بين ذراعي، وحصرتاني لدقيقة طويلة. بقينا مستيقظين في تلك الليلة إلى ساعة متأخرة، نشرب الشاي دورة وراء دورة. وقد وضع زوجي أمامي رزمة ضخمة من الصحف، كل تلك التي صدرت أثناء وجودي في السجن، بدأت أقلّب صفحاتها فيما الأحاديث تضج من حولي. جلست ابنتاي قربي، تكاد أنفاسهما تتقطع وهما تحيطانني علماً بكل ما استجدّ في حياتيهما منذ رحيلي. كانتا معتادتين التشاور معي حول كل شيء، من الواجبات المدرسية إلى الأصدقاء إلى الطريقة الفضلى في تسريح الشعر وفرقه، وترويان الآن كل القرارات، صغيرها والكبير، التي اضطرتا إلى اتخاذها وحدهما في غيابي. كذلك جمعتا كل الرسائل من كل من اتصل أو أرسل عبر الفاكس من أنحاء العالم منذ أن ذاعت الأنباء عن توقيفي، وفاجأني حجم الملف الذي ضم الرسائل. لقد

تنامت سمعتي الدولية ببطء مع مرور الأعوام، ولم أكن أحظى كل يوم بكدسة سميكة من الرسائل لتذكرني كم أصبحت سمعتي بعيدة وواسعة.

بعد أن ألقيت نظرة على القليل من الملاحظات، بعد منتصف الليل بوقت طويل، بدأ الأقارب يغادرون واحداً بعد الآخر، وهبطت سكينة دافئة إلى غرفة المعيشة حيث كنا نجلس. لقد اعتدت طوال أعوام أن أبقي الجانب البشع من عملي خارج البيت. ولم أكثر من الحديث عن القضايا التي أتولاها، والتي كنت في الكثير منها أدافع عن ضحايا تعرّضوا لأعمال عنف مروّعة، ولم أرَ سبباً لجعل ابنتيّ تواجهان كل التفاصيل المؤلمة. بطبيعة الحال، كانتا تستمعان إلى جوانب من مقابلات أجريها عبر الهاتف، وكانتا تعلمان أن أيام عملي تعج بالمحاكمات وبالرحلات إلى السجن لزيارة الموكلين. لكنني شعرت بأهمية الحفاظ على بعض التوازن ورسم بعض الحدود حول عملي. وأبقيت الأحاديث على العشاء خفيفة، بحدود ما استطعت، حيث أمازح ابنتيّ وأحاول تشجيع ما يشبه المناخ الطبيعي. وشكّل الخروج من السجن لحظة أكثر تحدياً في الجهد طويل الأمد الذي أزعم فيه أنني في البيت أم كجميع الأمهات. ومنذ اليوم التالي، رحت أتصرف كما لو أنني ببساطة كنت بعيدة لحضور مؤتمر، على الرغم من أنني لم أجلب معي هدايا عند عودتي من هذه الرحلة، وفي غضون يوم سارت أمورنا في البيت كما لو كنت عائدة حقاً من السفر.

* * *

أثق أن لديكم مئة سؤال. ما الذي يعنيه كل هذا؟ ماذا حصل لعزّت؟ ماذا حصل لقضيتي؟ صُرف النظر في نهاية المطاف عن قضية عزت التي دخلتُ بسببها إلى السجن. وأعلنت المحكمة الثورية أنه مع عدم توجيه اتهامات رسمية إلى أحد وبما أن عزت قد مات، فإن القضية تقفل. لذا أغلق القضاة كتبهم، لكن ما زالت القضية في أذهان الإيرانيين مفتوحة على اتساعها، وما زالت كذلك إلى اليوم.

ما أثر كل ذلك؟ ما التأثير الباقي لأسوأ اضطرابات منذ ثورة العام ١٩٧٩،

ولقضية عزت إبراهيم نجاد، الشاعر الشاب الذي أطلق النار عليه عناصر المجموعات شبه العسكرية التي تسمح الدولة لها بافتراس مواطنيها؟ غالباً ما يوجّه إلي السؤال، لماذا لم ينتفض الشبان الإيرانيون ببساطة؟ إذا كان تذمّرهم عميقاً إلى هذا الحد، واغترابهم لا عودة عنه أبداً، وإذا كانوا يشكلون سبعين في المئة من المجتمع الإيراني، فما الذي يفسّر هذا التسليم؟

لكن انظروا فقط. انظروا كم كان مرتفعاً الثمن الشخصي للاحتجاج. احتج عزت على إغلاق صحيفة وقُتل في مهجع للطلاب. تصوّروا ما الذي ينتظر الطلاب الذين سيكونون من الجرأة بحيث ينظمون اعتصامات والطلاب الذين ستكون انتماءاتهم السياسية علنية! تشتكي المنظمة الطالبية الرئيسية في إيران في الأعوام القليلة الماضية بانتظام من أن الجميع قد تخلّى عنهم في تلك الأيام المظلمة من العام ١٩٩٩، -ممّن يسمّون بالإصلاحيين إلى الرئيس خاتمي شخصياً؛ وأن عزت، الضحية، قد وصِم بأنه مثير لأعمال الشغب وبأن المحاكمات التي أعقبت الأحداث لم تشهد جلب مهاجم واحد للمثول أمام العدالة.

هل من أثر آخر؟ هل يمكننا رسم خط بعد العام ١٩٩٩ والقول إن الجمهورية الإسلامية تغيّرت بعد تلك السنة تغيّراً نهائياً بطريقة ما؟ يمكنكم القول إن النظام، الذي خسر تماشيه مع الواقع منذ فترة طويلة، أرغم على مواجهة أعماق استياء الشعب.

ماذا بشأن الشاب أحمد باطبي، الطالب الذي يرفع قميص عزت الملطخ بالدماء في الصورة، والذي بدأنا معه هذه القصة؟ الشاب صاحب العينين بلون حبّات البنّ وعصبة الرأس الحمراء، الذي جعل شبهه بتشي غيفارا الصورة أكثر رسوخاً في الذاكرة. لقد بدّل مرشد الجمهورية حكم الإعدام عليه بالسجن لخمسة عشر عاماً. وجاء يزورني يوماً، أثناء إفراج مؤقت عنه من السجن، وكان قد ازداد وزنه وأصبح شعره أقصر مما كان عليه في الصورة الشهيرة. بل إن لغة جسده كانت تعلن الهزيمة.

«كتبوا أحمد باطبي على ذراعي بالقلم العريض، وجعلوني أكتب وصيّتي، ثم عصبوا عينيّ. أخذوني إلى غرفة وأجبروني على الركوع. ودوّى صوت طلقة نارية. فغبت عن الوعي. وعندما استعدت وعيي، وجدت نفسي ممدّداً على الأرض، وتساءلت، هل هذه هي الحياة الآخرة؟ إذا كانت كذلك، لماذا تبدو الآخرة كزنزانة سجني؟ أخذت أضرب مرفقي بالحائط الإسمنتي، وفكرت أني إذاً كنت ميتاً فلن أشعر بالألم طبعاً. كنت بريئاً عندما دخلت إلى ذاك السجن، بريئاً ليس من الجريمة فقط ولكن كإنسان أيضاً. ربما أصبح حراً ذات يوم. لكن مستقبلي قد ضاع بين جدران ذاك السجن. بعدما رأيت، بعدما فعلوا بي، كيف يمكن لي أن أكون شخصاً من جديد؟»

كان في عمر ابنتي الكبرى. وأثناء جلوسه على كنبتي، يخبرني قصته المحطمة، كان كل ما استطعت التفكير فيه: ماذا لو حصل ذلك لابنتي. ما الذي كنت لأفعله بحق الله؟

الفصل الحادي عشر

في ظلال الإصلاح

هل تريدين كعكة بالشوكولا أو قشدة القهوة؟ سألت ابنتي نيغار، التي كانت تنهي عامها الثالث والعشرين في نهاية الأسبوع. جلسنا حول الطاولة الصغيرة في المطبخ، نعدّ لائحة بما يتعيّن شراؤه قبل حفلتها. سأعدّ سلطة بالزيتون وسلطة بالبطاطا، وكوتليت، وأقراصاً صغيرة من اللحم المفروم والبطاطا، وبعض المأكولات المغمسة التي يمكن لأصدقائها أن يتناولوها طوال الأمسية. وفي نهاية السهرة، عندما يتعبون من الكلام والرقص والموسيقى المرتفعة الصوت، سأقدّم الكعكة، مع أكواب صغيرة من المثلجات الفارسية، مع الزعفران تغطيها قطع الفستق ويعطرها ماء الورد. سألت نيغار: «هل نسيت أحداً ما» بينما كانت تقرأ اللائحة صعوداً وهبوطاً وتدير حلقة من شعرها البني الطويل حول إصبعها. «يجب أن يحضروا حوالى الساعة التاسعة. صحيح؟».

كان التخطيط لحفلة عيد ميلاد في العام ٢٠٠٣ عملاً مختلفاً تماماً عما كان عليه في التسعينيات، عندما كانت الحفلات، ككل تجمّع للشبان، سبباً للقلق العظيم. حينها، كنت أشجّع الفتاتين على دعوة صديقاتهن في وقت مبكر، ليتمكنّ من رفع صوت الموسيقى في أول المساء، عندما تكون الشوارع ما زالت صاخبة بسبب الازدحام. كنت أحاول تقديم العشاء بعد الساعة العاشرة ليلاً حتى يكون الشبان منشغلين بالأكل وأقل ميلاً إلى رفع صوت الستريو بحيث يمكن سماعه بسهولة من أول الشارع. يلقى هذا الإجراء عادة نجاحاً

محدوداً، لأنه لا مفر من أن يدير مفتاح الصوت نفسه صعوداً إلى أن يهتز البيت، وأتأكد من أن جميع الجيران يسمعون الصوت. وكنت أطلب إلى زوجي أن يخرج ويسير حوالى المئة متر بعيداً في الحي لمعرفة إلى أي مسافة يمكن أن تصل الضجة. ومع حلول وقت إضاءة الشموع وتقطيع الكعكة أكون قد أصبحت أكثر قلقاً من ترك الأمور من دون تدخل، وأظهر في نصف صور أعياد الميلاد التي نحتفظ بها في مجلد وعلى شفتيّ ابتسامة متوتّرة.

أصبحت تلك الأعوام وراءنا الآن. ولسعادتنا، ترافقت مرحلة المراهقة المتأخرة لابنتي مع أعوام الإصلاح في إيران، فسحة الأعوام الثمانية التي بدأت في العام ١٩٩٧، عندما سعى الرئيس المعتدل محمد خاتمي إلى سحب تدخّل النظام في حياة الناس الشخصية. وكنت ممتنة لذلك، فما كنت لأستطيع تخيّل القيام بدور الأهل لمراهقتين في الأعوام التي سبقت هذه الفترة وتميّزت بالقمع. لقد واجه الشبان في مطلع التسعينيات وأواسطها مشهداً اجتماعياً مزرياً في عزلته عن الثقافة العالمية وندرة فرص الترفيه حتى الأكثر تواضعاً. ولم تكن شبكة الإنترنت قد اخترقت بعد البيوت والجامعات الإيرانية، وكانت القيود على ثياب النساء قد عُزّزت تعزيزاً صارماً، وبقي المجال العام مشحوناً بشدة مع احتمال تحوّله إلى حيّز معاد للنساء. وخاطر الشبان بإمكان تعرّضهم للتوقيف من قِبل شرطة الأخلاق ببساطة عند توجههم إلى الجبال معاً للتنزه. وكان ارتداء ملابس من أي لون كان، باستثناء الألوان القاتمة كالكحلي والأسود، يعرّض الشابات لتحرّش الشرطة. وتكفي مسحة من التبرّج أو حتى طلاء أظفار خفيف ليشكلا أساساً للتوقيف أو الجلد.

أفادت حقبة الإصلاحات، على الرغم من كل السخط السياسي الذي يحيط بها، في جعل الحياة اليومية أكثر استرخاء. لم تتقاعد شرطة الأخلاق بأي شكل من الأشكال، لكن عناصرها انتقلوا من كونهم محتلين شديدي الحضور إلى كونهم إزعاجاً دورياً. ويستحق الرئيس خاتمي فقط قدراً من التقدير على هذا التحوّل. وكان جيل ابنتي الذي لم يخضع للترويع قد بدأ بالصراع،

وباستخدام قوة العدد والجرأة جعل من غير المتاح للدولة أن تفرض نفسها عليه كما في السابق. ولم يعد التخطيط لحفلة عيد ميلاد الآن يتطلب وضع استراتيجية معركة من التوقيت والمناورات الدفاعية. ولم يعد عليّ أن أقلق إذا ما غادرت الفتاتان البيت منتعلتين الصنادل من دون جوارب، أو مرتديتين حجابين بألوان زاهية. ولم أعد أشعر بالذعر إذا كانتا تتوجهان مع ابن عم لهما إلى عشاء عائلي، ولم أعد أحس بالذعر إذا ما تأخرتا عشر دقائق، خشية حصول مواجهة كارثية لهما عند نقطة تفتيش.

لكن ما زال من غير المريح عيش الحياة الاجتماعية ببهجة في العلن. أسمع أحياناً ابنتيّ تستمعان إلى أغاني مغنين إيرانيين قدماء، من أولئك الذين انتقلوا إلى لوس أنجلس منذ أكثر من عقدين. كنت أسأل «هذه مهستي، أليس كذلك؟ أو ربما هايده؟» فتنظران إلي غير مصدّقتين. «ماما، كيف لك أن تعرفي؟». مع ذلك فإن هذين الصوتين اللذين يحرران الروح من الجسد والمنبعثين من جهاز الستريو، لم يؤدّيا أداء حياً ولا لمرة مثل الذين كانوا يغنون في فنادق طهران ومطاعمها. كان من العسير على ابنتي، وعلى أكثرية الشبان، استيعاب ذلك الزمن، لأن إيران هذه - حيث يمنع صوت غناء النساء في الأماكن العامة- هي الواقع الوحيد الذي عرفوه. وبالنسبة إليهم فإن حضور حفلة عيد ميلاد من دون أن يتعرّضوا للمضايقة، وعدم توقيفهم عند حاجز أثناء التوجه إلى المنحدرات للتزلج، كانا بمثابة تقدّم.

أحيا التضاؤل التدريجي للمضايقات الثقافة العامة في طهران وبدأت تتبرعم المقاهي في أنحاء المدينة، وأحيت المتنزهات حفلات موسيقية في الهواء الطلق، وافتُتحت معارض جديدة وقُدّمت عروض بوتيرة منتظمة. ووصل الإنترنت الشبان بعضهم ببعض بواسطة غرف المحادثة والمدوّنات، ولبرهة بدا أن الكثير من شبان طهران متصلون بشبكات الأصدقاء كموقع orkut.com. وعلى الرغم من أن طبقة كثيفة من الضباب الناجم عن التلوّث ما زالت تحوم فوق المدينة، وعلى الرغم من أن المجموعات شبه العسكرية والدرّاجات

النارية ما زالت ترهب الشبان في صباحات أيام الجمعة أثناء توجههم إلى الجبال، وعلى الرغم من أننا ما زلنا نسمع عن تعرّض حفلة أو مقهى لمداهمة بين وقت وآخر، فإن المدينة التي تختبرها امرأة شابة تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً ما زالت مكاناً ينبض بالنشاط ويتسم بالتسامح أكثر مما كانت عليه طهران في مطلع التسعينيات.

مهما يكن من أمر، فهذه التحولات لم توقف بأي حال من الأحوال نزف الأدمغة من إيران. وما زالت الجامعات تدفع بمئات الآلاف من المتخرجين الأكفاء نحو سوق عمل شحيح الفرص، ولا يحمل الكثير من إمكانات الترقي المهني. وما زال الشبان الطموحون يعتقدون أن الغرب يقدّم لهم مستقبلاً واعداً أكثر وأغنى بالإنجازات فيرحلون زرافات. في تلك السنة واجهت ابنتي نيغار خيار الانتقال إلى كندا لمتابعة التحصيل العالي.

أمضينا أسابيع نناقش القرار، نمشي ببطء حول مائدة العشاء ونترك المجيب الآلي يتلقى الاتصالات الهاتفية فيما نحن نواجه إمكان أن تفصل قارّات، وربما إلى الأبد، بين أفراد عائلتنا المقرّبين بعضهم من بعض حتى وفق المعايير الإيرانية. إذا بقيت نيغار في إيران يمكنها أن تجد عملاً وستكتشف مثل أكثرية الشبان الإيرانيين أن راتبها لن يكفي لتسديد نصف إيجار شقة متواضعة. يمكنها أن تتابع دراستها للحصول على شهادة الدكتوراه هنا، لكن التدريب الذي ستتلقاه هنا يكاد لا يقارن بما يمكن أن تتلقاه في مؤسسات التعليم العالي في الغرب. يضاف إلى ذلك أن الانضمام إلى برامج الدكتوراه في إيران، على غرار الكثير من الفرص، يتم على أساس الصلات السياسية، وشعرت بالقلق من أن ترفض الجامعات التابعة للدولة طلبها لأنها ابنتي.

لو كانت المسألة تتعلق ببساطة بأي بلد يقدّم أفضل شهادة دكتوراه في الهندسة الكهربائية لابنتي لكان الخيار سهلاً. بيد أن ما يتعيّن القلق بشأنه يزيد على ذلك بكثير. لقد أردت بطبيعة الحال أن تحقق نيغار كامل قدراتها المهنية، لكنني علمت أيضاً أنها بعد أن تجرّب الحرية ورخاء الحياة في الغرب فلن

يكون من الواضح لها أنها تستطيع العيش في إيران مجدداً. بالنسبة إلى امرأة لامعة في أواخر العشرينيات، وهو العمر الذي تكون فيه قادرة على إنهاء دراستها العليا، سيكون من الصعب التخلي عن الفرصة في استخدام كل أعوام الدراسة أخيراً للعمل في بيئة تنافسية في واحدة من أجمل مدن العالم. كنت أعلم أن ما قد يبقيها هناك ليس مقاهي الرصيف في مونتريال ولا مهرجانات الجاز الصيفية، بل ستكون فرصة العمل في مناخ تكون فيه مساهمتها محترمة، وحيث تتعلم باستمرار من زملائها. فكرت أن مما يغريها أشد الإغراء أن تستيقظ في الصباح وأن تحمل حقيبة خفيفة وتنزل إلى الشارع الذي يعج بالحركة، من دون حجاب، لتشعر بنفسها جزءاً من ثقافة عالمية حيوية وتنضح بالحياة. كيف لها ألا ترغب في ذلك؟ كيف لي ألا أرغب في ذلك لها، هذه الابنة التي أمضت العقد الأخير منكبّةً على واجباتها الدراسية المنزلية، والتي تفوقت وأحبّت التعلم؟

صارعت لأبقي أنانيتي جانباً وأنا أوضح لنيغار أن ثمة عوائق ستظهر أيضاً. لم أرد أن أحبطها، فمن الصعب كفاية على امرأة شابة اتخاذ قرار كهذا يتعلق بحياتها بأسرها، لكنني أردتها أن تعلم أنها ببقائها في الخارج ستعقّد حياتها العاطفية والشخصية على الدرجة ذاتها من اليقين بأنها ستعزز سيرتها الأكاديمية. واذا ما نحّينا الوحدة والغصّة اللتين ستشعر بهما في مستهلّ غربتها جانباً، فسوف تجد نفسها في مدينة يقطنها عدد ضئيل من الإيرانيين. وستمضي عشرينياتها، وهي أعوام العمر التي ستقابل فيها العديد من الأصدقاء والزملاء ذوي التفكير المشابه لتفكيرها، والذين ستختار وفقاً للمثال السائد شريكاً من بينهم، ستمضي في دائرة صغيرة محدودة الآفاق. أما في طهران فيوجد، على الأقل، الكثير من الدوائر لتختار من بينها.

قررنا في النهاية أن عليها أن تسافر. وما إن اتخذ القرار حتى صرت أخبّئ شكوكي وظللت أذكّر الجميع أنه لن يكون فراقاً نهائياً. في الليلة التي رحلت فيها، وكانت أمسية معتدلة الحرارة في نهاية الصيف، حملت المصحف ورفعته

عالياً فوق إطار الباب، لتتمكن من المرور تحته ثلاث مرات أثناء خروجها، وهو طقس متّبع قُبيل السفر وقد أديناه مرات عديدة مع أحبائنا منذ الثورة. وقد توجّهنا، أبوها وأنا، معها إلى المطار سالكين الطريق السريع الجنوبي، مارين بالجداريات الضخمة للشهداء العابسين والملتحين والتي تحيي الانتفاضة الفلسطينية. وانعطفنا عند الطريق الواسع الذي تحف به الأشجار والمفضي إلى المطار وتابعنا السير متجاوزين المبنى الذي خُصّص للحجاج المتوجهين إلى مكة، وتوقفنا قرب الصرح الرئيس الرمادي المألوف لمطار مهراباد. قريباً ستفتتح الحكومة مطارها الجديد الذي يُسمّى مطار الإمام الخميني الدولي في ضاحية سافيه وهي بلدة جنوب طهران، لكننا الآن ما زلنا نسافر عبر مهراباد الذي يذوي لكنه مع ذلك أصبح راسخاً في التاريخ الملتصق بألفة بالطرف الجنوبي للمدينة. كانت العائلات تعبر موقف السيارات الصغير باحثة عن العربات الصدئة والمخلّعة لحمل الأمتعة، والتي تنوء بالحقائب أو باقات الزهور. وكان رجال الدين بأثوابهم كاملة وعماماتهم يمرون إلى جانب رجال يرتدون بدلات عمل أنيقة ونساء بالشادورات السوداء وأخريات يضعن حجابات تميل إلى النزول عن شعورهن وينتعلن أحذية حادة الكعاب.

رافقت نيغار وصولاً إلى حاجز التفتيش الأمني المخصص للنساء. وأعددت أفكاري الأخيرة فيما كانت امرأة قاسية ترتدي شادوراً أسود تدقق في تذكرة السفر، ووراءها صورتان كبيرتان لآيات الله. همست: «آمل فقط أن تعودي عندما تنهين دراستك. وليس مهماً حقاً كم تكسبين. أسلوب حياتك ليس مكلفاً وفي وسعنا مساعدتك. أريدك فقط أن تكوني واثقة بأمر واحد، أعلم أنه ليس من السهل دائماً العيش هنا». قلت هذا وأنا أنظر إلى النساء الصارمات المرتديات الشادور وإلى صورتي رجلي الدين على الحائط. «لكنني أعلم أن قلبك سيكون مرتاحاً أكثر في بلد هو لك». أحسست بثقل في حنجرتي ورتّبت مظهري ليصبح ما تسمّيه نيغار «وجهي الجدّي»، ضغطت عليها عبر ستارة الحاجز الأمني، ثم رحلت.

حام غيابها عليّ أثقل ما يكون في الأسبوع الأول. ولم أكن معتادة الاستسلام إلى الحنين، خصوصاً ذلك النوع من الحنين المتخم المنتشر بين الأمهات الإيرانيات اللواتي يعشن دائماً مع ماضي أطفالهن. لكن في ذلك الأسبوع، كان أي صوت أو رائحة يعيدانني إلى مراهقة نيغار، إلى الصيف الذي كانت تدرس فيه من أجل امتحانات الدخول إلى الكلية وتطلب الهدوء المطلق، وترغم أباها وترغمني على الجلوس في الحمّام للاستماع إلى الأخبار على المذياع. إلى العام القاتم الذي راح المثقفون يظهرون فيه أمواتاً في أرجاء البلاد وتزحف إليّ وأنا في حالة تفكير عميق وهي تبتسم ابتسامة ماكرة، وتلوّح برواية أغاثا كريستي «ثم اختفوا جميعاً»[١]؛ إلى الليلة التي سبقت تخرّجها عندما وضعت يديها على خصرها وقالت: «لا تخبريني غداً أن فلاناً أو علاّناً مضرب عن الطعام أو أن أحداً ما أرسل توّاً إلى السجن. من الأفضل لك أن تحضري».

* * *

لحسن الحظ، أنني كنت في العام الذي غادرت فيه نيغار إيران مشغولة على الدوام وأقل تركيزاً من أي وقت سابق. كان ذلك في العام ٢٠٠٣، بعد ثلاثة أعوام من اكتساح الإصلاحيين للمجلس، أو البرلمان، في انتصار ساحق وبدخول أربع عشرة امرأة تقدمية كنائبات إلى المجلس التشريعي. لكن في تلك الأعوام الثلاثة لم يكن للنساء مكان يجلسن فيه. لم يكن لديهن مقاعد، بالمعنى الحرفي للكلمة. قد تعتقدون أنهنّ إذا ما نجحن في الانتخابات لدخول برلمان الجمهورية الإسلامية سوف يكنّ قادرات على تدبير بعض الكراسي، أو على الأقل التقدم بشكوى علنية بشأن مكان جلوسهن غير الملائم في المجلس التشريعي. لم يفعلنَ أياً من الأمرين، ووجدت نفسي في هذه المسألة مصادفة.

(١) هو العنوان الجديد لرواية «عشرة عبيد صغار» لكريستي، الذي عدل لمنع وقوع شبهة عنصرية. م

في ذلك العام، سألتني نائبة أن أضع مسودة قرار حول قانون الأسرة. طلبت إليّ «كتابة شيء يوسّع حقوق النساء، لكن بطريقة تتوافق مع الإسلام، لنتمكن من الدفاع عنه عند مناقشته». وافقت، وفي بعد ظهر أحد الأيام، دعتني المجموعة النسائية في البرلمان إلى الغداء في مبنى البرلمان، لنتمكن من مناقشة المسوّدة التي وضعتها. قدت السيارة إلى وسط المدينة نحو المبنى القديم في جادة «سِباه» وتوقفت في مكان لا يبعد كثيراً عن الواجهة الحجرية. وعند الغداء، سُررت إذ وجدت أن الطعام في مقصف المجلس ليس فاخراً كثيراً وليس رثاً عن عمد. وذلك أن موائد الغداء في إيران تحمل منذ زمن بعيد رسائل حول الوضع: في ظل نظام الشاه كانت الرحلات القصيرة للغداء في مطاعم باريس تعكس ذرى البذخ الفاحش؛ وفي الأيام الأولى للثورة كانت وجبات الغداء مفرطة في تقشفها وأشبه بما يقدّم في المقاصف، وذلك للتشديد على انتصار الطبقة العاملة المسلمة. أما هذا الغداء مع النائبات فكان مجرّد غداء طبيعي، وبدا هذا الأمر جيداً للغاية بعد عقود من الوجبات المشحونة بالمعاني.

انسحبنا بعد الشاي إلى الغرفة الخاصة بالنساء لنتحدث. وفيما كنا نقترب من نهاية الباحة، ظهرت الإشارة المقلقة الأولى حيث لم يكن لغرفتهن باب بل مجرد ستار. دخلنا إلى غرفة خالية يغطي أرضيتها بساط آليّ الصنع. ظللت أنظر بحثاً عن باب آخر يفضي إلى الغرفة التي يجلسن ويعملن فيها حقاً. لكنهن وضعن أغراضهن وجلسن مقرفصات على البساط. سألت: «لماذا لا توجد كراسٍ؟ ولماذا لا توجد حتى آلة ناسخة هنا؟ هذا هو البرلمان في النهاية!». قالت لي إحداهن: «حسناً، لقد طلبنا آلة ناسخة مرات عديدة، لكنهم قالوا لنا إننا قليلات جداً بحيث لا يمكن تبرير حصولنا على معداتنا المكتبية الخاصة. سُمح لنا باستخدام تلك الموجودة في مكتب الرجال بطبيعة الحال، لكننا نفضّل أن تكون هنا، لأنه عادة ما يكون الطقس حاراً جداً ونفضّل خلع شادوراتنا لنتنفس قليلاً».

عندها فطرنَ قلبي قليلاً. نحن هنا في البرلمان، بين جدران القاعات حيث يفترض أن أولئك النسوة يعملن ليغيّرن ظروف الملايين والملايين من النساء في الخارج، وها هنّ لا يستطعن حتى الحصول على طاولة لأنفسهن. ما الذي يمكنكن إنجازه في المجتمع الواسع عندما يكون هذا كل ما تمكنتن من القيام به في قلب المؤسسة هذه؟ كان الطقس حاراً جداً، وكانت ثيابنا الشرعية «الروبوش» وشادوراتنا ثقيلة جداً إلى حد أننا نزعناها واتكأنا على البساط. وتمددت واحدة من النائبات وغفت.

بدأت بالقول: «أعتقد أنكن ستعجبن بحلّي». ثم شرحت مسوّدة القانون وكيف أنه يتضمن كل ما سعينا من أجله في ما يتعلق بحقوق الطلاق، وذلك بالاستناد إلى الشريعة بطريقة يمكن الدفاع عنها دفاعاً كاملاً. أحبت النائبات مسوّدة القانون وقالت إحداهن: «رائع، لكن أرجوكِ التزمي الهدوء الآن بشأن حقيقة أنك من وضع مشروع القانون هذا. ليس كل من في هذا البرلمان إصلاحياً. ثمة متشددون أيضاً، ومن أصحاب النفوذ، وإذا اكتشفوا أنك أنت من كتب المشروع فقد تكون نهايته».

بعد شهرين، عُلّق المشروع في لجان المجلس المختلفة للحصول على موافقة مسبقة حتى قبل أن يجري التصويت عليه. لم تكن النائبات بقادرات على إقناع اللجان أن المشروع متوافق مع القانون الإسلامي، وطلبن مني الحضور والدفاع عن توافقه مع الشريعة. وافقت ووصلت إلى مبنى البرلمان بعد ظهر اليوم التالي. كان هناك حوالى عشرين نائباً أكثريتهم من رجال الدين المعمّمين؛ وامرأتان فقط.

كان القسم الأهم من مشروع القانون يتصل بالطلاق. في القراءة الإسلامية التي اشتق منها القانون الحالي يمكن لرجل أن يطلق امرأة بيسر؛ يمكنه عموماً أن يصرخ «أنت طالق! طالق! طالق!» قرب شجرة أو في متجر الكباب المحلي ويكون الأمر قد قُضي. أما بالنسبة إلى المرأة فالحصول على الطلاق كان شبه مستحيل؛ عليها أن تطلب إذناً مكتوباً من زوجها حتى لمباشرة الإجراءات

وكانت مجبرة على إثبات أنه مريض عقلياً أو عاقر، أو غير ذلك من المعوّقات الخطيرة، للنظر في الطلب.

لا تعامل الشريعة الإسلامية الطلاق دائماً بهذا التحجر، بيد أن الذين وضعوا القانون الإيراني آثروا التفسير الأكثر تحجّراً. وتعتبر واحدة من مدارس التفكير في الشريعة، على سبيل المثال، أن المرأة إذا قبلت حرمانها من مؤخّر الصداق يمكنها أن تطلق زوجها استناداً إلى الحجة البسيطة التي تقول إنه لا يعجبها. كان القصد من وراء هذه المقاربة هو السماح للمرأة بمخرج من جانب واحد من الزواج. لكن القانون الإيراني تعامل مع الطلاق على أساس أن التخلي عن مؤخّر الصداق أمر مكروه كشرط للافتراق وعلى أساس موافقة الرجل، وهذان أمران يصعب على المرأة توفيرهما وتحمّل الوضع المالي الصعب في وقت واحد.

أمضيت ساعات وسط الكتب القانونية القديمة وأنا أضع مسوّدة قانوني. لقد صيغ القانون الإسلامي ودُرس قبل قرون، وعاد الذين طبقوه - رجال الحوزات والفقهاء والمحامون على السواء- إلى النصوص القديمة. وعلى امتداد القرون غطى المشرّعون المسلمون تقريباً كل الظروف التي قد يواجهها الرجل والمرأة على هذه الأرض معاً، وحددوا بوضوح موقف الشريعة منها. لقد تخيلوا أنه في بعض الحالات قد ترغب امرأة في الطلاق من زوجها ليس لأنه عاقر أو مريض عقلياً أو يعتدي عليها، بل لأنه ببساطة لا يعجبها، ووفروا السبل لها كي تنأى بنفسها عن هذا الزواج. وأثناء صوغي لمسوّدة القانون أضفت كل الفقرات الشرطية المقترحة والواردة في النصوص القديمة.

وفيما كنت أدافع عن مشروع القانون أمام اللجنة، جمع رجل دين متغطرس يجلس إلى جانبي ثوبه وتوجّه إليّ بالقول: «لماذا كتبت أن موافقة الذكر غير مطلوبة من أجل الطلاق؟».

قلت: «لأنها غير مطلوبة وسوف أثبت هذا لكم». وأخرجت كتاب «شرح

اللمعة»[٢] وهو من كتب الشيعة في الفقه. وخاطبتهم قائلة: «هذا هو الكتاب الذي تدرسونه في الحوزة، والذي تخضعون لامتحان فيه لتصبحوا رجال دين. وهو لا يقول في أي مكان منه إن موافقة الذكر مطلوبة. لماذا تصرّون إذاً على أنها كذلك؟».

لم ينبس ببنت شفة، لكنني لاحظت أنه يستدعي موظفاً.

بعد لحظات، نقر موظف آخر نقراً خفيفاً على كتفي. وقال: «هناك اتصال هاتفي لك». فوجئت لأنني اعتقدت أنني لم أخبر أحداً أني سأكون في البرلمان في فترة بعد الظهر تلك. وأسرعت بالخروج وأنا أظن أن أمراً عائلياً طارئاً قد وقع.

سألت الموظف في البهو: «أين الهاتف؟»

«ما من اتصال هاتفي. لكننا سمعنا ما يكفي منك ويريدون الانتقال إلى التصويت. ولا يُسمح لأحد بأن يكون في الداخل عندما يصوّتون».

«هل أستطيع العودة إلى الداخل على الأقل لأحضر حقيبتي وأوراقي؟»

«لا، ابقي هنا. سأحضرها لك».

قبل أن ينطلق، تذكرت أن ممثلة عن الهيئة القضائية ما زالت داخل القاعة فسألت: «لماذا يمكنها البقاء أثناء التصويت ولا يمكنني أنا؟»

تنحنح الموظف: «حسناً، إنها من الهيئة القضائية. إنها مختلفة».

بدأت أتساءل هل من المعقول أنهم لا يعتزمون التصويت على الإطلاق بل ألقوا بي خارجاً فقط؟ هل هم من الوقاحة بحيث يبعدونني جسدياً عن النقاش؟

في تلك الليلة اتصلت بي إحدى النائبات هاتفياً في المنزل. قالت: «إنني آسفة، لم نلاحظ لنصف ساعة أنهم ألقوا بك خارجاً. عندما لاحظنا ذلك احتججنا. لكن في جميع الأحوال، نرجو أن تقبلي اعتذارنا».

---

(٢) المقصود هو كتاب «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية» للشهيد الثاني زين الدين بن نور الدين العاملي. م

في نهاية المطاف، لم يُقرّ مشروع القانون. ولم أفهم لماذا لم تقترحه الكتلة النسائية في وقت أبكر من فترة انتدابهن لتكون لديهن مهلة عامين يكفيان من أجل الصراع لتمرير المشروع. ربما تداخل عدم وجود طاولة أو آلة ناسخة مع قدرتهن على التشريع. من يعلم؟ لقد جسّد بعد الظهر ذاك كيف أن المتشددين الذين يديرون إيران تخلّوا عن العقل في تعاملهم معي. كانوا أحياناً يضعون عوائق صغيرة، كإخراجي من جلسة في البرلمان، وفي أحيان أخرى كانوا يهددونني مباشرة، آملين أن يؤدي خوفي إلى إحباطي.

أتذكر على وجه الخصوص مناسبة طُلب فيها إليّ أن أتخلّى عن قضية صادف أنها تعني زوج صديقة مقرّبة جداً هو سياماك بورزاند - صحافي تزوج المحامية الناشطة والمؤتمنة على أسراري طوال أعوام مهرانجيز كار- كان قد اعتُقل في أواخر العام ٢٠٠١، وقد بلغ من العمر واحداً وسبعين عاماً، باتهامات مبهمة تبيّن لاحقاً أنها ترقى إلى حدود «إقامة صلات بالملكيين وبالمناهضين للثورة» و«التجسس وزعزعة أمن الدولة» و«تضليل الشبان». كانت درجة تسامح النظام مع الصحافة الحرة تتضاءل في ذلك الوقت، وقد حذّر واحد من آيات الله البارزين في خطبة الجمعة من أن عميلاً للحكومة الأميركية قد وصل إلى إيران حاملاً حقيبة ممتلئة بالنقود لتوزيعها على الصحافيين الإصلاحيين. وأشارت الخطبة إلى محاولة جديدة لضرب مصداقية الصحافيين ذوي الأفكار المستقلة، وشكّل بورزاند - الذي تؤيد ابنته المقيمة في الخارج المعارضة الملكية علناً - هدفاً طبيعياً.

وفيما كان الرجل قيد الاحتجاز بث تلفزيون الدولة مقابلة «اعترف» فيها بورزاند الذي بدا هزيلاً ويتكلم بصوت غير طبيعي بالتعاون مع المعارضة الإيرانية في المنفى. واستدعي بعد ذلك عدد من الصحافيين إلى المقارّ الأمنية وتعرّضوا للمضايقة استناداً إلى مزاعم قيل إن بورزاند أدلى بها ضدهم. وتلقيت استدعاء وأُبلغت أنني من بين الأشخاص الذين وجه بورزاند اتهامات ضدهم. سألني المحقق بمن ألتقي عندما أسافر إلى الخارج، وغير ذلك من الأسئلة

المتوقعة التي تهدف إلى إيقاع المرء في الفخ عبر الكشف عن معارفه الشخصية من الذين قد يكونون موضع شبهة.

قبل بضع ليال، أثناء عودتي إلى البيت مع ابنتيّ قرابة منتصف الليل، اقترب منا رجلان غريبان عند أطراف حيّنا، كانا يتسكعان وهما يحملان في أيديهما بعض الزهور الذابلة. قالا إنهما يريدان استشارة قانونية، ولم يتراجعا عندما قلت إن عليهما الاتصال بمكتبي أثناء ساعات الدوام. في تلك اللحظة خرج ضيوف حفلة زفاف كانت تجري في الحي نحو سياراتهم، فسارع الرجلان إلى الابتعاد بعدما رميا الزهور عليّ. اعتبرت أن سلوكهما المذعور واختفاءهما المفاجئ محاولة فاشلة للاعتداء على حياتي، وقلت ذلك لصديقة على الهاتف في تلك الليلة. كان واضحاً أن هاتفي مُراقب، لأن المحقق تطرق الآن إلى تلك الليلة واعتبر أنني أنشر مخاوف زائفة بشأن التعرض للاغتيال لتلطيخ سمعة البلاد. وأضاف المحقق أنهم سئموا مني وقال إنني في حال تابعت عملي ستوجه إليّ اتهامات بالتجسس، وسيوضع اسمي في ملف بورزاند. وحذّرني تحذيراً ينذر بالشؤم «هذه المرة ستقفين أمام الحائط، وسيجري الأمر قانونياً». قاصداً بذلك أنني سأواجه فريق الإعدام.

بعد بضعة أشهر، ومع كثرة انتقادات منظمات حقوق الإنسان الدولية للحكومة، حصل بورزاند على خروج مؤقت من السجن لمدة شهرين. وعندما عاد إلى الاحتجاز اتصل بي وسألني لماذا لم أزره ولا مرة واحدة في السجن. شرحت له «إن القانون يمنعني من زيارتك إذا لم تكن موكلي». في هذه الأثناء، تقدمت زوجته باستدعاء إلى لجنة برلمانية لملاحقة قضيته. وعندما اتضح عدم حصول تقدم على هذه الجبهة، تابعتُ القضية وأُبلغت أن ملاحقة قضيته ستؤدي إلى إلحاق الضرر بها بدلاً من إفادتها. وظل بورزاند قيد الاحتجاز وراحت صحته تتدهور.

حينها واجهت مقاربة أخرى كان القصد منها ترهيبي ودفعي إلى التخلي عن عملي القانوني. وعكست الحادثة تعدّد الجبهات التي يسعى النظام من خلالها

إلى جعل أشخاص مثلي، ومن الصحافيين والناشطين على السواء، يشعرون بأنهم غير محصّنين. كنا نُدفع إلى شرك التورّط في القضايا القانونية الملفقة للآخرين، ثم نتعرّض للإحباط في الساحات التي نسعى فيها إلى تحقيق تقدم في عملنا الخاص.

عندما بيّنت خطأ رجل الدين ذاك في البرلمان في شأن الكتاب الذي يفترض أنه تلقى تعليمه منه، لم يعد أمامه أي شيء معقول ليحاجج به، لكنه لم يستسلم بل لجأ إلى القوة. وعكست المواجهة أيضاً التحدي أمام التفاوض من أجل حقوق النساء في إيران الثيوقراطية اليوم. إن مشروع القانون الذي تقدمت به، والذي لا يعتمد على مدرسة ثانوية من مدارس الفكر الإسلامي بل على النصوص المركزية التي يجري تدريسها في حوزات مدينة قُمّ المقدسة، أظهر أن حق النساء الأساسي يمكن ضمانه في إطار الحكم الإسلامي، على أن يوفّره في الحكومة أولئك الذين يميلون إلى تفسير الإيمان في روح المساواة.

يوجد في الإسلام تقليد من التأويل الفكري والتجديد يُعرف بالاجتهاد، يمارسه الفقهاء ورجال الدين منذ قرون لمناقشة مقاصد التعاليم القرآنية وتطبيقها على الأفكار والأوضاع المستجدة. وقد أقفل الإسلام السنّي عملياً باب الاجتهاد قبل عدة قرون، في حين أن روح الاجتهاد وسيرورته ما زالا مزدهرين في الإسلام الشيعي. والاجتهاد يقع في مركز الشريعة، لأنها تشكيلة من المبادئ أكثر مما هي أحكام مصنّفة تصنيفاً قانونياً. ويعني قرار مشتق من سيرورة الاجتهاد أن فقيهاً قيّم مسألة معيّنة (على سبيل المثال، هل ينبغي رجم امرأة زانية في القرن العشرين؟) من خلال إعمال العقل والاستدلال وتفحّص أولويات الهموم ذات الشأن. وقد أفتى آية الله الخميني في الأيام الأولى بعد الثورة بأن في وسع وسائل الإعلام التابعة للدولة بث الموسيقى على الرغم من الموقف القاسي الذي يتبناه كبار رجال الدين حيال الأغاني. لقد استنتج أن الامتناع عن بث الموسيقى سيؤدي إلى أن ينجذب الشبان إلى الإذاعات الغربية وهذا ما سيعني تكبيد الجمهورية الإسلامية خسارة أفدح من السماح ببث

الموسيقى. كان هذا اجتهاداً، وجِد فيه عُرفٌ يعود إلى القرن السابع غير ملائم لليوم الراهن.

من ناحية أولى، يفرض الاجتهاد مرونة على الشريعة الإسلامية ويخلق حيزاً مثيراً للاهتمام لتكيّف القِيَم والتقاليد الإسلامية مع حياتنا في العالم المعاصر. لكن المرونة هذه هي بالضبط ما يجعل الاجتهاد، والفقه الإسلامي برمّته، من الصعوبة بمكان اعتبارهما أرضية صالحة لإنشاء الحقوق الشاملة غير القابلة للتصرف. يحررنا الاجتهاد من خلال إزالة عبء الأفكار النهائية - يمكننا أن نفسّر وأن نعيد تفسير التعاليم القرآنية إلى الأبد؛ لكنه يعني أيضاً أن في وسع رجال الدين أخذ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان معهم إلى بيوتهم والمجادلة في شأنه جدالاً غنياً طوال قرون. ويعني أن في وسع أي كان أن يكون على صواب دائماً. ويعني أن الرجال ذوي النزعات البطريركية، والأنظمة التسلطية التي تمارس الاضطهاد باسم الإسلام، يمكنهم أن يستغلوا الاجتهاد لتأويل الإسلام في أسلوب انكفائي لا يرحم ويناسب حساسياتهم وجداول أعمالهم السياسية. وعلى غرار رجل الدين الذي استدعى الموظف التابع له وأبعدني عن قاعة البرلمان، فإن النضال من أجل النساء في الجمهورية الإسلامية لا يكون غالباً معركة يستخدم فيها الذكاء والعقل، ولا هي معركة منصفة دائماً. لا يعني ذلك أن الإسلام وحقوق النساء المساوية لا يلتقيان؛ بل يعني أن تناول الإسلام في نظام حكم ديني يكسر ضوء الدين عبر مشكال[٣]، بحيث تظل التأويلات تمتزج وتتبدل إلى ما لا نهاية وتكون الأفضلية في السيطرة معقودة للأقوى.

بيّنت تجربة الحركة الإصلاحية الإيرانية - ولاية خاتمي والفترة القصيرة التي كان للإصلاحيين فيها أكثرية في البرلمان - حدود الإصلاح الإسلامي في ظل نظام حكم ديني. وقد سيطرت النقاشات في أواخر التسعينيات، وحتى مطلع الألفية الجديدة، حول الإصلاح الإسلامي على الدوائر السياسية

(٣) آلة تكسر الضوء عبر العشرات من المرايا وتعيد تشكيله وفق هيئات وصور مختلفة. م

الإيرانية. وأوضح رجال الدين التقدميون وشريحة المثقفين والفلاسفة الشعبيين رؤيتهم للحركة الإصلاحية الإسلامية والسبيل الذي يمكن أن تسلكه الجمهورية الإسلامية لإضفاء الديموقراطية على نفسها من الداخل. لكن إخفاق الحركة الإصلاحية طرح السؤال حول مغزى النقاش بأسره. ما الفائدة من صنف من الإسلام الإصلاحي والمتسامح إذا كان دستور الجمهورية الاسلامية الذي ينصّ على الحكم الديني والمدافعون الأقوياء عنه في صفوف الحرس القديم يعتبرون أن تفسيرهم مرضيّ عنه إلهياً وغير قابل للتفاوض؟

توصّل الصحافي الشجاع أكبر غانجي، الذي يُعتبر أهم سجين سياسي في الزمن المعاصر[٤] إلى حل أثناء وجوده في السجن بتهمة انتقاد النظام. وقد أشرت سابقاً إلى غانجي، الذي أدت مقالاته الصحافية التي ربط فيها بين جرائم قتل المعارضين في أواخر التسعينيات وبين مسؤولين رفيعي المستوى في النظام. وإذا ما تساقطت المحرّمات يمنة ويسرة في الجمهورية الإسلامية فلأن أشخاصاً مثله ضحوا بحياتهم - وصحتهم ومسيراتهم المهنية وعائلاتهم - على طول الطريق. حُكم على غانجي في العام ٢٠٠٠ بالسجن ستة أعوام بسبب مقالاته. وأثناء قضائه الوقت في إيفين، كتب غانجي كتاباً بعنوان «بيان من أجل الحكم الجمهوري»، دافع فيه عن الفصل التام بين الدين والدولة ودعا مرشد الجمهورية إلى التنحي. وأثار البيان، كما أراد غانجي تماماً، ضجة كبرى في الجمهورية الإسلامية. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يدعو فيها معارض بارز ومسلم مؤمن وثوري سابق إلى استبدال النظام الإسلامي بحكم ديموقراطي علماني. كتب غانجي أن أكثرية الإيرانيين لا ينقصهم الاطلاع على الديموقراطية؛ لكنهم لا يرغبون في دفع الثمن. وأشار باتباع العصيان المدني، وكخيار أخير اتباع استراتيجية «الامتناع عن التعاون مع المستبد».

كنت أمرّ عليه أحياناً في سجن إيفين عندما أتوقف هناك لزيارة موكليّ. في

---

(٤) أُفرج عن غانجي في آذار/ مارس ٢٠٠٦ بعد قضائه ستة أعوام في السجن.م

بعد ظهر أحد الأيام، سألته عندما ألقى التحية: «لماذا لا يصدر أي صوت بشأنك وبشأن عملك في الصحافة؟ الناس ينسونك ببطء». لم أستطع فهم السبب: في الحالات المشابهة لحالة غانجي يكون كل عمل محامي الدفاع تقريباً هو المنافحة عنه والعمل مع الصحافة.

قال: «اخترت محامياً سيئاً. أشارت السلطات عليّ بأنني إذا ما اخترته ليمثلني ستقلص المحكمة حكمي. لكن، كما يمكنك أن تري، لم تجرِ الأمور بهذا السبيل. خلال الأعوام الثلاثة الماضية لم يزرني مرة واحدة في السجن. رأيته مرة في باحة السجن فأدار وجهه مدعياً أنه لم يرني؟ ماذا في وسعي أن أفعل؟ إنني عالق هنا».

عرضت عليه فوراً أن أتولى قضيته، فأطلت نظرة مبتهجة من وجهه الماكر. لكن عندما اطلعت على ملفه لم يكن في الوسع القيام بالكثير من أجله. وقد منعتني السلطات من رؤيته، على الرغم من أنني محاميته ويضمن القانون لي حقوق الزيارة. كان الحكم مبرماً، ولم تكن الهيئة القضائية عازمة على أن تتزحزح عن حكمها في قضية شخص تسبب لها بفضيحة على مقياس تاريخي قبل سجنه، ودعا بعد ذلك من زنزانته إلى إنهاء النظام الإسلامي. وقد باشر في العام الأخير من سجنه إضراباً عن الطعام ربما لاشتباهه في أن الحكم سيمدد، مطالباً بالإفراج غير المشروط عنه. كان ذلك لعبة الدجاجة[٥]، في نهاية المطاف، مع رجال الدين المتشددين لمعرفة من سيرمش أولاً. ومرت الأيام وغانجي يخسر كيلوغراماً وراء كيلوغرام، وبعد مرور خمسين يوماً من إضرابه عن الطعام حذّره الأطباء من أنه سيصاب بأضرار في الدماغ غير قابلة للإصلاح، فليّن موقفه.

في النهاية، أشير إلى أكبر غانجي لأن صراعه يمثل أحد الطرق التي يجري

(٥) المقصود أن الطرفين انخرطا في لعبة يخسر فيها الجانبان إذا لم يستسلما. و«لعبة الدجاجة» تعبير مستخدم في نظرية اللعب في الرياضيات التطبيقية. م

فيها التغيير في إيران. أثناء إضرابه عن الطعام لم تعد الصحافة تعمل في مناخ من الحرية النسبية والاستقلال اللذين تمتعت بهما في أوائل حقبة الإصلاحات من العام ١٩٩٩. ووجدت أن العديد من الإيرانيين، لم يسمعوا بأخبار إضراب غانجي عن الطعام، في حين أن بيانه يوزّع. والفارق بين اليوم وإيران في العام ١٩٧٩ هو أن تكنولوجيا المعلومات والإنترنت جعلتا التعتيم الرقابي أمراً مستحيلاً. عندما شاهدت الصور التلفزيونية لجسد غانجي المصاب بالهزال في المستشفى فكرت فقط في أن الأجيال المقبلة ستقدّر تضحيته.

* * *

في مساء لطيف من مساءات حزيران/ يونيو من العام ٢٠٠٣، تجمّع آلاف الطلاب في جامعة شرق طهران وأضاءوا صفوفاً من الشموع في سهرة من أجل زملائهم الطلاب الذين أُصيبوا بجروح بعد احتجاجات جرت في وقت سابق من اليوم. هتفوا: «خاتمي، صمتك يدافع عن هذا القتل» وساروا حول الحرم الجامعي مطالبين باستقالة الرئيس.

قبل خمسة أيام، نظم طلاب في جامعة أخرى في طهران تظاهرة كانت ذريعتها الاحتجاج على رفع الرسوم الجامعية، وهي الحجة ذاتها التي كان الطلاب يستخدمونها كغطاء لتنظيم تظاهرات مناهضة للحكومة أثناء فترة دراستي في الكلية. وقد سمع طلاب جامعات أخرى بالتجمع ونظموا تظاهراتهم الخاصة. وسرعان ما جمعت الاحتجاجات المتفرقة الزخم وتحولت إلى موجة متصاعدة من الاضطرابات التي جذبت حشوداً كبيرة تطالب بإنهاء النظام الإسلامي. كانت احتجاجات الطلاب في الأعوام السابقة تأخذ شكل اعتصامات هادئة تردد فيها شعارات تطالب بحرية التعبير والإفراج عن السجناء السياسيين وإجراء تغييرات في القانون. وظهر الطلاب هذه المرة مسلحين بحقائب ظهر ممتلئة بالحجارة وصرخوا داعين إلى تغيير النظام. إنّ أمل الشبان الذي عزز الحركة الإصلاحية تنحّى عن الطريق أمام اليأس والغضب العاري.

في المساء السادس للاضطرابات التي سبّبت الأضرار في طهران، وزعت

السلطات قواتها الأمنية في أنحاء المدينة مصمّمة على استعادة السيطرة على الشوارع. وفي الضوء الفضي لقمر شبه مكتمل أقام الحراس الإسلاميون بلحاهم وقمصانهم التي يتركونها فوق السراويل نقاط تفتيش حول الساحات، وسيّرت قوات الأمن بالملابس المدنية دوريات عند المنعطفات وقطعت سيارات الشرطة الطرق المفضية إلى الجامعات. ولو حالفكم حظ القيادة في المدينة بعد منتصف الليل لاعتقدتم أن طهران في حالة حرب. صفوف طويلة من الشاحنات المحملة بالجنود وعربات الشرطة تتحرك على الطريق السريع كما لو أن معركة تدور.

سحق النظام الاحتجاجات بقسوة نموذجية، إذ شعر بالسخط هذه المرة حيال ما اعتبره دعماً أميركياً لتحدي سلطته. فقد أبلغ الرئيس بوش الصحافيين «إنها بداية تعبير الشعب عن نفسه في اتجاه إيران حرة، وأعتقد أنه أمر إيجابي». إن الدعم العلني الأميركي لأي ظاهرة مؤيدة للديموقراطية في إيران، سواء جاءت من فرد أو كتوجه أو عبر تظاهرة، يثير دائماً غيظ النظام الإسلامي ويسفر عموماً عن حملات قمع أقسى. وهذه المرة لم تكن ردة الفعل مختلفة.

بث تلفزيون الدولة مشاهد لمعتقلين من المحتجين، الذين جلسوا أمام الكاميرا تغطيهم الكدمات، عابسي الوجوه، يدينون مشاركتهم في الاضطرابات. وبدأت اتحادات الطلاب بنشر أسماء حوالى أربعة آلاف طالب فقِدوا منذ بداية الاحتجاجات. وشق أصدقاء وعائلات الطلاب المفقودين طريقهم نحو المكان الوحيد في طهران الذي يتوجهون إليه عندما يختفي أحدهم أثناء احتجاج: سجن إيفين. وبعد إزعاجات كثيرة يقف الأهل في العادة في صف أمام حاجز خارج السجن، يبحثون عن أخبار عن أولادهم. وهذا المشهد مثير للعواطف ويلفت الأنظار، حيث الأمهات الملتفات بالشادورات السوداء يجلسن بحزن شديد على الحاجز الإسمنتي، في مواجهة السجن الواقع على مرتفع جبلي.

ولأن المصوّرين الصحافيين لا يستطيعون رواية قصة من دون صورة،

توجهت مصوّرة إيرانية- كندية تدعى زهرة كاظمي إلى السجن في ٢٣ حزيران/ يونيو لالتقاط الصور. كانت تعتقد أن البطاقة الصحافية الجديدة التي أصدرتها الحكومة لها وكانت تضعها في حقيبتها تسمح لها بالعمل في أنحاء المدينة. وعندما رصدها أحد حراس السجن تلتقط الصور، طلب إليها أن تسلمه الكاميرا بدل أن يحضّها على التوقف. وخشية أن يقوم المسؤولون الرسميون بمضايقة أفراد الأسر الذين كانت قد التقطت صورهم أظهرت بطاقتها الصحافية وأتلفت الفيلم. وعندما صرخ الحارس بها غاضباً: «لم أطلب منك إتلاف الفيلم، طلبت منك إعطائي الكاميرا». أجابت بحدة: «يمكنك أخذ الكاميرا، لكن الفيلم ملكي». وقد تم احتجازها وتعرّضت للاستجواب في الأيام الثلاثة التالية من قبل ضباط الشرطة والمدعين العامين ومسؤولي الاستخبارات.

بعد ظهر أحد تلك الأيام، جاءت صديقة لي إلى مكتبي وقالت إن إحدى صديقاتها وتدعى زيبا، وهو الاسم الذي كان أصدقاء زهرة كاظمي يطلقونه عليها، قد اعتقلت. وقالت: «إن عائلتها لا تعلم، وأخشى أن أتصل بالسفارة الكندية لأنهم دعوها بالجاسوسة عندما اعتقلوها. ماذا لو لاحقوني لاتصالي بالسفارة واتهموني بالتجسس أيضاً؟». قلت: «اتصلي بالسفارة من أي هاتف مدفوع وحسب ولا تقدمي نفسك. يجب أن يعلموا».

بعد أربعة أيام نُقلت زيبا إلى مستشفى في طهران. وراحت الصحف تنشر قصصاً عن مصوّرة إيرانية - كندية تم اعتقالها، وأُطلقت عليها صفة الجاسوسة التي دخلت البلاد متخفية كصحافية. ولم يعلم أقرباؤها إلا بعد أسبوع أنها لم تعد قيد الاحتجاز بل دخلت في غيبوبة وأنها في وحدة العناية المكثفة وتخضع لحراسة من عناصر الأمن. وبعد أسبوع آخر، ماتت.

منذ إعلان وفاة زهرة تحوّلت القضية إلى جدال بشع ومريب بين الهيئة القضائية التي يسيطر المتشددون عليها وحكومة الرئيس خاتمي وحكومة كندا. كانت زيبا تحمل الجنسيتين الكندية والإيرانية على السواء، وضغطت كندا بسرعة على الحكومة الإيرانية لإعادة جثتها إلى مونتريال ولمعاقبة القتلة.

وادّعى النظام أنها أصيبت بجلطة أثناء خضوعها للاستجواب، وجرى تغيير هذه الرواية غير المقنعة لاحقاً إلى قصة تدور حول كيف وقعت المصوّرة الصحافية وآذت رأسها. وعندما تقدم أحد نواب الرئيس، محمد علي أبطحي، واعترف أنها ماتت نتيجة تعرضها للضرب، عندما أدرك النظام صعوبة تغطية موتها. في واقع الأمر، بدا النظام وقد فوجئ بتصاعد الإدانات التي تردد صداها في العالم.

بعد فترة قليلة من إعلان الصحف وفاة زيبا، بدأ النظام يناقض نفسه في ما يتعلق بسبب الوفاة، واتصلت بي صديقة أخرى لها وسألت إذا ما كان في وسعها زيارتي برفقة والدة زيبا. وقد وصلتا إلى مكتبي أواخر بعد ظهر أحد الأيام، وشربنا الشاي معاً على مهل فيما كانتا ترويان قصتيهما.

روت صديقة زيبا أن مسؤولين أمنيين جاءوا مرتين إلى بيتها، حيث كانت زيبا تقيم عندما اعتقلت. قالت: «ظلوا يسألونني عن حالتها الصحية وأي أدوية تتناول يومياً. وعندما أخبرتهم أنها لم تكن مريضة قط طلبوا رؤية أغراضها. أخذتهم إلى الحمّام وبدأوا يفرزون الأدوات التي تستخدمها في الحمّام وعدة التجميل. واستولوا على زجاجة فيتامينات متعددة وعلى علبة صغيرة لإضافات الكالسيوم. أرأيت، قالوا بانتصار ملوّحين بالزجاجات في الهواء. قلنا لك إنها مريضة. قلت هذه فيتامينات، ليس من الضروري أن تكون مريضاً لتتناولها. وأدركت لاحقاً فقط أنهم أرادوا الادعاء أن زيبا كانت تشكو من حالة صحية سابقة وأنها تدهورت ببساطة في السجن».

أما والدة زيبا فهي امرأة هشة متقدمة في السن وليس لها من أولاد غير ابنتها الوحيدة، وقد قطعت كل الطريق من شيراز التي تتحدث عنها الأساطير في جنوب إيران. وعندما باشرت الكلام، ارتجف صوتها، وكانت تتوقف كل بضع لحظات، وكأن نفسها ينقطع. قالت: «اتصلوا بي في شيراز وأبلغوني أن زهرة قد اعتقلت وهي في السجن؛ تعالي لرؤيتها إذا كنت ترغبين، استقللت الحافلة إلى طهران في الليلة ذاتها، لأتمكن من الوصول إلى السجن في

الصباح. وعندما ذهبت إلى مكتب إدارة السجن تركوني أنتظر أكثر من ثلاث ساعات، وكان أحدهم يأتي بين الحين والآخر ويسأل، أي دواء كانت زيبا تأخذ؟ قلت لهم إنني هنا لرؤية ابنتي، كفوا عن استجوابي. كانت في صحة ممتازة. ماذا حصل لتسألوني هذه الأسئلة؟».

وتابعت: «حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر، لم يكن أحد ليجيب عن أسئلتي. وأخيراً، وفيما كانوا يستعدون للمغادرة في نهاية يوم عملهم قالوا لي إن زيبا مريضة وقد نُقلت إلى المستشفى. قلت إنني أستطيع الذهاب إلى هناك لزيارتها. وجدت سيارة أجرة وتوجهت إلى المستشفى. وعندما دخلت إلى الغرفة لم أستطع تصديق أنها كانت ابنتي، رأيتها ممددة من دون حراك على السرير، ووجهها مغطى بقناع أوكسيجين وموصولة بكل تلك الآلات الوامضة. اقتربت من جانب سريرها ورفعت برفق رداء المستشفى لأرى ما الذي حصل لها. كان صدرها وذراعاها والجهة الداخلية من فخذيها مصابة بخدوش ومبرقشة بكدمات زرقاء ورمادية.

«عدت في اليوم التالي لرؤيتها مجدداً. لم يدعوني أدخل هذه المرة إلى الغرفة لكنهم قبلوا أن أنظر إليها عبر نافذة. بدت لي وكأنها في الوضع ذاته تماماً الذي تركتها عليه بالأمس، وعندها علمت أنهم يبقونها على قيد الحياة بواسطة الآلات فقط. علمت أنني فقدت طفلتي الوحيدة.

«وبينما هي في الغيبوبة، حثني حفيدي في كندا على إرسال جسدها إلى هناك من أجل الدفن. وعندما قلت للسلطات في الهيئة القضائية وفي وزارة الاستخبارات إن هذا هو قرار العائلة أصرّوا على أن تُدفن في إيران. وهددوني. قالوا إنهم سيظلون يضايقون أصدقاء زيبا إلى الأبد هنا إذا لم نوافق. كنت منزعجة ومرتبكة، وقلقة بشأن ما يمكن أن يحصل إذا رفضت. لذا رضخت، ولم تكد تمر ساعات قليلة على موتها الفعلي حتى نقلت طائرة جثتها إلى شيراز لدفنها هناك».

عندما توقفت والدة زيبا قليلاً لارتشاف الشاي، تخيلتها تواجه هذا الترهيب

وحيدة، وشعرت بثقل في قلبي. ولقد رضخت، وهي غير متعلمة وتعاني صعوبة في الحركة، عندما قرع بابها في شيراز محام لبِق الحديث عيّنته المحكمة في طهران وطلب إليها توقيع أوراق تعيينه كمحام لها، لتتمكن من ملاحقة قتلة زيبا. وقّعت الأوراق من دون أن تقرأها، وأدركت لاحقاً في تلك الليلة، عندما أطلعت أحد الأقرباء على الأوراق، أنها وقّعت على أوراق لا تتخلى بموجبها عن الحق في رفع دعوى أمام القضاء فقط بل تعلن أيضاً أنها توصلت إلى تسوية بشأنها. وقد نصحها أقرباؤها بالعثور على محام مناسب، وهكذا وجدت طريقها إليّ.

قالت بتردد: «ليس في وسعي أن أدفع لك». طمأنتها بسرعة بالقول «لا بأس. لم أكن لأقبل منك مالاً في جميع الأحوال. لكن دعينا ننتقل إلى العمل». وعلى الفور كتبت رسالة باسمها، موجّهة إلى المحكمة تلغي فيها اتفاقها مع المحامي المعيّن من قِبل المحكمة. ثم بدأنا الإعداد للمحاكمة التي كان يجب أن تبدأ في الأسبوع المقبل.

في اليوم الأول من المحاكمة، بقيت في البيت وطلبت من والدة زيبا أن تفعل مثلي. لم أكن أريد أن تعرف المحكمة أنني أمثلها، فوفقاً للقانون الإيراني تحدد المحكمة في اليوم الأول ما إذا كانت الجلسات مفتوحة أو مغلقة. وكنت أعلم أنني إذا ظهرت فإن المحاكمة ستصبح على الفور مغلقة. وأرسلت والدة زيبا رسالة من شيراز تقول فيها إن «الله هو محاميّ» («وكّلت أمري إلى الله»). تصوّر رئيس المحكمة في الجلسة الافتتاحية أنه في ظل عدم وجود محام، وبما أن والدة زيبا لم تكلف نفسها عناء السفر من شيراز، فإن جعل المحكمة مفتوحة سيكون علامة رمزية على حسن النية. لقد نجحت حيلتي الصغيرة، ولم تستطع المحكمة التراجع عن قرارها.

كنت أعتزم السفر إلى باريس بعد عشرة أيام - وهي الرحلة ذاتها التي علمت فيها أنني فزت بجائزة نوبل - لكنني حرصت على رؤية والدة زيبا قبل سفري. لم تكن زيبا الشخص الأول الذي يموت في سجن إيراني، لكنها

كانت المرّة الأولى التي يجتذب فيها الموت أثناء الاحتجاز اهتماماً دولياً كهذا. ومن خلال تمثيل عائلتها، أردت أن أظهر للعالم ماذا يرشح من السجون الإيرانية، على أمل الحيلولة دون أن تتكرر هذه الوحشية غير المسؤولة نفسها. على أن إجراءات المحكمة جاءت أقل من توقعاتنا، وقال القاضي لاحقاً إنه من المستحيل التعرف إلى المسؤول الرسمي الذي وجّه الضربة القاضية إلى زيبا. لكننا في ذلك اليوم ركّزنا والدة زيبا وأنا على استراتيجيتنا القانونية. لقد جلبت لي ليموناً من شيراز، وفاحت الرائحة في أنحاء المكتب، على النحو ذاته الذي تعطّر فيه براعم البرتقال في شيراز هواء الربيع.

الفصل الثاني عشر

جائزة نوبل

دُعيت في أيلول/ سبتمبر من العام ٢٠٠٣ إلى حضور مؤتمر في باريس عن مدينة طهران. وقد احتجت السفارة الإيرانية في فرنسا أولاً على مشاركتي على أساس أنني أحمل معتقدات تناهض الموقف الرسمي للحكومة الإيرانية. ويبدو أن النظام يعتقد أن في وسعه التحكم، حتى في الخارج، في ما يُعتقد أو يُقال عن إيران، ويعتبر أن الآراء المناقضة لرأيه غير مشروعة. وهددت السفارة بمنع الأفلام والأعمال الفنية الإيرانية التي يفترض أن تعرض في المؤتمر من مغادرة البلاد إذا شاركتُ فيه. تمسّكت بلدية باريس، وهي الجهة المنظمة للمؤتمر، بموقفها، وفي نهاية المطاف لان موقف الحكومة الإيرانية.

جلبت معي ابنتي الصغرى، نرجس. وبين عروض المؤتمَر للأفلام مثل «النجدة طهران»، قدّمت لها جولة في باريس وتمتعت بسرورها أثناء زيارة برج إيفل ومتحف اللوفر والشانزيليزيه والمعالم المعمارية الكبرى. وبقينا في الفندق حتى الليلة الأخيرة من رحلتنا عندما دُعينا إلى منزل صديق قديم لي من الفترة التي عملت فيها قاضية قبل الثورة، هو الدكتور عبد الكريم لهيجي، الذي يشغل الآن منصب نائب رئيس الاتحاد الدولي لرابطات حقوق الإنسان. انتهت زيارتنا بسرعة، وفي الصباح التالي حزمنا حقائبنا لتتمكن زوجته من اصطحابنا إلى المطار. وبصدق أقول إنني سمعت مرة أن اسمي طُرح في مرحلة ما ليكون على لائحة المرشحين لنيل جائزة نوبل للسلام، لكن صحيفة إيرانية ذكرت أنه

قد سُحب، لذا لم أفكر كثيراً في المسألة، ولم أشاهد التلفاز أو أستمع إلى الراديو قط عندما كنت في باريس.

في ذلك الصباح، ألقى الدكتور لهيجي علينا تحية الصباح قبل أن يتوجّه إلى عمله، وفيما كنا ننقل حقائبنا إلى الباب رنّ الهاتف. كان الاتّصال لي، فعدت إلى المطبخ ورفعت السماعة. على الطرف الآخر من الخط، قدّم رجل نفسه على أنه يتصل من لجنة جائزة نوبل للسلام، وطلب مني البقاء قرب الهاتف في انتظار نبأ مهم. وضعت السماعة بنفاد صبر بعدما افترضت أن أحد أصدقائي يعدّ لي مقلباً. ورد اتصال آخر بعد عشر دقائق يحمل الطلب ذاته. أوضحت أنني في طريقي إلى المطار وأن عليّ الذهاب، لكن المتصل أصرّ على أن النبأ عاجل. وعندما أدرك أنني لم أصدّقه وأنني على وشك إقفال الخط حوّل الاتصال إلى شخص آخر شرح لي أنني مرشحة للجائزة وأن عليّ الانتظار بضع دقائق إضافية فقط. ثم سمعت أحدهم وكأنه يقول إنني فزت بجائزة نوبل للسلام وجلست هناك مذهولة، متسائلة ما إذا كان عليّ اللحاق برحلتي إلى طهران أم لا.

بعد ذلك بدأ الهاتف يرنّ من دون توقف باتصالات يجريها الصحافيون. اتصلت بالدكتور لهيجي في مركز عمله وسألته إذا ما كان قد سمع أي أنباء عن الأمر. كنت مصدومة فعلاً، وغير متأكدة مما يجب أن أفعل لاحقاً. اقترح أن أؤجل رحلتي لصعوبة التكهن بردة فعل الحكومة الإيرانية. ورأى أن الصحافيين والمراسلين من أنحاء العالم لن يكونوا قادرين على الوصول فعلاً إليّ في طهران، لذا من الأفضل البقاء حالياً. وقال إنه سيعدّ لمؤتمر صحافي لي في غضون ساعتين.

وصلت إلى قاعة يزدحم فيها المراسلون الذين بدأوا بتوجيه أسئلتهم حتى قبل أن أعتلي المنصّة. أزّت الأسئلة جيئة وذهاباً وأجبت بالسرعة والدقة اللتين تمكنت من تحصيلهما. وبعد الإعلان عن الجائزة، اقترب مني موفد من السفارة الإيرانية وقال لي بلهجة جافة ورسمية إن السفير يرسل تهنئته. لقد

افترضوا أنني فور تلقي الجائزة سأبدأ بإمطار الجمهورية الإسلامية بالقدح. لم تكن هذه نيتي، ولم تكن حقاً كذلك على الإطلاق. وعندما جلسوا للاستماع إلى المؤتمر الصحافي ولاحظوا أن كلامي هو ذاته لم يتغير، محدد ومتحضر، أرسلوا شخصين من السفارة يحملان مصحفاً كهدية. وقالا إن السفير يريد لقائي لكنه مرتبط بمواعيد سابقة ويرغب في التحدث إليّ عبر الهاتف. وقد اتصل فعلاً عبر هاتف خليوي وتحدثنا قليلاً.

ما إن انتهى المؤتمر الصحافي وارتحت برهة حتى أدركت أنني يجب أن أتصل بأمي وأشرح لها أنني لن أكون قادرة على الوصول إلى إيران على الرحلة المقررة، لكنني سأكون على الرحلة ذاتها في اليوم التالي. اتصلت والدتي بي تلك الليلة من طهران وأبلغتني أن لجنة ترحيب قد شُكلت لتحيتي لدى وصولي. في الظاهر بدا أن ثمة ارتباكاً حول أي جزء من المطار يجب استخدامه، وأصررتُ على ألا أمرّ في منطقة استقبال الشخصيات المهمة التابعة للحكومة. كما اختلفت لجنة الترحيب على ما يبدو حول موعد عودتي. قال البعض إن من الأفضل لي الانتظار إلى حين التوصل إلى تدبير ملائم في المطار، ولإتاحة الوقت للناس ليأتوا من المقاطعات إلى طهران؛ وقال آخرون إننا نحتاج إلى الاستفادة من عفوية اللحظة وإعادتي إلى طهران في أقرب وقت ما دام النبأ طازجاً. بالنسبة إليّ، كانت المقابلات التي لا تنتهي والدّوامة التي وُجدت فيها مرهقة، وعلى الرغم من الارتباك أردت العودة إلى الوطن.

تجمّع في اليوم التالي في المطار مودعون جاءوا لمقابلتي قبل سفري. تبادلت والدكتور لهيجي التحيات الوداعية في قاعة اجتماعات حجزتها السفارة. وعلى متن طائرة الخطوط الجوية الإيرانية جاء القبطان لتحيتنا ونقلنا، نرجس وأنا، إلى مقصورة الدرجة الأولى. وبعد قليل بدأت المضيفات ينقلن إليّ ملاحظات التهنئة من الركاب الآخرين. وظلت الملاحظات تتوالى إلى أن قررت أن أسير في الطائرة وأصافح الركاب الذين كانوا يكثرون من توجيه

التهاني وهم منفعلون، باستثناء رجلين جدّيين للغاية حذّراني بأن عليّ اتباع الحذر لئلا أهدد شرف أولئك الذين سفكوا دماءهم من أجل الشعب والإسلام. قلت: «إن دماء الشهداء ثمينة إلى الحد الذي لا يمكن لفرد واحد أن يشوّهها؛ لكن كونا مطمئنين».

أعلن القبطان أنه يطلق على سفرتنا اسم «رحلة السلام» ودعاني وابنتي إلى قمرة القيادة. عندما دخلنا إلى القمرة ابتعد عن لوحة الأضواء الوامضة للتحدث إلينا، وخشيت لوهلة أن تسقط الطائرة. قلت بعصبية: «هل لي أن أسأل لماذا لا تنظر أمامك؟». وشرح لي أن الطائرة موضوعة على نظام الملاّح الآلي، وشعرت بنفسي سخيفة جداً.

بعد عودتنا إلى مقعدينا فقط أتيحت لي لحظة هادئة لألقي برأسي على المسند وأتأمل في كل ما يعنيه هذا. تدافعت أفكاري بسرعة: ستتمكن منظمتنا غير الحكومية التي تعاني وضعاً صعباً، من أن تحصل أخيراً على أثاث للمكتب... ما الذي ستعتقده الحكومة الإيرانية؟... هل سأكون في وضع أكثر أمناً بحيث تحميني هذه الجائزة باسم السلام؟... أو هل ستفاقم من خطر أولئك الذين تقلّصت درجة تحمّلهم لي في إيران، الذين كانوا يخططون لقتلي عندما كنت أقل بروزاً بما لا يقاس؟

وبينما كانت السماء التي نطير فيها تزداد عتمة ويهدأ صخب المقصورة، رحت أفكّر في المعنى الحقيقي للجائزة. لم أفكر لثانية واحدة في أنها موجّهة إليّ كفرد. فهذا الاعتراف النبيل يمكن أن يقصد فقط ما ترمز إليه حياة الفرد، الطريق أو المقاربة التي اتبعها في سعيه إلى تحقيق هدف أسمى. في الأعوام الثلاثة والعشرين الماضية، من اليوم الذي مُنعت فيه من مزاولة القضاء إلى الأعوام التي كنت أخوض فيها المعارك في محاكم طهران الثورية، كنت أردد دائماً لازمة واحدة: تفسير الإسلام المتناغم مع المساواة والديموقراطية هو تعبير أصيل عن الإيمان. ليس الدين ما يعيق المرأة، بل الإملاءات الانتقائية التي يقوم بها الذين يتمنون عزل النساء عن العالم. هذا الاعتقاد، إلى جانب

القناعة في أن التغيير في إيران يجب أن يتم سلمياً ومن الداخل، شكّلا جزءاً رئيساً من عملي.

كنت عُرضةً للهجوم طوال الجزء الأكبر من حياتي كراشدة بسبب هذه المقاربة، أتعرض للتهديدات من قبل أولئك الذين يدينونني في إيران ككافرة لتجرّئي على القول إن في وسع الإسلام النظر إلى الأمام، كما أُدنت خارج بلادي من منتقدي الجمهورية الإسلامية العلمانيين الذين لا تقل مواقفهم جموداً عقائدياً عن مواقف السابقين. وعلى مر الأعوام، تحمّلت كل أنواع الازدراء والهجومات، وقيل لي إنني لا أقدّر ولا أستوعب روح الديموقراطية الحقيقية إذا ما كان في وسعي الادعاء، في آن واحد، أن الحرية وحقوق الإنسان ليستا بالضرورة على تناقض مع الإسلام. عندما سمعت بيان فوزي بالجائزة يُقرأ بصوت مرتفع، وسمعت أن ديني يُذكر خصوصاً بالاقتران مع الدفاع عن حقوق الإيرانيين، علمت في تلك اللحظة ما الذي يجري الاعتراف به: الإيمان بتأويل إيجابي للإسلام وقدرة هذا الإيمان على مساعدة الإيرانيين الذي يطمحون إلى تغيير بلادهم تغييراً سلمياً.

وفيما راحت تتضح أنوار طهران المتلألئة تحتنا وبدأت الطائرة بالنزول، اقتربت نرجس وربتت كتفي. سارت الطائرة إلى أن توقفت على المدرج، وطلب مني كبير المضيفين أن أهبط أولاً، وقادني صوب باب الطائرة. وعندما فتح الباب كان أول ما رأيت وجه أمي المضيء. احتضنتها برفق وثنيت يديها داخل يدي وضغطهما على شفتي. ثم تراجعت لألاحظ أخيراً الحشد الممتد إلى أبعد ما أستطيع رؤيته. تقدمت نحوي حفيدة آية الله الخميني وطوّقت عنقي بإكليل من الزهور الرقيقة. وتقدم الحشد من كل الجهات ومددت ذراعي لحماية كتفَي أمي الضعيفتين، وأنا أنظر إلى ضباط الشرطة حولنا الذين بدوا وكأنهم لا يعرفون ماذا يجب أن يفعلوا. لا أستطيع أن أفوز بجائزة نوبل ثم أُسحق من قِبل الحشد الذي يستقبلني، فكرت بسخرية، وقررت منح الشرطة فرصة لتشكيل إطار حولنا. أخذت نفساً عميقاً ثم أطلقت أعلى صرخة

«الله أكبر!» استطعت تدبّرها. تجمّد الجميع من طاقم عمال المطار إلى آلاف المسافرين من المفاجأة، وفي هذه الثانية طوقتنا الشرطة ووجهتنا نحو قاعة للانتظار.

كان نائب الرئيس الشعبي والمتحدث باسم الحكومة - وكلاهما من أعضاء الجناح الإصلاحي حينذاك في النظام - في انتظارنا ورحّبا بنا ترحيباً حاراً. تبادلنا بضع كلمات ثم انتقلنا بسرعة إلى منصّة بنيت على عجل لوصولي، وبما أن الوقت كان متقدّماً في الليل وكان الهدير يصمّ الآذان في الخارج، أستطيع القول إن الحشد كان بمئات الآلاف. لم أصدِّق عينيّ عندما رفعوني أخيراً. كان الناس ينتشرون في كل الاتجاهات، يملأون ساحة محطة الوصول ويتجاوزونها إلى مدى بعيد وصولاً إلى الجادّة الطويلة المفضية إلى المدينة. كانت المرّة الأخيرة التي توجهت فيها كتلة بشرية كبيرة إلى مطار طهران في العام ١٩٧٩ والشخصية التي كانت على متن الرحلة الآتية من باريس آنذاك كانت آية الله الخميني. لكن هذه المرة كان في وسعكم أن تروا من خلال العدد الضخم من أغطية الرأس أن النساء كن يشكلن أكثرية الحشد. كان بعضهن يرتدي الشادور الأسود، بيد أن الأكثرية كانت تضع أغطية زاهية الألوان وراحت زهور السوسن والورود البيضاء التي كنّ يلوّحنَ بها تومض في ظلام الليل. همس لي أخي: «لقد أتوا سيراً على الأقدام إلى هنا. لقد جاءوا بالسيارات إلى أن اكتظت الطرقات بالازدحام فتركوا سياراتهم ومشوا. لقد ألغيت جميع الرحلات لأن كل الطرق المؤدية إلى المطار مغلقة بسبب الحشود».

في البعيد، وقفت مجموعة من طلاب الجامعة، تنشد «يار دبستاني» وهي أغنية شعبية تمتزج فيها المرارة بالفرح أصبحت نشيد الناشطين المنادين بالديموقراطية. وينشدونها عادة في الاعتصامات للحفاظ على روحهم المعنوية مرتفعة قبل أن تسارع الوحدات شبه العسكرية إلى الانقضاض عليهم، وفي جميع المناسبات الأخرى التي يأتون إليها معاً، خائفين من المستقبل لكن

مصمّمين بما يكفي للتجمع معاً، وهذا وحده مجازفة. كانت الموسيقى حزينة لكنها تبث الحماسة، وللمرّة الأولى منذ فترة لا أستطيع تذكر طولها شعرت بالأمل عندما وصلوا إلى السطر الذي يقول «أي أيد غير يدي ويديك تستطيع إزاحة هذا الستار؟»

لم يكن ثمة نظام جيد لتكبير الصوت لأتمكن من التوجه إلى حشد كبير كهذا، لذا اعتذرت ولوّحت بيدي ونزلت في النهاية عن المنصّة. وعندما تمكنّا أخيراً من الوصول إلى سيارتنا والقيادة ببطء، انشقت الحشود لتدعنا نتقدم ومن النافذة كنت أرى توالي الوجوه، الحاملة للأمل والجدية والفخورة ولكن الأكثر أهمية أنها كانت حية للغاية. وقرب النصب المقوّس الذي بناه الشاه جنوب طهران والذي أعيدت تسميته «ساحة الحرية» لمحت امرأة تحمل طفلاً بيد وبيدها الأخرى لافتة مصنوعة يدوياً مكتوباً عليها ما جعلني أمسك أنفاسي: «هذه هي إيران».

خاتمة

يرتفع في مكتبي في طهران ملصقٌ لرسمٍ كاريكاتوري سياسي أحبّ أن أنظر إليه أثناء العمل. يصوّر الملصق امرأة تعتمر خوذة قتال من عصر الفضاء وتنحني على صفحة بيضاء وفي يدها قلم. يذكرني الرسم بحقيقة تعلمتها في عمري ويتردد صداها في تاريخ النساء الإيرانيات عبر العصور: إن الكلمة المكتوبة هي الأداة الأقوى لدينا لحماية أنفسنا من طغاة العصر ومن تقاليدنا على السواء. وسواء أكانت شهرزاد راوية القصص التي درأت عن نفسها ضرب العنق بابتكار ألف قصة وقصة، أم شاعرات نسويات من القرن الماضي تحدّين التصورات الثقافية بأبيات الشعر، أم محاميات مثلي من اللواتي دافعن عن الضعيف في المحاكم، فإن النساء الإيرانيات اعتمدن طوال قرون على الكلمة لتغيير الواقع.

ومع أن الكلمات أسلحة مسالمة، فقد تعرّضت في الأعوام الخمسة عشر الماضية للمضايقة والتهديد وسُجنت في سياق الدفاع عن حقوق الإنسان وضحايا العنف في إيران. وأردت منذ زمن كتابة مذكراتي عن تلك الأعوام، أتحدث فيها من وجهة نظر امرأة تعرّضت للتهميش من قِبل الثورة الإسلامية لكنها ظلت في إيران وحفرت لنفسها دوراً مهنياً وسياساً في الحكم الديني الناشئ الذي يحظر ذلك. وإلى مسيرتي الشخصية، أردت تصوير كيف تتغير إيران، وهو تغيير يحل على الجمهورية الإسلامية بطرق بطيئة وماكرة ويمكن بسهولة عدم ملاحظتها. لا يتيح لك الوقوف عند تقاطع مزدحم في العاصمة أو

الاستماع إلى خطب صلاة الجمعة أن تعرف فوراً أن خمسة وستين في المئة من طلاب الجامعة في إيران و٤٣ في المئة من الأُجراء هم من النساء. أردت أن أكتب كتاباً يساعد على تصحيح الصورة النمطية في الغرب عن الإسلام، وخصوصاً صورة النساء المسلمات بصفتهن كائنات خانعة وبائسة. لقد جعلت الرقابة المسيطرة في الجمهورية الإسلامية من المستحيل نشر رواية نزيهة عن حياتي هناك. إن أعمالي تضعني في جانب المعارضة للنظام، وأظن أنني لن أتمكن أبداً من كتابة أي شيء عن إيران من دون أن أنزع الخوذة (التي تضعها الكاتبة في الرسم الكاريكاتوري).

عندما تسلّمت جائزة نوبل في العام ٢٠٠٣، اعتقدت على الأقل أنني أستطيع في الغرب، وفي المجتمعات المفتوحة التي تحمي حرية التعبير، نشر مذكرات تصحح الصور النمطية عن النساء المسلمات. وشعرت أن تجربتي قد تشكّل مساهمة في تسريع وتيرة الجدال بشأن الإسلام والغرب، والوصول إلى جمهور عريض. وفي ما يتجاوز المساعدة في إلقاء الضوء على الحضارة الإسلامية ومواجهتها مع أميركا المعاصرة، شعرت أن العداء البارد بين الولايات المتحدة وإيران جعل التواصل بين المجتمعين حاجة ملحة أكثر من أي وقت مضى. وتصوّرت أن أصوات الإيرانيين الذين لا يشعرون بأن حكومتهم ودبلوماسييهم يمثلانهم ستكون موضع ترحيب خاص في الولايات المتحدة.

أطلعت أستاذ جامعة في الولايات المتحدة، هو صديقي المقرّب الدكتور محمد ساهيمي، على اعتزامي تأليف كتاب، وطلبت مساعدته. وبعد التحدث إلى عدد من الوكلاء الأدبيين قدّم لي امرأة تدعى ويندي ستروثمان. كانت قد حضرت اثنتين من خطبي في الجامعات الأميركية وشعرت بقوة أن قصتي يمكن أن تعثر على جمهور متحمس في صفوف الشعب الأميركي. وصُدِمت عندما علمت أثناء لقائنا في أيار/ مايو من العام ٢٠٠٤، أن العقبة الوحيدة التي قابلتنا هي الحكومة الأميركية. وتبيّن أن لوائح العقوبات في الولايات المتحدة تجعل من شبه المستحيل بالنسبة إليّ نشر مذكراتي في أميركا.

وعلى الرغم من وجود القوانين الاتحادية الأميركية التي تنص على أن الحظر التجاري الأميركي يجب أن لا يؤثر في التدفق الحر للمعلومات، فإن «مكتب وزارة الخزينة للتحكم في الأصول الأجنبية» ينظّم استيراد الكتب من إيران وغيرها من الدول التي تخضع للعقوبات. ومع أن الحظر لا يرمي صراحة إلى اعتراض تدفّق المعلومات بين الدول فهو يفعل ذلك عملياً من خلال منع نشر «مواد موضوعة كلياً وموجودة». يعني ذلك أنني أستطيع نشر كتابي في الولايات المتحدة لكن سيكون من غير القانوني لأي وكيل أدبي أميركي وناشر أو محرر مساعدتي، والأرجح سيكون من غير القانوني للناشر الإعلان عن كتابي. ولم يلاحظ أي منا في البدء مدى جدّية العقوبات التي تتضمّنها التعليمات. علمنا لاحقاً أنه في حال تحدّت ويندي العقوبات فإنها ستتحمل غرامة قاسية وربما تواجه عقوبة السجن.

يفرض النظام الإسلامي في إيران الرقابة على الكتب، وينشئ الجدران النارية في الإنترنت[(١)] ويمنع التقاط برامج تلفزيونات الأقمار الاصطناعية في مسعى للحيلولة دون وصول الإيرانيين إلى معلومات عن العالم الخارجي. وبدا من غير المفهوم لي أن تسعى حكومة الولايات المتحدة، التي تعلن نفسها حامية أسلوب الحياة الحر، إلى تنظيم ما يستطيع الأميركيون قراءته وما لا يستطيعون، وهي ممارسة تُسمّى رقابة عندما تلجأ إليها الأنظمة التسلطية. ما هو الفرق بين الرقابة في إيران وهذه الرقابة في الولايات المتحدة؟

عندما ضغط الناشرون على المسؤولين الرسميين الأميركيين بشأن التعليمات، قام هؤلاء بربطها بالأمن القومي وأصرّوا على استحالة التماس موافقة خاصة. لكن إذا كان الدفاع عن الضحايا في الجمهورية الإسلامية قد علّمنيَ شيئاً فهو أن قضية واحدة نادراً ما تكون هي المعركة الحقيقية؛ القضية المذكورة تجسّد ظلماً مقيماً في القانون نفسه.

---

(١) الجدار الناري هو برنامج يمنع وصول مستخدم شبكة الإنترنت إلى مواقع معيّنة. م

وبصفتي حائزة جائزة نوبل للسلام، كان لديّ حظ في الحصول على إذن خاص، لأنني سُجنت في إيران لدفاعي عن حقوق الإنسان ولأنه يصعب الدفاع عن منع مذكراتي. بيد أن استثناء كهذا لن يفيد في شيء مئات الكتّاب والباحثين في إيران وفي غيرها من الدول التي فُرض الحظر عليها والذين يمتنع الناشرون والمجلات عن نشر أعمالهم بسبب الخشية من تعليمات وزارة الخزينة. كانت التعليمات تقف حجر عثرة أمام التبادل الثقافي في مجالات الآداب الإنسانية والعلوم، وتحول دون مشاركة الباحثين في الاستفادة من الدروس التي تم تعلمها من مآسٍ على غرار الزلزال الذي ضرب مدينة بمّ والذي مات فيه حوالى ثلاثين ألف إيراني.

ولأنني أمضيت عمري أدافع عن حرية التعبير، أستطيع أن أقِرّ بفكرة تقديم طلب للحصول على إذن حكومي لنشر كتابي. لم أسعَ إلى معاملة خاصة بسبب شهرتي الفريدة، وتحوّل الأمر بسرعة في نظري إلى مسألة مبادئ عامة: الحق في التعبير الحر، وحق الجمهور الأميركي ومسؤوليته في الاستماع إلى أصوات من أنحاء العالم. وافقت ويندي على بذل كل جهد ممكن للتغلب على التعليمات؛ وبدأنا البحث عن مستشار قانوني لمساعدتنا في جهدنا. وبعد بضعة أشهر مقلقة عثرنا على فيليب لاكوفارا، وهو محام متميز كان قد جادل في قضية أشرطة فضيحة واترغيت أمام المحكمة العليا وشريك في شركة «ماير، براون، راو وماو» التي عرضت علينا استشارة مجانية بشأن القضية مع الحكومة الأميركية.

في السادس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر من العام ٢٠٠٤، سجّلنا، ويندي وأنا دعوى قضائية ضد وزارة الخزينة في محكمة اتحادية في نيويورك، لتنضمّ إلى قضية مشابهة تقدّم بها في أيلول/ سبتمبر عدد من المنظمات الأميركية التي تمثل الناشرين والمحررين والمترجمين. تحدّت دعوانا التعليمات سارية المفعول ضد استيراد «المواد المعلوماتية» من البلدان التي تخضع للحظر وحاججنا في أن ذلك ينتهك حقوق الأميركيين التي ينص عليها التعديل الأول

من الدستور الأميركي. واعتبرت في إعلاني أن المنع هو بمثابة فرصة حيوية مفوّتة بالنسبة إلى الأميركيين لمزيد من الاطلاع على بلدي وعلى شعبه من خلال أصوات إيرانية متعددة، وكذلك من أجل فهم أفضل يجب تحقيقه بين دولتينا.

وعكست التعليمات، في ذهني أيضاً، مدى التعقيد والشلل اللذين يسيطران على العلاقة بين الولايات المتحدة وإيران حتى هذا اليوم. ويظل النقص في التبادل النزيه عادةً خطِرة للبلدين. ولقد أدّى إلى احتفاظ الجانبين بحالة صدمة فريدة في تاريخهما الحديث: خلع وكالة الاستخبارات المركزية في العام ١٩٥٣ للحكومة الديموقراطية في إيران، والردّ المتأخر عليه المتمثل باحتجاز الرهائن في السفارة الأميركية في طهران في العام ١٩٧٩. وأقلقني أنه على الرغم من السجلّ المشحون يصرّ البلدان على التصرف وكأن مصيريهما ليسا متشابكين، كما لو كان في وسع كل منهما أن يكتم صوت الآخر من دون أن يتحمل أيّ تبعات.

والولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة في العالم اليوم، أكان هذا سيئاً أم حسناً، وإيران هي الدولة التي تتمتع بأكبر قيمة استراتيجية في منطقة مضطربة وحيوية للمصالح الأميركية. والتداخلات الناجمة عن هذا الواقع ليست بقليلة: تمتد دائرة النفوذ الإيراني عميقاً داخل العراق، حيث تحاول الولايات المتحدة أن تدير حكماً وسط الفوضى، فيما يرتبط قادة الحكومة العراقية الجدد بصداقات حميمة مع الجمهورية الإسلامية. وبغضّ النظر عن موقف حكومتهم الرسمي فإن الشبان الإيرانيين يظلون مناصرين مبتهجين للولايات المتحدة، وهم الجيب الأخير الذي يكنّ هذا الشعور في الشرق الأوسط الغاضب. وتعلم الدولتان أنهما تتشاركان في مصالح استراتيجية؛ وقد أتاح لهما الاعتراف بذلك ضمّ قواهما لإعادة تشكيل مستقبل أفغانستان بعد سقوط حركة طالبان. بيد أن الإيديولوجيا والشكوك المتبادلة تؤديان دوراً في استمرار الشقاق بينهما بقدر ما تؤدي السياسة الواقعية التي تجعل من تبادل

الأفكار - خصوصاً اطّلاع كل طرف على ثقافة الآخر ومواقفه بعيداً من الخطابة الرسمية - مسألة ضرورية للغاية.

راجعت وزارة الخزينة تعليماتها بشأن نشر أعمال مواطني الدول التي فُرض الحظر عليها في السادس عشر من كانون الأول/ ديسمبر من العام ٢٠٠٤. ولو لم تفعل ذلك لكان عليها أن تواجه إمكان تلقّي ضربة من المحكمة العليا باعتبار سياستها غير دستورية. بعد شهرين، قال الرئيس بوش للإيرانيين في خطابه عن حالة الاتحاد: «ما دمتم تقفون متمسكين بحريتكم فإن أميركا تقف معكم». يصعب تصوّر إعلان الرئيس هذا الموقف في حين أن حق الإيرانيين في نشر رواياتهم عن تمسكهم بالحرية لا يزال مهدداً في أميركا.

تُعتبر مراجعة وزارة الخزينة لتعليماتها خطوة متواضعة في تاريخ بلدينا الطويل والعنيف، لكن قيمته الرمزية قدّمت تشجيعاً عظيماً لي. وفي نهاية المطاف، أليس ذو دلالة أن تتقدم امرأة إيرانية تقيم في وطنها الأم الجهود التي جعلت ممارسات الولايات المتحدة أكثر عدلاً؟ كان هذا انتصاراً حملته معي إلى إيران وتحدثت عنه تكراراً لمضمونه التعليمي فيما نسير قدماً. إنه يسمح لي بمعارضة ما بات حقيقة بديهية سياسية في الخطابة السائدة في الجمهورية الإسلامية، والقائلة إن الولايات المتحدة لا تفهم سوى لغة القوة. إن النزعة الحربية وسياسة حافة الهاوية هما اللتان وضعتانا حيث نحن الآن، لكنهما ما زالتا عادتين متأصلتين عند الجانبين. وقد نحتاج إلى مدى زمني يمتد إلى عقود ليزول نُصب انعدام الثقة القائم حالياً. لكن خطوات صغيرة كهذه تذكرنا بأننا إذا استخدمنا العملية السياسية لتغيير مواقف كل من الطرفين يمكن أن تتداخل مصائرنا تداخلاً مثمراً.

أدرك أن التعويل كثيراً على الحوار السياسي يبدو إفراطاً في التفاؤل، إذا ما أخذنا في الاعتبار البرزخ الموجود بين توقعات الغرب من إيران وميل النظام الإيراني إلى التوصل إلى حلول وسط. وأركز على العملية السياسية ليس لأنني أتصور أننا سنعيد تصميم علاقة جديدة حول مائدة التفاوض في أي وقت قريب

بل لأنني لا أرى أمامنا أي خيار آخر. ينبغي لإيران، من جهتها، أن تنتقل سلمياً نحو حكم ديموقراطي يمثل إرادة أكثرية الإيرانيين. بين ثورتنا التي كانت يافعة جداً وبين أعوام الحرب الثمانية التي تبعتها، تعب الإيرانيون من سفك الدماء ومن العنف. وكثرٌ هم المستعدون للذهاب إلى السجن أو المجازفة بحيواتهم دفاعاً عن معارضتهم، لكنني لا أرى إيران اليوم كبلد جاهز شعبه لحمل السلاح ضد حكومته.

أمام الغرب، من جهة ثانية، خيار استخدام الدبلوماسية للضغط على إيران لتغيير سلوكها، من سجل حقوق الإنسان في داخل البلاد إلى طبيعة برنامجها للطاقة النووية. إن إبقاء التهديد بتغيير النظام بالقوة العسكرية كخيار مطروح لدى البعض في العالم الغربي يعرّض للخطر تقريباً كل الجهود التي بذلها الإيرانيون المؤيدون للديموقراطية في الأعوام القليلة الماضية. وذلك أن التهديد بالقوة العسكرية يعطي النظام ذريعة لتوجيه الضربات إلى المعارضة الشرعية ولزعزعة المجتمع المدني الوليد الذي يتشكل ببطء هنا، ويجعل الإيرانيين يتجاوزون استياءهم تجاه النظام ويحتشدون وراء قادتهم غير الشعبيين بسبب النزعة القومية الدفاعية. وفي اعتقادي أن ما من سيناريو أكثر إثارة للقلق وما من تحوّل داخلي أخطر من ذاك الذي يُحدثه الغرب من خلال تصوّره لقدرته على جلب الديموقراطية إلى إيران إما عبر الجبروت العسكري وإما عبر إثارة تمرد عنيف.

الأهم هو أن يبقي الغرب سجلّ إيران في مجال حقوق الانسان في مركز الضوء، بعدما كشف النظام الإسلامي عن حساسيته حيال نقد كهذا. ربما تتمسك الجمهورية الإسلامية بقوة بحقها في الطاقة النووية، حتى لو أدّى ذلك إلى أن تتحمّل العقوبات على أيدي المجموعة الدولية، لكن صانعي السياسة الأكثر عقلانية يرون أن سجلاً ملطّخاً لحقوق الإنسان هو بمثابة جرح تتسبب به إيران لنفسها ويضعف قوتها التفاوضية. وإذا ما تحقق رجال الدين الذين يتولون السلطة من أن وراء الأفق ضربات عسكرية وليس حلاً تفاوضياً، فسوف

يعتبرون أنه ما من حافز وما من مصداقية قد توافرت لهم جرّاء حمايتهم لحقوق مواطنيهم. أعتقد أن الضغط الأجنبي مفيد، لكن يجب أن يكون صنفاً مناسباً من الضغط، موجهاً نحو هدف معيّن وله غاية. ففي النهاية، أنتجت الثورة الإسلامية معارضتها، وليس الأقل أهمية فيها جماعة كبيرة من النساء المتعلمات والواعيات اللواتي يصارعن من أجل حقوقهن، ولتغيير بلدهن من دون أن يعيقهن شيء.

أعلم منذ زمن بعيد، وازداد بذلك شعوري حدة، أن ثمن تغيير إيران سلمياً هو تضحية من أجل هدف أسمى. إن أشخاصاً مثلي ومثل المعارضين الذين أمثلهم سيسقطون على الطريق، وهذا أمر واقع بسيط. نعلم ذلك علم اليقين من عدد لا يحصى من زملائنا ومعارفنا الذين قُتلوا في هذه الأعوام الطويلة. وقد تصاعدت التهديدات ضد حياتي منذ أن تلقيت جائزة نوبل، وعيّنت الحكومة الإيرانية حرّاساً شخصيين يلازمونني أربعاً وعشرين ساعة لحمايتي. ولا بد من القول إن هذا الترتيب غير مريح، في أفضل الأحوال. وثمة أوقات أشعر فيها بالخطر أكثر من أوقات أخرى، وهناك لحظات يصبح فيها المناخ السياسي في طهران متوتّراً إلى الحد الذي نتكلم فيه همساً خائفين حتى من الهواء تقريباً. في هذه اللحظات، يقترح بعض أقاربي أو أصدقائي عليّ قضاء بعض الوقت في الخارج. وأسأل نفسي: أي نفع لي في الخارج؟ هل يمكن أن أواكب طبيعة عملي والدور الذي أؤديه في إيران عبر القارّات؟ لا بطبيعة الحال. لذا أذكّر نفسي بأن التهديد الأعظم قطعاً هو خوفي؛ هذا هو خوفنا، خوف الإيرانيين الذين يريدون مستقبلاً مختلفاً، والذي يجعل خصومنا أقوياء.

مع ذلك، ثمة أوقات، أتذكر فيها عندما أتمهل وأتأمل، أنني لم أتمتع كفاية بطفولة ابنتيّ. طبعاً كنت موجودة معهما جسدياً، أوضّب وجبات الغذاء وأقود السيارة بهما إلى المدرسة. لكنني كنت أركز بشدة على الجمع بين كل الأمور - عملي، قلقي، صحتي وصحتهما - إلى الدرجة التي نسيت معها

التمتع بأحلى سنواتهما. أما الآن وقد أدركت ذلك فقد كبرتا ورحلتا، لذا أفكر في التمهل قليلاً من أجل نفسي. لا أوهم نفسي بإمكان انصرافي إلى التقاعد، فهذا يعني أن إيران قد تغيرت، ولم تعد ثمة حاجة إلى أشخاص مثلي لحماية الإيرانيين من حكومتهم. إذا حل هذا اليوم في حياتي فإنني سأتراجع وأصفّق لجهود الجيل المقبل من عزلة حديقتي. وإذا لم يحصل ذلك سأتابع كما فعلت دائماً، على أمل أن يقف المزيد من مواطنيّ الإيرانيين إلى جانبي.

ما رويته في هذا الكتاب هو حصيلة تذكّر شخصي لعدد كبير من الحالات والأحداث التي أثرت في حياتي. وليست هذه مذكرات سياسية، ولم أحاول فيها تقديم تحليل سياسي لكيفية وقوع أحداث معيّنة أو لأسبابها. إن كثيراً من الحالات التي وصفتها تستحق معالجة أوسع بكثير مما حظيت به هنا، وآمل أن أتمكن في المستقبل من تخصيص كتب أخرى تتناولها من زاوية تحليلية أعمق.

شكر

يجب أن أشكر أولاً عبد الكريم لهيجي على سنوات من الإرشاد الذي لم يكن لي غنى عنه. وأعترف بجميل عميق تجاه صديقي محمد ساهمي لكل نصائحه وحكمته المتراكمة المتعلقة بمساعيّ خارج إيران. وأدين لمنصور فرهانغ بالصداقة والتوجيه. وقد جعل الفريق القانوني المؤلف من فيليب لاكوفارا وأنطوني ديانا وريان فارلي من شركة «ماير، براون، راو وماو» صدور هذا الكتاب ممكناً بتمثيلهم قضيتنا ضد وزارة الخزينة الأميركية من دون مقابل. أشكر وكيلتي ويندي ستروتمان وزميلها دان أوكونيلمن من وكالة ستروتمان لجهودهما في رعاية طباعة هذا الكتاب في أميركا. ومن دار «راندوم هاوس» حرّر ديفيد أيبرشوف المخطوطات بموهبة راوي قصص ودقة مؤرّخ. وكان التزامه بجعل هذه القصة حية للجمهور الأميركي مصدر إلهام عظيم. أخيراً، لا يمكن للكلمات أن تصف تقديري العميق لأزاده معاوني المؤلفة المشاركة، التي جمعت بين موهبتها السامقة وعدد لا يُحصى من الساعات والأيام من العمل القاسي لإنتاج الصيغة النهائية من المسوّدة الأصلية التي كتبتها.

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن



والدة شيرين عبادي



خلال سنتها الأولى في المدرسة الثانوية



تتحدّث إلى الأطفال في جمعية الدفاع عن حقوق الأطفال



ابنتاها نيغار ونرجس



في المؤتمر الصحافي في باريس بعد فوزها بجائزة نوبل



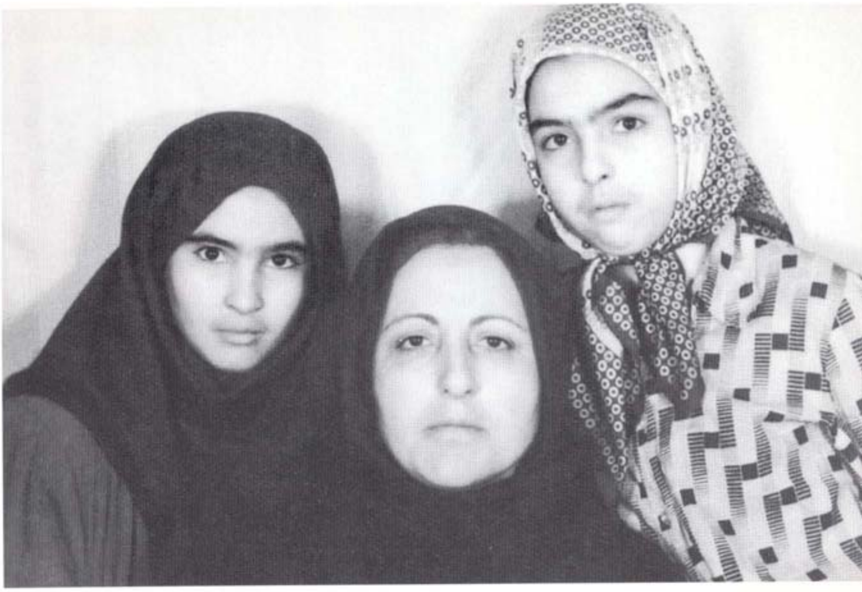
في مطار طهران بعد فوزها بجائزة نوبل



بعد أعوام من عملها كقاضية



ابنتها نيغار في عامها الأول



مع ابنتيها نيغار ونرجس



عبادي مع جمعية الدفاع عن حقوق الطفل



تتوسّط زميلتين لها في الكلّية



تتوسّط أصدقاء لها من الكلّية



يوم تخرّجها من كلّية الحقوق في الاثنين والعشرين من العمر



خلال حفل زفافها، ١٩٧٥



كانت النساء تشكّل أكثرية الحشد الذي استقبلها على المطار



تتسلّم جائزة نوبل

«إرادة شيرين عبادي التي لا تلين هي ما يفسّر كيف أصبحت ضمير الجمهورية الإسلامية».

(مجلة «تايم»)

«قاضية مميزة وإنسان على أرفع مستويات الاستقامة الديموقراطية»

(نادين غورديمر، روائية وحائزة على جائزة نوبل)

كرّست شيرين عبادي نفسها من أجل حقوق الإنسان وفازت بجائزة نوبل للسلام. هي محامية وكاتبة وناشطة ومعارِضة، تجاوز صدى صوتها حدود إيران ومنحت سبباً لبناء الآمال في مستقبل أفضل.

تتحدّث في هذ السيرة عن المُثُل العليا للثورة الإسلامية وعن خيبة أملها حيال الوجهة التي اتخذتها إيران منذ ذلك الحين في ظلّ توجيهات رجال الدين المتشدّدين. وتروي كيف خُفّضت رتبتها إلى موظّفة إدارية في المحكمة التي كانت تترأسها ذات يوم، بعدما أعلنت السلطات الدينية أن النساء غير مؤهّلات للعمل كقضاة.

وتصف عبادي طفولتها في منزل متواضع في طهران وتعليمها ونجاحاتها المهنية المبكرة في أواسط السبعينيات كأفضل قاضية في إيران.

مذكّرات فريدة مكتوبة بتواضع وشغف وإنسانية، يتضافر الحزن والبهجة، والحنين والأمل. قصّة غنية بالوحي عن امرأة جديرة بالاهتمام وعن معركة في سبيل روح أمة تتّخذ موقعاً صعباً في أحداث الشرق الأوسط والعالم.

شيرين عبادي من أبرز الناشطين على مستوى العالم في الدفاع عن حقوق الإنسان. فازت في العام ٢٠٠٣ بجائزة نوبل للسلام. تتابع عملها كمحامية في طهران كما تواصل إلقاء المحاضرات في أرجاء العالم. صدر لها بالإنكليزية عن الساقي - لندن *Refugee Rights in Iran*.

ISBN 978-1-85516-382-9
9 781855 163829 >

DAR AL SAQI
دار الساقي